عبد العزيز الثعالبي

مقالات في التاريخ القديم

جمع وتعليق
جلّول الجريبي



عبد العزيز الثعالبي

مقالات في التاريخ القديم

جمع وتعليق
جلّول الجريبي



الطبعة الاولى
1986

دار الغرب الإسلامي

ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ما كاد الشيخ عبد العزيز الثعالبي (1874 - 1944) يَفْقه معنى الحياة حتى اصطدم بوضع بلاده - تونس - وهي ترزح تحت نير الاستعمار الظالم، وتكتوي بحمّى سياسته الغاشمة وتلقى من عنته الخسف والذل والمصائب، فزَجّ بنفسه في معترك الجهاد الوطني قبل بلوغه الثانية والعشرين من العمر، وصار يجاهد غير عابىء بالأكدار والأخطار في سبيل النهوض ببلاده من ركودها الطويل ويعمل على تأجيج نار الوطنية في الشعب، ويحرص على المحافظة على الشخصية التونسية العربية الإسلاميَّة في الوقت الذي كان المستعمر يوالي جهوده لنفيها ومسخ مقوماتها الجنسيّة واللغويّة والدينيّة. . . «فقاد تونس، إلى خيرها، وساقها في طريق حرّيتها، ودفعها في سبيل استقلالها ونفخ في باقي الأقطار المغربية روحاً من عنده، فهبَّت من مراقدها تدأب وراء الحياة العزيزة، وتستنشق ريح الحرية العبق، وطاف أقصى الشرق وأدناه يبشر بمنهجه السياسيّ تلك الأمم النائية النائمة، ويوقظ فيها روح العزَّة الشرقية التي يحملها لهم في صدره غير مثقل ولا وان. ليس الثعالبي بالبطل الذي يرى الخير لتونس أو العالم العربي فحسب، بل يرى الخير للشرق بأجمعه ويعمل لخير الشرق بأجمعه. وهو رجل الشرق الفذ وبطله الأوحد»[1]،

(1) لسان الشعب (تونسية) عدد 148 السنة 4 في 1924/6/25.

حيّر الألباب بفيض علمه وأحيى النفوس ببدائع وطنيته وغيرته، فاقترن اسمه بذلك وصار يُعرف بالزعيم، والسياسي، والمجاهد، والوطني، ونحو ذلك من الألقاب التي تشير إلى ريادته في المعتركات السياسيّة، والحملة على الاستعمار وتحريك سواكن النفوس، وإيقاظ الضمائر وبثّ الوعي لتحطيم القيود وتحقيق التحرُّر والانعتاق من ضروب الهيمنة والاستبداد.

ولا نرى حاجة إلى التَّدليل على نشاطه السياسيّ وتضحياته في سبيل خلاص تونس وكل البلاد العربية والإسلامية من ربقة الاستعمار والاستعباد. فتاريخه زاخر بالجهاد الجريء في تونس - مسقط رأسه - وفي الجزائر - موطن أجداده - وفي مصر والعراق .وسوريا والهند وفلسطين وتركيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد العالم.

كما لا نرى حاجة إلى التدليل على أن فكره حرّ لا يعرف حدوداً في حريته. ترى فيه الحكمة والاختبار والمعرفة والعلم وسعة الاطلاع. فدروسه الرسميَّة في جامعة آل البيت ببغداد، وقضيته الدينية عام 1904 خير شاهد على ذلك. لقد «حَمَل على الذين يتخذون من الدين ستاراً يتزلفون به إلى الحكومة، ويضلِّلون بذلك على الشعب البريء المغرور بالأوضاع السخيفة والشكليات الصورية التي يضعها رجال الطرق والزوايا عرضة في سبيل النهوض بالأمّة ويناهضون بها كل من حاول أن يرفع عن الدين سمة الجمود التي ألصقوها به كذباً وبُهتاناً»[1]

أما الثعالبي الخطيب، فحدِّث عن البحر ولا حرج. فإن نشوءه في بيئة مناضلة وممارسته للحوادث السياسيَّة منذ عهد مبكّر، وتقلّده مقاليد الزعامة القوميَّة - في تونس وخارجها - ممَّا هيّأ لظهور مقدرته في فنّ الخطابة والبيان. «فما أشبه مجلسه بفصل من فصول الجامعة. يفيض

---

(1) الإرادة (تونسية) العدد 886 السنة 18 في 1951/10/30.

الرَّجل على سامعيه شآبيب من غزارة مادته وواسع اطلاعه ولاذع نقده»[1]، إذا تكلم فإنما ينطق عن حكمة واختبار «وإذا خطب يزخر كالبحر، ويزأر كالأسد، ويتدفق كالسَّيل. يملك عواطف سامعيه ويتوجَّه بمشاربهم حيث شاء»[2].

ونكون مخطئين في الحكم على الرَّجل إذا عددناه خارج زمرة الأدباء لعدم وجود أثرٍ أدبيّ له. فإنَّه لو انصرف إلى هذه الناحية لأخرج للأدب العربيّ ناحية جديدة في النقد تُبوّئه مكانة مرموقة بين الأدباء المشهورين والنقَّاد المتضلعين. فقد «شغله عن التأليف اشتغاله بالسياسة العامَّة وكثرة تطوافه وترحاله في سبيل الجامعتين - العربية والإسلامية - وانصرافه إلى الكتابة في الصحف والمجلاَّت، ووضع التقارير الضافية عن حالة الأمم الشرقية»[3].

وقد تحدَّثتِ الدراسات التي كتبت عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي - على اقتضابها وقلَّتها - عن تلك الجوانب وغيرها من شخصيته، غير أنها لم تتحدَّث عنه بصفته مؤرّخاً، والحال أن له باعاً طويلاً في ميدان التاريخ وفلسفته، وقدرة نادرة على تحليل الوقائع والأحداث، وضبط أسماء الشخصيات والأماكن بفضل رحلاته الكثيرة التي جاب فيها الشرق والغرب منذ نضارة شبابه ممَّا أوقفه على أكبر نصيب من أحداث التاريخ، وهيَّأ له لبدء مباحثه من الأصول دون أن تخدعه الظواهر أو الشؤون الحاضرة، فكان بذلك إمام المؤرِّخين وعمدة المحققين في هذا الباب. «فهو يصل البحث في سلسلة لا تنقطع. لا يترك عبرة تاريخيَّة ولا حالة اجتماعيَّة ولا نكتة سياسيَّة ولا فائدة اقتصادية إلاَّ وعرَّج عليها وألمَّ بها... ولا نبالغ إذا قلنا إنه لو لم يسبقه ابن خلدون إلى وضع علم

(1) الشورى (مصرية) العدد 282 السنة 6 في 1930/7/16.

(2) مكارم الأخلاق (تونسية) العدد 4: السنة 1 في 1 جمادى الأولى 1356.

(3) م. س.

الاجتماع والسياسة لكان هو ابن خلدون هذا الزمان»[1].

وممَّا يستحقُّ التنويه به أنَّه لم يكن يتكلم إلاَّ بما توصَّل إليه بنفسه وعرفه عن تجربة واختبار دقيقين. فقد كان يدوِّن مشاهداته ونظراته وخلاصة اختباراته، وقد وعى من أحْوال الشرق والغرب، في مذكراته التي يوجد أغلبها بين يدي الدكتور أحمد بن ميلاد الذي علمت منه أنَّه أعدَّ منها للنشر ثلاثة مؤلفات هي:

- تاريخ شمال إفريقيا: من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبيَّة.
- الرحلة اليمنيّة[2].
- مسألة المنبوذين في الهند[3].

ونرجو أن يتواصل هذا السعي المشكور مع بقيَّة مذكَّرات الشيخ حتى تبرز إلى عالم النشر فيفيد منها رواد البحث وطلاَّب المعرفة، لما يختص به صاحبها من غزارة مادَّة وواسع اطلاع ولاذع نقد...

ونحن مساهمة منَّا في خدمة الثقافة الإسلاميَّة وتخليداً لذكرى هذا الرَّجل الفذِّ وتحية لروحه الزكية، قمنا بجمع هذه المقالات التي نُشرت له تباعاً في جريدة الإرادة (التونسية) تحت عنوان: خلاصة من التاريخ القديم[4]: وحاولنا الإكثار من الشروح والتعاليق عليها تمكيناً للقارىء من الاستفادة منها.

وقد بيَّن المؤلف بأنَّها توطئة «حتَى يقف القراء على كتب من ذلك الانقلاب الهائل الذي أجراه (الإسلام) في العالم لتحقيق سلامة الأمم

---

(1) لسان الشعب (تونسية) العدد 149 السنة 4 في 1924/7/2.

(2) يصف فيه رحلته إلى اليمن سنتي 1925 - 1926.

(3) إذا كان الكتيِّب الذي صدر للمؤلف في نفس الموضوع عبارة عن جملة تقاريره التي أعدَّها عند إيفاده من قبل الأزهر إلى الهند، فإن هذا المصنف المعد للنشر يبسط (مسألة المنبوذين) بكل تفصيل ويطرح لها الحلول بصورة دقيقة وواضحة.

(4) بين العددَيْن الصادرين بتاريخ 1939/3/9 و 1939/6/27.

وإنقاذها من العسف والطغيان»[1].

والغالب على الظنِّ، أنَّه كما كتب ابن خلدون وابن أبي الضياف وخير الدين التونسي وغيرهم مقدّمات لمصنَّفاتهم (العبر) و (إتحاف أهل الزمان) و (أقوم المسالك)... كتب الشيخ الثعالبي هذه الفصول مقدمة لمصنف موضوعه: [معركة الإنقاذ الإسلامي] خصوصاً وقد عرفنا أن له في تاريخ الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي إلى آخر الدولة الأغلبيَّة، مخطوطاً سيرى النور كما قُلنا، عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقد قسَّمنا المادَّة المجموعة حسب طبيعة الموضوع إلى بابينْ:

الأوَّل: في الأدوار التي مرَّتْ على الشمال الإفريقي إلى الفتح الإسلامي وتندرج تحته أربعة فصول هيَ:

- الدور القرطاجي.
- الدور الروماني.
- الدور الفندالي.
- الدور البيزنطي.

الثاني: في الصِّراع على السيادة العالميَّة بين العرب والآريين إلى إشراق الرسالة المحمديَّة وتندرج تحته خمسة فصول هي:

- الدور العربي.
- الدور الفارسي.
- الدور اليوناني.
- الدور الفارسي ثانية.
- تاريخ اليمن.

وقد انتهى بنا عملنا في هذه الفصول إلى تسجيل الملاحظات التالية:

---

(1) انظر ص: 37 من هذا الكتاب.

1 ـ خروج المؤلف عن منهج المدرسة التاريخية الكلاسيكية التي كان روادها أمثال المسعودي وابن خلدون يبتدئون للتأريخ للشمال الإفريقي بالفتح الإسلامي دون اهتمام بالفترة الطويلة السابقة لهذا الفتح والتقلبات الخطيرة التي عرفتها المنطقة خلال تلك الفترة.

2 ـ تأثره الواضح في تحليل الأحداث وفلسفة التاريخ بابن خلدون كالقول إن الفساد والظلم مؤذنان بالخراب وفساد العمران. «فإن استنتاجاته التاريخية ما أشبهها باستنتاجات ذلك المؤرِّخ العظيم ابن خلدون وما أقرب روحه من روحه»[1].

فهو لا يكتفي بسرد الأحداث والوقائع سرداً آليّاً، بَلْ يبصّر بالواقع المؤلم الذي كان عليه العالم قبل ظهور الرسالة المحمدية ويدعو بإلحاح للاستنهاض وإيقاظ مسيّري دفة النهضات القومية، ومراقبة ما يقع تحت أنظارهم من أحداث للعبرة والموعظة.

3 ـ اعتماده الواضح على تاريخ الأمم والملوك للطبري. حتى أننا نجده في بعض الأحيان ينقل عنه نقلاً حرفيًّا الفقرات الطويلة دون أيّة زيادة أو نقصان[2].

على أن ذلك لا ينقص من قيمة هذا العمل، نظراً لما فيه من ملاحظات ومقارنات وإضافات تدلُّ على دراية بالعقائد والأديان، ومعرفة بالمدن والأماكن والمواقع معرفة تامَّة بفضل مطالعاته الكثيرة ورحلاته الطويلة إلى أغلب تلك المواطن وزيارته لها واطلاعه على آثارها بصورة مباشرة بل وبمساعدة اختصاصيين وفنيّين في ميداني التاريخ والآثار.

---

(1) لسان الشعب (تونسية) العدد 148 السنة 4 في 1924/6/25.

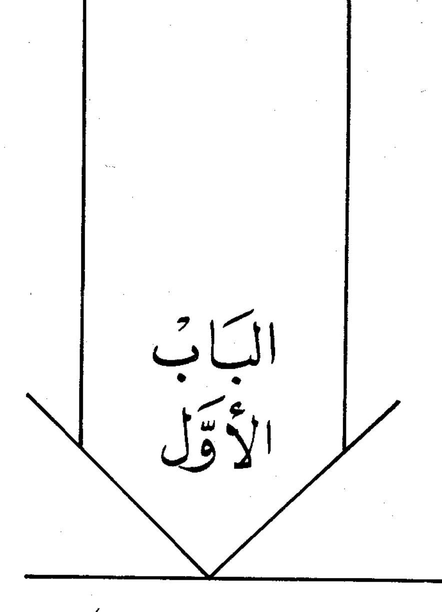
(2) قارن مثلاً بين الصفحتين 108 و 115 من هذا الكتاب والصفحة 69 من الجزء الثاني من تاريخ الأمم والملوك للطبري.

واعتقادنا جازم في أن هذا العمل سيسدُّ فراغاً كبيراً في مجال الدراسات التاريخية النقدية، وسيكون ذا نفع وفير لدارسي التاريخ عموماً والحضارة الإسلامية على وجه الخصوص.

وبقيت كلمة أخيرة عن أسلوب الثعالبي ولغته في هذه المقالات، ففضلاً عن تبحره الواسع في فن الخطابة، وجزالة ألفاظه، فإنه أحياناً حرصاً على دقة المعنى - قد يستعمل بعض الألفاظ أو العبارات التي لا تبدو مألوفة في الكتابات الحديثة. كما أن طريقته في الكتابة لبعض الكلمات - وهو في ذلك ككل معاصريه من الكتاب - تختلف عن المألوف الآن مثل «الدمقراطية» دون ياء سابقة على الميم، كما أنه قد يخالف نفسه فيكتب «بيزنطة» و «بزنطية» و «بزنطة» على سبيل المثال. وقد كان لنا سبيل واحد في ذلك وهو شرح ما قد يغمض على القارىء من معاني بعض الألفاظ أو العبارات، والإبقاء على أسلوب الشيخ كما هو أمانةً أمام القارىء وفائدةً لمن قد يتصدى من الباحثين للكتابة المفصلة عن أسلوبه ولغته.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾
(صدق الله العظيم)

تونس في 1986/6/9
جلّول الجريبي



تاريخ الشمال الإفريقي إلى الفتح الإسلامي

- الفصل الأوّل : الدور القرطاجي.
- الفصل الثاني : الدور الروماني.
- الفصل الثالث : الدور الفندالي.
- الفصل الرابع : الدور البيزنطي

الفصل الأوّل

الدّور القرطاجي

لم يكن لشمال إفريقيا في القديم على التحقيق تاريخ مدون يرجع إليه قبل 3900 سنة إلاَّ يوم وصلها البحارة الفينيقيون (سادة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط)[1] ونزلوا سواحله الجميلة، وألفوا أهله قوماً من رهطهم الأدنين سلائل العرب الأقحاح[2] الذين دفعتهم

(1) يجمع المؤرخون على أن أصل الفينيقيين لا يعرف على التحقيق إلاَّ أنه منذ عام ٢٥٠٠ ق. م جاءت أقوام يقال أنهم من الكنعانيين وانتشروا بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط.
أما تسميتهم بالفينيقيين فالغالب أن اليونانيين سمُّوهم بذلك إما لسُمرة لونهم وإمَّا لأنهم كانوا يلبسون أردية أرجوانية. وكلمة (فينيكس) اليونانية تدل على هذين المعنيين.

(2) لا يوجد جنس من البشر في إفريقيا الشمالية يعرف بالبربر وإنما هذا الاسم جَعْلي وضعه الرومان لكل من يرطن بغير لغتهم كما يطلق العرب كلمة أعجمي على كل من يتكلم بغير لسانهم (المؤلف).
وهذا خلاف ما يجمع عليه المؤرخون. فهم يؤكدون على أن العنصر البربري ظهر في شمال إفريقيا منذ أقدم العصور وعرف بذلك الاسم قبل دخول الرومان وهو إلى =

موجات الجزيرة فرمت بهم إلى هذا الطرف من القارة الإفريقية فنزلوا في كنفهم[1] بأرض خصبة نضرة، جيدة المحصول، عذبة المياه، نقية الهواء، صافية الأديم، لا تفترق طبيعتها عن طبيعة مواطنهم في صور[2]، وصيدا[3]، وبيروت[4]. فطاب لهم المقام فيها، وازدادوا تعلقاً بها حين تألفوا السكان، واستأنسوا بلقائهم.

وكانت منازل هؤلاء الأخيرين الغيران والنواويس[5] ومبانيهم الخصاص[6] والأكواخ ومعاقلهم الكهوف، وحصونهم رؤوس الجبال، وأوكار الطير، ومراكبهم الجياد والإبل، حرفتهم الصيد والقنص، وأقواتهم ما تخرجه الأرض من النباتات، وتحمله الأشجار من الثمرات ونتيجة الحيوان الأليف.

= اليوم ما زال متميِّزاً بميزات تخصُّه (إفريقيا الشمالية تسير: شارل أ. جوليان ط 3 الدار التونسية للنشر 1976 ص: 27).
ويفرِّق المؤرخون المعاصرون بين البرابرة Barbare والبربر Berbères. يعنون بالأولى المتوحشين من الناس والسفاكين، أما الثانية فتسمية لجيل من الناس هم سكان الشمال الإفريقي. (تونس العربية: إحسان حقّي دار الثقافة بيروت ص 9).

(1) الكنف والكنفة ناحية الشيء (لسان العرب: ابن منظور/ 3).

(2) كانت من أشهر المدن القديمة في زمن الفينيقيين الذين أسسوها (الألف 3ق. م) على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. منها هاجرت ديدون (عليسا) لتؤسس قرطاجة في إفريقيا.

(3) مدينة ساحلية من أهم المدن الفينيقية تبعد عن بيروت 45 كلم. كان سكانها يمتهنون الصيد ولذلك قال بعض المؤرخين أن اسم هذه المدينة مشتق من مهنة أهلها (الصيد).

(4) اسمها قديماً (بيريتوس) وهي من المدن المهمَّة التي كانت للفينيقيين. تقع على البحر الأبيض المتوسط.

(5) النُواس هو ما تعلق من السقف. فنواس العنكبوت نسجه (ابن منظور /3).

(6) الخصّ هـو البيت من شجر أو قصب ـ والجمع أخصاص وخصاص (المصدر السابق /7).

ولما عاد أولئك البحارون إلى مواطنهم بأنباء اكتشافاتهم البحرية لهذه الأرض الحديثة أغروهم بها ومن حديث الأسفار ما يغري السامعين المولعين بالغرائب، وبكل طريف جديد. فأخذوا يهرعون إليها على متون المراكب الشراعية التماساً للمتعة والكسب.

من ذلك العهد اتصل شمال إفريقيا بالعالم المتمدن، وفتحت ثغوره للمهاجرين من الفينيقيين والتجار المغامرين منهم، فأقبل هؤلاء. وهؤلاء يحملون في حقائبهم إلى أهل الدنيا الجديدة طرائف المصنوعات من العالم القديم ـ المنسوجات والمفارش وأدوات الزينة وأثاث المنزل من النحاس والقصدير والزجاج والفخار والتحف النادرة ومنها الدمى الجميلة التي كانوا يجعلونها رمزاً مقدساً للمعبودة (تانيت) آلهة الحسن والفتنة يستبون بها أحلام السكان السابقين عوض الكبش الذي كانوا يتخذونه رمزاً للمعبود القوي، والجمال أفتن للأبصار من كل مظهر للقوة، فأقبلوا على قنيتها[1] بلهفة شديدة وأعرضوا عن صورة الكبش، والنفوس مفتونة بالجديد الطريف من كل شيء حتى الرموز.

ومتابعة لهذه القاعدة أخذ الأفارقة يتنافسون في اقتناء البضائع المنقولة إليهم من أرض المشرق مقايضة بما لديهم من أصواف وأوبار وجلود وقرون وشمع. وكذلك ما يجلب إليهم من أواسط إفريقيا من العاج والتبر وريش النعام وما إلى ذلك من المتاع الذي تنافس فيه المترفون.

---

(1) لا وجود لمصدر بهذه الصِّيغة. فالقنية ما اكتُسب وجمعها قنىً. أما المصدر فهو القنوّ أو القنوان من قنوتُ الشيء بمعنى كَسِبتُه واقتنيتُه. (لسان العرب لابن منظور م: 3).

وبسبب هذه المقايضة الرائجة اضطردت العلاقات بين الطرفين واستحكمت بينهما الصلات وتكاثرت جوالي الفينيقيين. فأنشأوا على السواحل مراكز عديدة لمتاجرهم ففزع إليها المشترون والمقايضون، وما زالت في تقدم وانتشار وانتظام حتى صارت مدناً آهلة لا عهد بمثلها للأجيال التي تقدمتهم وهي: حترموت (سوسة)، تونس[1] بنزرت، العتيقة (أوتيكة) بجاية[2]، شرشال[3]. طنجة[4] سلا[5] إلخ.

واستمر توافد الفينيقيين على تلك الأسواق الإفريقية وعددهم يتكاثر ويزداد، والسكان يتلقونهم بالترحاب عملاً بشيم العرب إلى أن قدمت الأميرة عليسة ديدو[6] في مراكبها الملكيّة[7] من مدينة صور

---

(1) كانت تسمَّى في القديم (ترشيش) وهي قرب مدينة قرطاجنة (معجم البلدان: ياقوت الحموي. م: 1).

(2) كانت في ذلك الوقت ميناء فقط ولم تُصبح مدينة إلَّا في حدود سنة 457 م حين اختطهـا الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مُنادٍ بن بلكين فسمِّيت بالناصرية.

(3) مدينة غرب مدينة الجزائر كان للفينيقيين بها محطة تجارية تعرف باسم إيول Iol. وهي التي أطلق عليها يوبا الثاني اسم قيصرية (دائرة المعارف الإسلامية م: 13).

(4) مدينة على ساحل بحر المغرب وهي آخر حدود إفريقيا (معجم البلدان: ياقوت الحموي م: 4).

(5) مدينة بأقصى المغرب على ساحل الأطلسي عند مصبّ نهر أبي الرقراق وتسمى عند الفينيقيين (سلا) وعند الرومان سلاكولونيا Sala Colonia (المصدر السابق م: 3 - دائرة المعارف الإسلامية م: 12).

(6) يُقال أن الملك جارياس تغلب على قرطاجنة وخطب ديدون (عليسا) لنفسه فامتنعت لأنها كانت صمَّمت على عدم التزوّج بعد زوجها. فلمَّا علمت أن ذلك الملك مصرّ على اغتصابها أحرقت نفسها (دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي). وهي عليسة Elissa بنت ماتان حفيد ايتو بعل ملك صور.

(7) في الأصل: الملوكية.

مغاضبة لأخيها الملك[1] الذي قتل زوجها[2] للاستئثار بالملك دونه، فنزلت على الساحل الشرقي من خليج تونس واشترت هناك مساحة واسعة من الأرض وكان ذلك في حدود سنة 880 قبل الميلاد[3]. واختطت عليها المدينة العظيمة (قريت حديشت) التي حرف الرومان اسمها إلى قرطاجنة[4].

ولم تكد تعمر هذه المدينة الفينيقية حتى طار صيتها في الآفاق وظهرت شوكتها ودانت لها بقية المدن الفينيقية التي على هذا الساحل بالطاعة وتألفت منها مملكة متحدة على قواعد حكومة متغلبة على بلاد محتلة، يديرها مجلس تشريعي مركب من مائة عضو يتعينون من التجار الفينيقيين يترأسهم في كل سنة شيخان بالانتخاب.

ولهذا المجلس السلطة التامة على إدارة شؤون المملكة، وهو مختص بالنظر في مصالح الفينيقيين واحتياجاتهم، وحماية حقوقهم ومتاجرهم وحرياتهم. وهو مع ذلك لا يلتفت لمصالح المواطنين الآخرين، وربما كان في دخيلة نفسه لا يعترف بوجودهم أصلاً في البلاد، مع أنه يفرض عليهم الأتاوات الثقيلة والتكاليف الباهظة ولا يقر لهم بنظام الهيئة الاجتماعية، وغاية ما خول لهم من الحقوق قبولهم في الجندية القرطاجنية لا كوطنيين يشتركون مع مواطنيهم في الضريبة الدموية لحماية الوطن من الغوائل الأجنبية بل كأجانب

---

(1) هو ملك صور المسمّى بغماليون.

(2) هو المسمَّى (سرباس) رئيس الكهنة.

(3) أغلب المصادر تشير إلى أن ذلك كان سنة 814 قبل الميلاد، كما وجد من يقول سنة 840 أو 846 ق. م.

(4) قيل إنها سمتها عليسة بنفسها بمعنى المدينة الجديدة (دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي) وقِيلَ أن اسم هذه المدينة (قرطا) وأضيف إليها جنّة لطيبها ونزهتها وحسنها. (معجم البلدان: ياقوت الحموي م: 4).

مأجورين على عمل لا أثر فيه للحمية. وهذه غلطة فاحشة وقع فيها القرطاجنيون كانت على مدار الزمن سبباً في تقلص ملكهم وزوال بأسهم كما سنبينه فيما يلي.

لم يستنكر قدماء الأهالي في أول الأمر على القرطاجنيين سلوكهم لهذه السياسة الوخيمة بل كانوا يقرّونها ويتسابقون إلى الخدمة في الجندية، وربما كانوا يظنون أن قبولهم فيها هو أقصى ما يمكن أن ينالوه من الحظوظ، وليس وراء ذلك غاية لمستزيد. ودرجوا على ذلك بضعة قرون وهم يعتقدون أن الفينيقيين أحق منهم بالامتياز في كل ما له مساس بالدولة، ولا نزاع في ذلك واطمأن الفينيقيون لهذا الاستسلام من مواطنيهم، وأدركوا في غفلتهم من البسطة والجاه ما لم تدركه أية[1] دولة من الدول التي تقدمتهم والتي عاصرتهم. فقد بسطوا سيادتهم على كامل شواطىء شمالي إفريقيا[2] ثم تنقلوا إلى الشواطىء الثانية المقابلة لها في البحر الأبيض المتوسط واستقروا في أحضان إسبانيا وفرنسا وإيطاليا[3] وعبرت قوافلهم التجارية إلى أواسط إفريقيا، وجاوزت بحيرة تشأد، ونقلت لهم أمتعة السودان وما احتواه من كنوز التبر والعاج وما إلى ذلك من العروض الثمينة التي وضعوا بها أيديهم على مقابض الأموال وحملوا الأمم المجاورة على الاعتراف لهم بملك إفريقيا والسيادة على البحار.

وقد بلغ بهم الخرق أنهم كلما زادتهم الأيام إقبالاً وازدهاراً إلّا

(1) في الأصل: أيّ.

(2) فصارت تونس وطرابلس والجزائر ومراكش من ضمن أملاكهم.

(3) فقد استولى القائد: ماغون على جزائر باليار بالبحر الأبيض المتوسط وأنشأ في إحداها فرضة عظيمة تُعرف باسمه، كما فتح جزء كبيراً من جنوب إسبانيا وتبع ذلك فتح جزر سردينيا وكورسيكا ومالطة.

وازدادوا إذلالاً لمواطنيهم واحتقاراً وتناسوا أنهم عماد قوتهم ومورد جاههم وسطوتهم، وكان الغرور يسول لهم أنهم ليسوا إلّا متاعاً حقيراً لا يؤبه له، وكأن عظات الدهر لم تنذرهم بأن الصلف[1] والكبرياء في نفوس المتغلبين يفرخان في روع المقهورين حب الثيار[2] والانتقام وما هي إلّا يقظة تعقبها وثبة ثم تتلوهما هزة وإذا بذلك الشبح الوهمي القائم على إثلات الموظفيـن يصير هباء تذروه الرياح.

حقاً لقد تغالت قرطاجنة المفتونة بعظمتها في احتقار الأهليين الذين تقدموها في تعمير البلاد وبالغت في إرهاقهم وإذلالهم حداً بعيداً إلى أن طرقتهم الدعاية الرومانية بأنهم شعب مَحيق[3] مهضوم فأيقظتهم من سِنتهم فإذا.هم قيام ينظرون ثم رأيناهم يتقدمون في غير وجل ولا استحياء يصارحون قرطاجنة بطلبات إنصافهم. وبدل أن تعجل بإجابة سؤلهم تبادر إلى تمزيق شملهم وتنكل بهم أسوأ تنكيل ليكون ذلك سبباً في التعجيل بانقراضها ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[4] (صدق الله العظيم).

لم يكن الرومان جادين ولا صادقين في إبداء عطفهم للأفارقة، وإنما كانوا ينظرون إلى تقدم قرطاجنة وما بلغت إليه من بعد الصيت ونباهة الذكر نظر المغشي عليه من الموت فكانوا يسعون من وراء هذا العطف المصنوع أن يوجدوا نزاعاً داخلياً في مملكة قرطاجنة بينها وبين عناصرها الوطنية لإعاقتها عن التقدم، وذلك لتسهيل إيصال الضربة

---

(1) من صلف صلفاً فهو صلِفٌ أي جاوز وادَّعى فوق ذلك تكبّراً. (لسان العرب لابن منظور. م: 2).

(2) لم نجد في المعاجم اللغوية هذا المصدر. فثار يثور ثوراً وثواراً وثؤوراً وثوراناً بمعنى هاج وغضب (المصدر السابق م: 1).

(3) أي ممْحُوق.

(4) هود: 117.

إليها من خلف يوم يشتبكون معها في حرب ضروس. وما صدقوا أن علموا أن الأفارقة يشكون من معاملة قرطاجنة لهم كأجانب في بلادهم فاندفعوا يحرضونهم عليها ويدعونهم أن يكونوا في جانبهم فصادفت هذه الدعوى الآثمة هوى في النفوس فكانوا عند حسن ظن الرومانيين بهم في غفلة قرطاجنة وغرورها بقوتها واعتدادها بالنفس وسوء تقديرها للعواقب المرتبة على إغضاب عنصر الوطنيين، وانضمامهم إلى أعدائها كما حصل ذلك بالفعل.

فقد نشبت المعارك بين قرطاجنة وروما[1] في سنة 264 قبل الميلاد وختمت في سنة 146 أي بعد أن استمرت مدة 118 سنة وما كان الرومان بقادرين وحدهم على مناهضتها لو لم ينضم إليهم الأفارقة، ويقاتلوا في صفوفهم وهم جنود قرطاجنة البسلاء الذين عززوها ونصروها ووضعوا بسواعدهم فوق هامتها إكليلاً من الفَخار والمجد.

معارك قرطاجنة وروما

دارت أولى المعارك بين الدولتين في جزيرة صقلية بمليس سنة 260 وبأكنوم سنة 256 قبل الميلاد وكان الفوز في هاتين الواقعتين العظيمتين حليفاً للرومان ولما تابعوا أعداءهم إلى إفريقية سنة 255 فارقهم الحظ المجدود فانكسروا انكساراً مريعاً[2] ويقص علينا التاريخ الروماني من أخبار هذه الواقعة أن جندهم وقائدهم

---

(1) هي ثلاث حروب دُعيتْ بالحروب البونيقية (أو البونيكية) (أو البونية) لأن الرومان كانوا يسمُّون أهل قرطاجنة بالبون.

(2) عندما تدخلت اسبارطة وساعدت القرطاجنّيين الذين أمدّوهم بجيش وأسطول تحت قيادة كسانتيب.

روغلوس[1] وقعوا في أسر القرطاجنيين فقتلوهم جميعاً دون أن تدركهم فيهم شفقة ولا رحمة.

غير أن هذه الكسرة الشنيعة لم تخفض من عزم الورمانيين بل إنهم استأنفوا الكرة بعد أن تفاهموا مع الناقمين من الوطنيين ودفعوهم إلى الثوار[2] على الحكومة بدعوى المطالبة بحقوقهم وبثوا في روعهم أنهم أصحاب البلاد وأن القرطاجنيين دخلاء عليهم ويحق لهم أن يبعدوهم عنها ويصونوا استقلالهم. ولم يترددوا بعد ذلك بإقناعهم بأن روما القادرة ليست لها مطامع ولا اربة في بلادهم وإنما غايتها تحريرهم وإنقاذهم فانطلقت حيلتهم على الأهالي وصمم هؤلاء على الجهر والمطالبة بالحقوق.

مطالبة الأفارقة لقرطاجنة بإنصافهم وغضبها من ذلك

أول ظاهرة بدت من تذمر الإفريقيين في عهد الحكم القرطاجني هي اجتماع الجند المأجور في العاصمة، وكانت عدته أربعين ألف مقاتل، للمطالبة بالزيادة في مخصصاته وتقليد الرتب العسكرية للمستحقين من رجاله وقعت هذه التظاهرات عقب انفضاض الحرب الرومانية وعوض أن تنصفهم الحكومة اعتبرتهم عصاة وانتدبت قائدها المظفر هميلكار[3] لصرفهم عن العاصمة ووقايتها من

---

(1) Regulus ـ وكان معه زميله منيلوس ـ قيل إن هذا القائد (روغلوس) أرسلته قرطاجنّة في وفد قصد التفاوض مع روما بشأن الصلح، لكنه أخذته الحميّة الوطنية فأشار على الرومانيين بالإجهاز على قرطاجنة وتخريبها ووفاءً بوعده عاد إلى مؤسريه القرطاجنيين الذين أذاقوه ألواناً من العذاب وقتلوه سنة (250 ق.م).

(2) في الأصل: الثيار (انظر ص: 4).

(3) Amilcar أو Hamilcar ويدعى (برقا) (نحو 290 - 229 ق.م) هو أب حنبعل. =

بأسهم فتقدم إليهم بكل ما أوتيه من حزم وعزم وما زال بهم يروضهم حتى صرفهم إلى جزيرة شريك بن قرة ثم تبعهم بمن كان حوله من الجنود الموالين للحكومة إلى أن هبطوا إلى خنقة حجاج فضرب عليهم نطاقاً من الحصار وقطع عنهم ورود المدد والميرة[1] ولم يزل محاصراً لهم حتى هلك خلق منهم بالجوع والعطش ومن بقي أعمل في رقبته السيف.

حدثت هذه الواقعة وهي أدل ما يكون على القساوة من طرف الحكومة وقلة اكتراثها بالشعب فكانت وبالاً عليها فقد جفاها الوطنيون وغضبوا عليها، ومن منهم لا يجفو ولا يغضب؟ فقد تركت في كل كورة[2] مناحة، وفي كل منزل لوعة، وفي كل قلب جرحاً نغّارا[3] يدعو إلى الثأر والانتقام لأولئك الشهداء الذين ذهبوا ضحية الاستبداد القرطاجني.

محاولة هميلكار تلافي الخلاف وإنصاف الوطنيين

لم يلبث هميلكار بعد أن دبر تلك الواقعة الشنعاء أن أدرك بفطنته مغبة ما سيتلوها من كوارث إن لم يتعجل بتهدئة النفوس وإصلاح الحال وذلك باسترداد ولاء الشعب الهضيم وتعديل النظام الذي

= حارب الرومان في الحرب البونيقية الأولى.

(1) أي الطعام ـ يقال ماره يمورهُ إذا أتاه بميره أي بطعام (لسان العرب لابن منظور. م: 3).

(2) جمع كُوَر ـ وتطلق على المدينة كما تطلق على القرية (ن.م).

(3) جُرح نغّار أي يسيل منه الدم. قال الكميت بن زيد:

وعادت فيهنّ من ذي لبّة نُيّقت
أو نازف من عروق الجوف نغّار (م.س)

يعتبر أصحاب البلاد نفاية لا حق لهم فيها. ولما أحس منه المجلس بهذا السعي توجس منه شراً وسعى في إحباطه. وقرر أن يتخلص من هميلكار بإقصائه عن البلاد فأمر بإخراجه مع الجيش لفتح إسبانيا حماية لامتيازات المتفوقين.

وهكذا يعمي الحرص أعين البصراء عن رؤية الحقائق الساطعة، ويذل أعناق الرجال ولو قدر النجاح لمشروع هميلكار لبقيت أوروبا الطاغية اليوم مستعمرة أبدية لشمالي إفريقيا.

اغتنم الرومان فرصة انشقاق الوطنيين على قرطاجنة فعادوا في سنة 241 إلى إشهار الحرب عليها[1]، وأخفق هميلكار في إحراز النصر عليهم فالتجأت قرطاجنة لعقد صلح غير شريف مع أعدائها ومن شروطه التسليم في جزيرة صقلية[2]. وهذا كان بداية عهد الانحطاط في حياة الدولة القرطاجنية ولم تفدها انتصاراتها التالية لأن مرض الانحلال فيها تمكن في خلايا الجسم أكثر مما بدا على ظاهره.

زهو قرطاجنة الوقتي بانتصارها على الرومان

لما هلك هميلكار قام بالأمر بعده في قيادة الجيوش ابنه الفحل حنه بعل[3]

---

(1) بقيادة القنصل لأتافيوس كابولوس.

(2) وكذلك التسليم في الجزر المجاورة لها مع دفع قدر عظيم من المال وإطلاق جميع أسرى الرومان دون فدية... وقبلت قرطاجنة جميع هذه الشروط وتمّ الصلح الذي به انتهت الحروب البونيقية الأولى بعد أن دامت 23 سنة (264 - 241 ق. م).

(3) حنه بعل أو هنيبعل Annibal-Hannibal (247-183 ق.م) قائد قرطاجني فينيقي الأصل ـ ابن هميلكار برقا ـ قرّر إذلال روما فأشعل الحرب البونيكية الأولى (219 ق.م) وبعد انهزامه سنة 202 في معركة جاما (زاما) هرب إلى سورية وعمل في خدمة أنطيوخيوس الكبير السلوقي ثم انتقل إلى بيثينية حيث مات مسموماً.

فجاز بجنوده من إسبانيا إلى جبال البرنه[1] ودوخ فرنسا ثم قطع جبال الألب[2] والتقى بالجيوش الرومانية في مواقع عديدة[3].

وفي سنة 216 انتصر عليهم انتصاراً مبيناً في واقعة «كانه»[4] هلك فيها من الرومانيين سبعون ألفاً وكاد أن يبطش بروما لكنه تخلى عنها لأسباب لم تزل مجهولة والأقرب للفهم خوفه من المكائد السرية التي كان يدبرها الأفارقة مع الرومانيين للإيقاع بالجيش.

فقد استنكف الرومانيون من قتال حنه بعل في إيطاليا ورد عاديته عليها فتركوه فيها يغدو ويروح بجنوده وسيروا جيوشهم إلى إفريقيا بقيادة شيبون الأكبر[5] وعندما نزل سواحلها انضمت إليه عساكر الفرسان من الأفارقة الناقمين وسار بهذه الجحافل المتحدة لمنازلة قرطاجنة.

ولما اتصل حنه بعل بأخبار هذه الحملة انسحب بجيوشه من جنوب إيطاليا وأسرع خلف الرومانيين إلى إفريقيا[6] فالتقى العسكران بقرية جامة[7] قرب الكاف ودارت بينهما معارك حامية أبلى

---

(1) (Pyrenées) : سلسلة الجبال الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا.

(2) (Alpes) سلسلة جبال مشهورة في أوروبا باتساعها وارتفاع قممها تحدّها غرباً سهول فرنسا وشمالاً سهول بلجيكا وألمانيا وبولونيا وشرقاً سهول الروسيا وجنوباً البحر الأبيض المتوسط.

(3) كان له فيها النصر مثل توبيبا سنة 218 ق.م وترازيمين سنة 217 ق.م.

(4) (Cannes) مدينة قديمة في جنوب إيطاليا، هلك في هذه المعركة 70 ألف روماني.

(5) أو سيبيون الأكبر المعروف بسيبيون الإفريقي (Scipion l'africain) (235-185 ق.م) قائد روماني غلب هنيبعل في وقعة جاما (زاما) (Zama) فلما عاد إلى روما قوبل بالإجلال والتعظيم ولقب بالإفريقي وتقرّر وضع تمثال له في هيكل جوبتير.

(6) سنة 203 ق.م.

(7) موضع في شمال تونس قُرب الكاف التي كانت مركزاً فينيقياً وعُرفتْ قديماً (سِكّافناريا).

فيها الأفارقة الذين كانوا مع الرومانيين بلاء حسناً انهزم على أثره الفينيقيون شر هزيمة وذلك في حدود سنة 202 قبل الميلاد. فعقد الصلح بين الدولتين بشروط مهينة لقرطاجنة تنازلت فيها لأعدائها عن جميع مستملكاتها خارج الحدود الإفريقية، وسلمت في جميع ما لديها من الأساطيل البحريـة والعتاد وكان من جملتهـا الأفيال، والتزمت بإقصاء حنه بعل عن بلاده ودفع غرامة حربية ثقيلة قدرت بخمسين مليوناً من فرنكات اليوم واعترفت قرطاجنة للرومـانيين بحقوق حماية الأفارقة[1].

ومن القصص الطريفة التي يرويها المؤرخون دلالة على مبالغة الرومان في مكايدة القرطاجنيين أن هؤلاء لما أتـوا بمال الغـرامة ووضعوه في الميزان رفع القائد الروماني شيبون رجله ووضعها في الكفة الثانية وقال لأعدائه ضعوا المال لإكمال الوزن فقالوا هذا عيار لم يسجله الاتفاق فقال هي إرادة الغالب قولوا تعساً لمن غلب.

كانت الحماية الرومانية وبالأعلى القرطاجنيين فإن هؤلاء اغتنموا هذه الفرصة للوقيعة بخصومهم، وكان من أشدهم نكاية فيهم الأمير ماسنيسا حاكم نوميديا فقد لقي منه القرطاجنيون الألاقي[2] وبسبب ذلك تكررت شكايتهم إلى روما[3] ولكن بدون جدوى غير ما تفرضه

---

(1) وبذلك انتهت الحرب البونية الثانية التي امتدت من 218 إلى 202 ق.م.

(2) عُيّن مراقباً عليها لمنعها من إصلاح شؤونها واستعادة قوّتها فاغتنم هو هذه الفرصة للاستيلاء على أراضيها ومدنها.

(3) إلى مجلس (السناتو) الروماني، وقد أرسلت روما وفداً تحت قيادة (كاتون) للتحقيق في تلك الشكاوي، فتشيّع الوفد لملك نوميديا وعاد رئيسُهُ ينذر بخطر قرطاجنة إن تركت على سطح المعمورة نظراً لما رآه فيها من علامات النهضة وما توفّر لديها من أسلحة ورجال فخالفه في الرأي أولاد القائد شيبيون الذين كانوا يرون أن وجود مثل قرطاجنة من شأنه أن يجعل روما دائمة التحفّز ولا تخلد للراحة والسكينة غير أن مجلس (السّناتو) مال إلى رأي كاتُون، وقرّر تدمير قرطاجنة في أيّة فرصة سانحة.

في المشتكين أنفسهم من الندامة والحسرة على ما فرطوا في جانب أولئك المواطنين الأباة الذين أقصوهم عنهم وأجبروهم تحت تأثير خمرة القوة الباطشة على أن يكونوا آلة بيد أعدائهم الراصدين يضربونهم بهم في وجوههم وأدبارهم من أمام ومن خلف.

وما زال الأفارقة يتجنون على القرطاجنيين ويقضّون مضاجعهم والرومانيون يدفعونهم من خلف حتى أكملوا تعبئة جيوشهم فأشهروا عليهم حرب سنة 149 فتقدموا إليها وهم واثقون بالنصر وكانت قيادة هذا الجيش مناطة بعهدة القائد شيبون الأصغر المعروف بالإفريقي[1].

ولما أحس القرطاجنيون بسوء منقلبهم في هذه الحرب ركنوا إلى طلب المصالحة وقبلوا على أنفسهم كل ما أملته عليهم روما من شروط ومن جملتها تسليم الأسطول والعتاد وهما عماد حياة الدول. وكانوا في الوهلة الأولى متفائلين بهذا الصلح المشين، لظنهم أن الرومان يكفّون عن بغيهم بعد عقده حين يقتنعون بأن القرطاجنيين لم يبق لهم أرب في حربهم فخاب فألهم لأن الرومان كانوا مصرّين على تخريب قرطاجنة عروس الشرق ومالكة البحار، فأخذوا يتجهزون سرّاً لرد الكارثة. ولما تفطن لهم الرومانيون، وكانوا على أهبة تامة للحرب، أمروا جنودهم بالزحف على قرطاجنة فدخلوها عنوة سنة 146 بعد حصار عنيف استقتل فيه القرطاجنيون وأبدت فيه نساؤهم وطنية خارقة حين شعرن بنفاد الحبال من المعدات فعمدن إلى شعورهن، وهي زينتهن، وجززنها وفتلن منها حبالاً للجيش غير أن قرطاجنة هوى نجمها ولم يعد هناك شيء يصونها من السقوط

---

(1) شيبيون الأكبر هو المعروف بهذا الاسم (انظر ص: 7).

والشعب متشعب الهوى، منشق على نفسه، تعسف فيه الدسائس الأجنبية، وجيوش الأعداء محدقة بالمدينة. وتحت تأثير هذين العاملين القاتلين اختنقت قرطاجنة وسقطت جثة هامدة بين أقدام المغيرين، فسلطوا عليها معاول التقويض والتخريب[1] وتدهورت بسقوطها حضارة البحر المتوسط، وتعطل سير التمدين الإنساني بضعة قرون.

والعبرة الفاجعة من هلاك قرطاجنة أنها لم تسقط من علياء مجدها بقوة سواعد الرومانيين ولا بمهارة تدابيرهم السياسية ولكن بشفوف[2] القرطاجنيين على الأفارقة مواطنيهم الذين أعانوهم بأيديهم على بناء صرح دولتهم والإشادة بمفاخرها مدة 600 سنة ولما كسرت قلوبهم ولووا أبصارهم عنها لم ينهض بها كبرياؤهم ولم تغن عنهم أموالهم ولا تجارتهم، ولم تفدهم شجاعة أبطالهم ولا حمية نسائهم، بل سقطت سقوط الجدار المتداعي بسبب فقْد التماسك بين أجزائه. وذهبت كأمس الدابر ضحية الشفوف والطغيان. وبالرغم من توالي القرون على هذه الفاجعة فإن في أفئدة الوطنيين من ذكرها قروحاً لا تندمل ولا ينساها تاريخنا القومي.

---

(1) أضرمت فيها النار وأخذ من بقي من أهلها فوزّعوا في أطراف المملكة الرومانية حتّى لا تقوم لهم بعد ذلك جماعة.

(2) أي مفاضلتهم عليهم ومنه حديث الربا: (ولا تشفوّا أحدهما على الآخر) أي لا تفضلوا: لسان العرب لابن منظور المجلد: 2.

الفصل الثاني

الدور الروماني

ألممنا (في المقال الثاني من هذه الخلاصة التاريخية) بسرد الوقائع الفاجعة التي أودت بالمملكة القرطاجنية وهي في عنفوان القوة والبأس وسقنا إلى جانبها طائفة من الشواهد للإدلال بها على أن المعاول التي قوضتها كانت بيد الأفارقة أصحاب البلاد وإن كان لغيرهم أثر في ذلك فهو ثانوي لا يقوى على التقويض.

كان الأفارقة يعملون لهدم هذه الدولة العزيزة من ناحيتين مختلفتين ـ إحداهما سلبية والأخرى إيجابية: فالسلبية كونوها بتخلفهم عن مشاركة الجند في الحروب لتهديمه، وإضعاف قوته المعنوية، وتمكين الرعب في أبطاله. وأما الناحية الإيجابية فقد كانت بالتحزّب[1] مع الرومان وانجادهم بمقاتلتهم، ولا عتاب في ذلك عليهم لأن غايتهم المنشودة كسر شوكة أعدائهم وتنحيتهم من

(1) تحزّب القوم بمعنى تجمعوا وصاروا أحزاباً (ابن منظور/ 1).

الطريق بيد كائن من كان للحصول على استقلالهم المنتظر.

وكان على حكومة قرطاجنة أن تتلافى الضربة قبل نزولها وهي تعلم أن العدو الداخلي أَفْتَكُ بها من العدوّ الخارجي لأنه أبصر بالعيوب وأدرى بالمعاطب[1] فإذا سدد الرمية يبعد أن تخطىء الهدف.

وهكذا تجاهلت قرطاجنة مواقع الحيطة واستهدفت من علم بالعواقب لانتقام الأهالي فكان صارماً للغاية.

ولو كانت الحرب مقصورة بين الدولتين ولم يكن الأفارقة طرفاً ثالثاً فيها لتعسّر عليهم وحدهم أن ينالوا منها منالاً كبيراً بمثل تلك السرعة وهي قادرة بما لديها من مال وعتاد أن تصمد لحربهم مدة ألف سنة لا (118) سنة.

لست أقصد بإيراد هذه الملاحظة المكشوفة التجني[2] على أسلافنا الأفارقة أو رميهم بضعف الشعور بالوطنية لإنحيازهم إلى الجانب الروماني ضد مواطنيهم وهم لا تثريب[3] عليهم في ذلك بعد أن أعذروا لأنفسهم، وأبى القرطاجنيون أن ينصفوهم، وإنما مرادي أن أنفي عنهم تهمة السعي في استبدال سيد بسيد. بحيث لو ثبتت لكانت وصمة عار تندَى لها الجباه. لكنها تهمة داحضة. فالموقف الرهيب الذي وقفه أولئك الكُماة[4] في وجه روما العاتية طيلة القرون التي تسلطت عليهم فيها ولم يتهاونوا في مقارعتها حتى أزيحت عن بلادهم.

---

(1) واحدها معطب وهي المهالك (ن.م).
(2) الإدعاء عليهم ذنباً لم يفعلوه (ن.م).
(3) كالتأنيب والتّعيير والاستقصاء في اللوم (ن.م).
(4) الكميّ: الشجاع المقدم الجريء والجمع كماة وأكماء (ابن منظور/ 3).

وكذلك يقف اليوم العرب المشارقة أمام الدول المغيرة على بلادهم بعد أن عاقدوها على حرب الأتراك للتخلص من ربقتهم ولم يتخلصوا حتى شاهدوا تلك الدول الحليفة تنشب أظفارها فيهم فلم يكن للعرب بد والحالة تلك من منازلتها ليثبتوا في أذهان الناس أنهم طلّاب حق لا عبودية ينتقلون فيها من ملكية سيد إلى سيد، فكما تخلصوا من ربقة الأتراك بحد السيوف، سيتخلصون أيضاً من الطامعين في أسلابهم[1] ، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وعلى كل حال فإن أفارقة الأمس، وعرب اليوم لم يعاقدوا الأجانب على استعبادهم وإذلالهم كما يتوهمه الواهمون ولكن لغرض أسمى وأنبل وهو فك أغلال الاستعباد عن الرقاب. ولا يضير ذلك اختلاف الغايات بين المتعاقدين إن كانت مستورة على طرف منهم متى توحدت الأهداف وكان مرماها شريفاً. وإنما الملام الموجه للأفارقة القدماء والعرب المعاصرين على ما بينهما من فواصل القرون في تحالفهما مع الرومان وحلفائهم من بعدهم كان على إفراطهم في تحسين الظن بمعاقديهم وتناسيهم عبر التاريخ حتى وقعوا في مشاكل صعبة كان أولى بهم أن يتجنبوها لو استعملوا نصيباً من الحذر والتبصر. وإلا كيف فاتهم ما كان يبيته لهم أسلافهم القدماء والمحدثون من الوقيعة وما نصبوه لهم من فخاخ. ولكن ماذا نقول في الكلالة وأصل دائها الجهل ورفعه يتكلف غالياً وربما أتى على محصول القرون لقاء الوقوف على نتف من التجارب بعد مرور الكارثة وهي تفيد الوقاية لا الدفاع.

ولو تفرّس الأفارقة في سرائر الرومان حين عاقدوهم على اكتساح

(1) السلب هو ما يُسلب (ابن منظور/ 2).

قرطاجنة لوجدوا في الغضون[1] أطماعاً فاغرة لابتلاع بلادهم فقد كان تقرير قاطون[2] ذلك السياسي الروماني الفذ الذي أوفدته روما إلى قرطاجنة لسماع شكاتها ضد المحميين حتى إذا وصل إلى البلاد سال لعابه على المفتحات وهو بدوره جعل يحرك النّهم الروماني بمغرياته لالتهام إفريقيا وإشباع الغرثى[3] من ألوانها الدسمة، ولكن يظهر أن السلف شبيه بالخلف في سلامة النية والاغترار بتصديق كل ما يلقى إليهما ولو كان مما لا تهضمه العقول. وهكذا اغتر سلفنا بوعود الرومان، وتغافلوا عن رقابتهم، ولم يفيقوا حتى أبصروا سيوف المغيرين تلمع فوق الرقاب وأيديهم قابضة على أعنّة الأحكام، ومقدراتهم إلى زوال.

استيلاء الرومان على شمال إفريقيا وتنظيم إدارته

بعد أن أدال[4] الرومان المملكة الإفريقية من القرطاجنيين قسموها إلى شطرين كبيرين: الشطر الأول يتألف من القسم الشمالي للمملكة التونسية الحالية وسموه (إفريقيا).

الشطر الثاني وهو يتألف من جنوب المملكة ووسطها وولاية قسنطينية سموه (نوميديا)[5].

---

(1) كان الأمر في غضون ذلك أي في أثنائه.

(2) راجع التعليق (2) ص: 8.

(3) من غرِث يغرثُ غرثاً أي جاع وهو غرثٌ وغرثان وهي غرثى وغرثانة والجمع غرثَى وغراثي وغِراث (ابن منظور/ 2).

(4) انتصروا وكانت لهم الدولة ومنه (اللهم أدلني على فلان) أي أنصرني عليه. (ابن منظور/ 1).

(5) جعلها الرومان منطقة عسكرية. قسّمها (ديوقليتيانوس) إلى نوميديا الشمالية =

فالشطر الأول نيط بعهدة الحكم الروماني مباشرة، والثاني قطعته لأمراء من الأفارقة جعلتهم تحت الحماية، ويظهر من هذا الوضع الهزلي أن الرومان كانوا يريدون أن يوهموا الأفارقة أنه هو استقلالهم المنشود الذي تعهدوا به لهم وما هو غير نقلهم من عبودية محلية إلى عبودية أجنبية. والفرق بينهم أن العبودية المحلية كانت وديعة عارية عن الاصطباغ بألوان الدجل السياسي تستمد نفوذها من البلاد وليس لها سند في الخارج. أما العبودية الرومانية فهي أظرف شكلاً وأخطر وضعاً تسلب الوطني وتمد الأجنبي، وتستمد نفوذها من الخارج.

يقظة الأفارقة
وجنوحُهم إلى السياسة الانفصالية

لم تنطل هذه اللعبة السيماوية[1] على الأفارقة رغم تقليد أولئك الأمراء الوازعين على المقاطعات بل كانوا منتبهين إليها أشد الانتباه وقد استفادوا كثيراً من اختلاطهم بالرومان فوقفوا على بواطن أخلاقهم وسرائرهم ما جعلهم يتصورون معاني الرياء والختل والدجل وقلب الحقائق في صورها الجلية، وكلما ازدادوا تعرّفاً بهم تضاعف حذرهم منهم، ومن كان على اتصال بهم يقوى نفوره منهم، ومن هؤلاء أمراء المحميّات فقد تجلت لهم سوء نية روما عند قسمة البلاد إلى مناطق نفوذ وكان مرادهم منها تركيز الحماية الرومانية في القسم المعمور المتصل بالبحر، وحصر النزعة الاستقلالية وسط بلاد الفاقة ومناطق الجفاف لتقبر هناك في أحضان السراب.

= ونوميديا الجنوبية احتلها الفندال (429 ق.م).

(1) نسبة إلى السيمياء، وهي أمور تخييلية لا حقيقة لها كتحويل الرصاص إلى ذهب، وما أشبه ذلك.

ومهما نوّهنا بوطنية هؤلاء الأمراء فإننا لا نستطيع أن نفي بوصف تلك العظمة الخالدة التي تجلت لنا في حياة القَيْلُ[1] الأمير يورغوطة[2] الذي تقلد زعامة البلاد وانبرى لمناهضة أطماع الرومانيين وكبح جماحهم على إفريقيا.

فقد شرع في توحيد الأمة. وألغى النظام الإقطاعي من قسم نوميديا وطرد الأمراء الذين نصبتهم الحماية وضم ولايتهم إلى إمارته وأقام على هذه الأنقاض المبعثرة مملكة شعبية واسعة الأرجاء ممتدة من بجاية إلى قابس. ولما تمّ له هذا التوفيق أعلن الحرب على الرومانيين لافتكاك الشطر الثاني من أيديهم فأصلاهم ناراً حامية وكاد يكون النصر حليفه لولا ما أصابه من تخاذل القوم وتحاسدهم فيما بينهم فإن قرابة الأمير تألبت عليه وأسلمته قبضاً باليد إلى الجمهورية الرومانية فاعتقلته ظلماً وقضى بقية حياته رهن المحبس إلى أن قضى نحبه جوعاً سنة 106 مبكياً على وطنيته النادرة وإخلاصه الفريد.

وبعد هلك الأمير يورغوطة، رجل المثل الأعلى للإفريقيين، أتيحت للرومانيين الفرصة لضم أجزاء المملكة التونسية بوضعها الحالي إلى مستعمرتهم إفريقيا وتركوا القسم الثاني مُصغَراً[3]

---

(1) جمعه أقيال وقُيول: العظماء.

(2) Jurgurtha (160 ق.م ـ 104 ق.م) ملك نوميديا (118) قبل أن يهلك مسيبْسَا Micipsa بن ماسينيسا قسّم إمارتَهُ بين ولديْه هيمسال Hiemsal وادربعل Adherbal وبين ابن أخيه يوغرطة فعمل هذا الأخير حتى قتل ابني عمّه وضمّ إمارتيهما إلى إمارته ثم إنه طمع بأن يستولي على الشمال الإفريقي كلّه ليجعل منه امبراطورية بربرية فأدركت روما حينذاك خطل سياستها وشَنّتْ عليه حرباً دامت سجالاً بضع سنوات ثم انتصرت عليه. فلمّا اندحَر فرّ ملتجئاً إلى أمير موريطانية فغدر به هذا الأخير وأسلمه إلى الرومان فقتلوه سنة 105 ق.م. (تونس العربية: إحسان حقّي. ص: 22).

(3) أصغره أي جعله صاغراً راضياً بالذلّ والضيم (ابن منظور/ 2).

هضوماً[1] بعد أن فصلوا عنه الأجزاء المضمومة وعينوا له أمراء من الأهالي خانعين همتهم هصر[2] إبـاء مواطنيهم وتـذويب شَمَمهم واستمروا على ذلك مدة 85 سنة. أي إلى أن هوى الحكم الجمهوري في روما وقام مقامه الحكم الإمبراطوري سنة 31 قبل الميلاد.

وقد استهـل هذا العهد بظهور اختلال تفحَّل أمره إلى أن جلس على العرش الروماني القيصر أوغسطس[3] وكان من جملة تنظيماته في عهده توطيد الاستعمار الروماني في إفريقيا فأسكن بها ثلاثة آلاف من قدماء العساكر الرومانية وأقطعهم الأراضي التي نزع ملكيتها من أيدي الأهالي لتشويق غيرهم الذين كانوا يترددون في القدوم من أروبا. ولما شاعت في روما أخبار الإقطاعات والتنشيطات المالية والإعانات المغرية أخذوا يتوافدون على إفريقيا بكثرة.

● النظام الروماني لإفريقيا

وضع الرومان لإفريقيا بعد استقرارهم قانوناً أساسياً لتنـظيم حقوقهم السياسية جروا فيه على طريقة الاستثمار والامتياز وأناطوا الإدارة العامة بنظر حاكم عام يدعونه (بروقنصل)[4] مقره مدينة قرطاجنة تعينه روما. وخولوا للمدن نـظاماً ذاتيـاً، وأنشأوا لها المجالس المحلية وخصصوا انتخاب أعضائها للرومـانيين وأغنيـاء

---

(1) الأصح مهضوماً أي هضيماً أو مهتضماً بمعنى مظلوماً ومكسوراً (ابن منظور/ 3).

(2) كَسْر شهامتهم وشممهم (رفعتهم). (ابن منظور/2).

(3) إمبراطور روماني (63 ق.م ـ 14م) اتخذ لقب أكنافيانوس. استولى على الحكم بعد معركة أكسيوم Actium (سنة 31 ق.م).

(4) ابتداء من عهد سيلا Sylla (سنة 81) لقّب نائب الحاكم المكلف بإفريقيا بلقب بروقنصل broconsul على غرار بقية الولاة، وهو والٍ يتمتع بسلطة قنصـل. (تاريخ إفريقيا الشمالية: شارل أندري جوليان ص: 149).

الأجانب وتجارهم، وحرموا الأهالي ولم يتركوا لهم من المناصب غير وظائف الشياخات والعمال والارتزاق من خدمة الجندية، وسلكوا معهم ضروباً من العسف والتحيف ما جعلهم يندمون ويأسفون على أيام القرطاجنيين. ولكن بالرغم من اضطهاد الأهالي وسلبهم من جميع الحقوق الوطنية التي يتمتع بها الرومان في غير بلادهم فإنهم نظراً لما امتازوا به من السجايا الحربية وكذلك فقرهم واحتياجهم للقوت كانوا يدخلون في الجندية، وأغلب الجند الروماني كان منهم.

ويوجد منهم على الدوام في جميع المراكز أربعة وعشرون ألف مقاتل تحت مراقبة ستة آلاف عسكري من الرومان وإلى مزايا هذا الجند المحروم من الحقوق يرجع الفضل في جميع الفتوحات التي نالتها روما في أوربا وسواحل البحر الأبيض المتوسط.

التعميرات الرومية في إفريقيا

لا ينكر أحد ما كان للرومانيين في القرنين الأولين من الميلاد إلى جانب اضطهادهم للأهالي وإقصائهم عن الاستفادة من مزايا الحكم الذاتي من عناية فائقة بترقية البلاد وتمدينها عدا ما أحدثه القرطاجنيون، ومن ذلك إصلاح الطرقات والمعابر وحصر المياه للانتفاع بها في ري المزارع فمدوا القنوات وحفروا الآبار العميقة في كل مكان وأنشأوا الصهاريج والجداول لحفظ مياه الأمطار والانتفاع بها في فصل الصيف وبنوا الطرقات العمومية التي خططت البلاد طولاً وعرضاً منها الطريق الممتدة من قرطاجنة إلى تبسة[1]، وأخرى من طرابلس إلى بونة (عناية) مارة بالساحل التونسي وآثار هذه الطرقات لم تزل باقية إلى هذا العهد.

---

(1) هي (تفستا) مدينة بالجزائر جعلها الأمبراطور أوغسطس معسكراً رومانياً (25 ق. م).

وفوق العناية بالمشاريع الاقتصادية من زراعة وريّ ومواصلات فإنهم شيدوا مدناً كثيرة بعد إعادة قرطاجنة أجمل مما كانت عليه أيام شبابها وأنشأوا في أغلب المدن المباني العظيمة والهياكل الضخمة والمعالم الجليلة وكانت منتشرة من الشمال إلى حدود الصحراء.

وحولوا البلاد إلى جنة فيحاء بكثرة ما غرسوا فيها من الأشجار والبساتين المثمرة ومنها غابات الزيتون.

وأنشأوا في كل مدينة مسارح للتمثيل وملاعب للثيران، وهياكل لعبادة الآلهة آية في الجمال والتنسيق، وأكبر أثر خالد لهم في العالم مسرح (توسيدروس)[1] الجم الذي أمر ببنائه القيصر هدرين[2] في سنة 125 تذكاراً لزيارته إلى إفريقيا طوله 150 ميترة وعرضه 125 ميترة وارتفاعه 36 ميترة، وهذا البناء لم يزل قائماً إلى اليوم يحج إليه المعجبون بالآثار الرومانية.

ومن أشهر المدن التي أسسها الرومان في إفريقيا بعد تجديد قرطاجنة، أوذنه ـ ودقة ـ وسبيطلة ـ وتوسيدروس. وبلغ عدد سكان قرطاجنة في عهدهم 500 ألف نسمة وأما بقية المدن الأخرى فيختلف عددهم فيها بين الخمسين ألف نسمة والسبعين ألف نسمة.

ولم يطل أمد الرومانيين في إفريقيا حتى قلب لهم الأهالي ظهر المجن[3] وأخذوا يناصبونهم العِداء ويقتفون أثرهم في كل شيء وهم لا يفترون عن التفكير في إعادة الملك إليهم حتى استفادوا منهم فوائد جمة من النواحي الأدبية والاجتماعية والاقتصادية رغم الموانع التي

---

(1) تحصّنت فيه الكاهنة دون العرب في آخر القرن 7 (Thysdrus).

(2) هدرين أو أدريانوس Hadrin ou Adrien: أمبراطور روماني (117 - 138) ابن ترايانوس بالتبني وخلفه في الملك. جثته بمتحف Saint-ange بروما.

(3) تغير موقفهم منهم من الصداقة إلى العداوة.

أقاموها في سبيلهم ولكن نشاط الأهالي الخارق كسر كل قيد وضعوه في أيديهم وأرجلهم.

فقد سيروا أبناءهم إلى معاهد روما يتلقون المعارف والفنون وبلغوا فيها رتباً عالية بزّوا فيها أبناء الرومانيين ومن هؤلاء النوابغ المعدودين:

يوبا الثاني[1]

تعمق هذا العبقري في فنون الأدب الروماني، وبرع في الموسيقي، وألف كتباً جليلة في فنون مختلفة، وبناءً على شهرته عينه القيصر أميراً على نوميديا.

سبتيم سيفاروس اللمطي[2]

هو من نوابغ التونسيين ومن مواليد لمطة بالساحل رفعته همته إلى الجلوس على عرش روما سنة 193 بعد الميلاد رفعه إليه الجند، ومات سنة 211 في الحرب مع إنكلتيرة ودفن هناك وخلفه ابنه وكان معدوداً من حذاق العلماء في كثير من الفنون وله عناية خاصة برفع شأن قومه وتقدمهم.

---

(1) ابن يوبا الأوّل (Juba). أخذه الرومان وعلموه في روما وزوجوهُ من ابنة كليوبترة ملكة مصر، فشبّ على حبّ الرومان الذين نصبوه أميراً على ما كان بين يدي أبيه. ولما مات أمير موريطانية من غير أن يعقب نقل الرومان يوبا الثاني إلى موريطانية وجعلوه أميراً عليها. مات سنة 18 م وقيل سنة 23 - 24 م فخلفه ابنه (بطليموس) بتولة Ptolemée قتله الرومان سنة 42 م وبموته انتهى العهد النوميدي (تونس العربية: إحسان حقي ـ ص: 23).

(2) سبتيموس ساويروس Septime séwere، امبراطور روماني. على أيامه انقسمت سورية إلى سورية العليا والمجوفة والضيقة التي شملت فينيقيا وفينيقيا اللبنانية (193 - 211)، هو أب قراقالا Caracalla.

قوة الغريزة الوطنية في الأفارقة

كان الأهالي مهما امتزجوا بالرومانيين أو بلغُوا ذُرى أعلى المراتب لا ينسون بؤس قومهم ولا يذهلون عن التفكير في استقلال بلادهم والنظر إلى الرومانيين بعين المقت والزراية[1] ويرونهم كمغتصبين وقد مكثوا محافظين على عنصريتهم ومميزاتهم لم يضيعوا منها شيئاً بالرغم من مئات السنين التي مرت على استعبادهم وبالأخص أولئك الذين انحازوا إلى الجبال المنيعة في نوميديا الذين لم ينفذ إلى قلوبهم تأثير الغالبين ولما طرق الوهن إلى الرومانيين شرعوا في الثوار[2] عليهم ولم يترددوا في ذلك.

العامل الديني عند الرومان

كان الرومان مثل غيرهم من الأمم الوطنية القديمة يعبدون أشكالاً من الآلهة يمثلونها في أصنام على صور الآدميين، ويشيدون لها المباني العظيمة وكانوا كلما احتلوا مملكة ضموا آلهتها إلى آلهتهم وهذا هو المعنى المفهوم عند الوثنيين من القول بالتوحيد بين الأديان ولذلك لم يكن للاختلاف الديني أدنى أثر في سياستهم وإنما كان التأثير قاصراً على حرمان الأهالي من التساوي في الحقوق واستمر ملكهم قائماً وطيداً إلى أن أطلت عليهم المسيحية الآرية التي قام يدعو إليها بطرس الحواري[3].

---

(1) أشد البغض والسخط.

(2) في الأصل: الثيار (راجع ص: 4).

(3) سمعان بن يونا (نحو 10 ق. م 67 ب. م) أوّل رئيس على الكنيسة. دعاه المسيح وسمّاه كيفا أو الصخرة وأقامه رئيساً للرسل. استشهد وقيل صُلب في عهد نيرون.

هدم المسيحية
للكيان الروماني بواسطة الأفارقة

ظهرت المسيحية في روما في أول عهد القياصرة وانتشرت بسرعة بين الطبقات الوضيعة، وكانت الغاية التي يقوم لها دعاتها تخليص الأمة من جفاف المادية والانحطاط الخلقي المتفشّيين[1] في الرومانيين وذلك بالدعوة إلى الفضيلة والعدالة، فتوجس[2] منها ساسة الرومانيين وخافوا عاقبتها، واعتبروها خطراً يتهدد الدولة فقاوموا معتنقيها واضطهدوهم بصرامة وشدة فكانوا يصلبونهم ويلقونهم إلى الضواري[3] فلم يزد ذلك المتدينين إلا قوة ورسوخاً في الاعتقاد.

فحدثت بسبب ذلك فتن داخلية وقلاقل متتابعة في المملكة والمستعمرات كانت لها رنة عظيمة في إفريقيا. فإن أهاليها بعدما اعتنقوا المسيحية بدعوة من المبشرين ارتدوا عنها وعادوا إلى دينهم القديم ثم عادوا ثانية وتكرر منهم ذلك.

ويلوح من التحقيقات التاريخية أن الأفارقة لم يتنصروا حباً في النصرانية ولكنهم اتخذوها وسيلة يتخلصون بها من اضطهاد الرومان بدليل أنهم كانوا ينتحلون المذاهب الشاذة ويتخذون ما فيها من خلافات للمذاهب الشائعة وسيلة لإحداث الارتباك والتجاهر بطلب الاستقلال وأشد من يلجأ إلى هذه الطريقة القبائل الآهلة بجبال نوميدية. وقد عجزت الحكومة الرومانية عن صد هذا التيار حتى اضطرت سنة 330 على عهد القيصر قسطنطين[4] إلى الاعتراف

---

(1) في الأصل: المتفشيان.

(2) حذروا ووقع في نفوسهم الخوف.

(3) أي السّباع (مفردها: الضّاري).

(4) هو قسطنطين الأوّل (الكبير) (274 - 337) وهو امبراطور روماني نقل عاصمة =

رسمياً باعتبار المسيحية ديناً تجوز ممارسته في البلاد وقد عد هذا الاعتراف في ذلك العهد بمثابة فوز للدمقراطية على الارستقراطية الرومانية.

ليس يهمنا التعرض لتاريخ المسيحية وإنما أوردناه عرضاً في كلامنا على الأفارقة الذين اتخذوها كآلة للتحرير لذلك لم يثبتوا عليها ثم انتقل بهم الخلاف من الدين إلى السياسة وبسبب ذلك اختلت في النهاية السلطة الرومانية في إفريقيا اختلالاً واضحاً وكان حكامها يتنمرون عليها حتى جفاها الكونت بونيفاس[1] الحاكم العام لإفريقيا والتجأ إلى حماية الڤندال وكانوا قد هبطوا من ألمانيا وتغلبوا على بلاد الإسبان فأتى لإنجاده إلى إفريقيا الملك جنسريق سنة 439 وضبط المملكة لنفسه وفرّ منها الكونت وانقرض بفراره تسلط الرومان على إفريقيا وتبينّ للأهالي الخيط الأبيض من الخيط الأسود من فجر نهضتهم في صبيحة اليوم التالي.

= الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة فسمّيتْ القسطنطنية.

(1) Boniface كونت إفريقيا ثار على روما سنة 427 ق. م وأعلن استقلال الولايات الرومانية الإفريقية تحت تاجه ولكن هذا الاستقلال لم يعش كثيراً بل زال سريعاً وجرّ وراءه زوال الامبراطورية الرومانية كلها على أيدي الڤندال. (تونس العربية: إحسان حقّي. ص: 28).

الفصل الثالث

الدور الفندالي

الفندال[1] قوم محاربون من صميم الجرمن زحفوا على البلاد الإسبانية في القرن الرابع بعد الميلاد فامتلكوها وأطلقوا عليها اسم أندلوسية، وما كادوا يستقرون بها حتى انتشر صيتهم في الآفاق بالعدل والإنصاف، وبلغ صدى هذه الشهرة إلى شمالي إفريقيا والثورة ـ الفكرية فيها بالغة أقصى حدودها، والطالع الروماني كان في نحس مستمر، تعسف فيهم الفوضى، ومصائر أمورهم إلى زوال. فبدا للكونت بونيفاس والي قرطاجنة من قبل الرومان أن يتفرد عن قومه بالحكم، وينسلخ عن تابعيتهم، ويعلن نفسه ملكاً على إفريقيا. غير أنه عوض أن يستند في هذه الرغبة على رضاء

---

(1) الفندال les Vandales يرجعون في أصلهم إلى أوربا الشرقية دفعهم شظف العيش إلى هجر بلادهم مقتحمين بلاد الغول ثم إسبانية حيث استوطنوا، ولذلك يسميهم أهل أوروبا بالبرابرة ويعنون (المتوحشين). دام العهد الفندالي (من 427 إلى 524 م). (تونس العربية: إحسان حقّي، (ص: 30).

الأفارقة، ويمد لهم يد الصديق المواسي، ويتفق معهم على تحقيق أمانيهم، أسر الأمر في نفسه حذر إعراضهم عنه لرومانيته البغيضة وربما ينصبون عليهم ملكاً منهم. والتجأ إلى الڤنـدال يكاشفهم بدخيلة أمره ويسألهم أن ينجدوه بجنود من قبلهم لفرض طاعته على مخالفيه فأجابوه إلى سؤلـه لكن سعيه في النهاية انقلب وبالاً عليه. وتلك عاقبة الطفيليين الذين يتمردون على حقوق الأمم، ويحكمونها بالختل والحيل. ومن خاف من شيء سلط عليه.

لم يتخلف الملك جونسريق[1] عاهل الڤندال عن الوفاء بأمنية الكونت بل سار بجنوده البواسل من إسبانيا إلى سبته غازياً إفريقيا فكان في طريقه يستنزل عصم[2] المدن مدينة إثر مدينة ويجلي عنها الحكام الرومانيين واحداً بعد واحد إلى أن زحف على مدينة قرطاجنة ملقى الأطماع بين الدول سنة 439 فتخلى له عنها الكونت بونيفاس ولحق بمأمنه طائراً مع البازي عليه سواد يعض سبابة الندم على ما حل به من سوء تقديره، ولات حين مندم[3].

وهكذا ختم الدور الروماني الكريه بهذه الخيانة الفظيعة كما افتتح بخيانة الجمهورية الرومانية للأهالي في مواعدتها إياهم على الاستقلال بعد أن يديلوا الأمر من الشعب القرطاجني والجزاء الحق يكون من جنس العمل، وكما يدين الفتى يدان.

حكم الڤندال لشمال إفريقيا

لم يشهد الأفارقة في أي دور من الدورين السابقين اللذين تسلط

(1) genseric ملك إسبانيا الڤندالي مات سنة 477 م.

(2) العصْم والعصُم بقية كل شيء. يستنزل عصم المدن أي يخضع بقيّتها (ابن منظور/ 2).

(3) ليس بحين ندم (ابن منظور / 3).

عليهم فيهما الدخلاء سياسة مثلى أقر لعيونهم، وأدنى لإنصافهم، من السياسة القندالية وبالأخص في الثلثين الأولين من عهد هذه الدولة فقد أنستهم (ما لا ينسى) جفاء القرطاجنيين، وطغيان الرومان اللّذين أذاقاهم طعم الحنظل والعلقم. ولو أن ما نزل بهم ألمّ بغيرهم لكان في عديد الأمم المنقرضة، ولكن يظهر أن من خصائص هذا الجنس الإفريقي المطاط القدرة الكافية على تحمل المصاعب، والاصطبار على معاناة المكاره بحيث تلين قناته لكل غامز ولا تنكسر، ولا ينال من إبائه ظالم إلا ما تصل إليه يده الأثيمة من عروضه لا من إيمانه، ومن نقوده لا من قلوبه. وعلى هذا القياس يكون الداء واقعاً على المادة لا على الأرواح ناهيك بهم من قوم يداهمهم الضيم فلا يرهبونه بلْ يخشون منه، ولا يموتون به ويصابون في الجاه ومعقد السيادة، فلا يفرقون ولا يخسرون أنفسهم، بل يحتفظون بها في جوهرها الكريم سليمة نقية، بعيدة عن كل مكروه. وبالرغم مما توالى عليهم ظلوا محافظين على هذه السجايا الغالية وهي قوام صراعهم لأعدائهم المغيرين.

فكم، وكم؟ شاهدت القرون أجيالهم في مصارع البغي من خلال الأحقاب وهي ترقب بعين يقظة الفرص السانحة للتوثب على ظالميها واسترداد ما سلبوا منها من كرامة وحقوق. وهكذا استمرت جاهدة صابرة إلى أن قطعت رقاب أربعة عشر قرناً لإنقاذ وطنية كتبوا لها الخلود بأقلام صاغوها من أرواح شهدائهم من عهد نزول الفينيقيين بأرض هذا الساحل العتيد إلى أن فر منه الكونت بونيفاس آخر حكام الرومانيين دون أن يقع لهم جفن على جفن بل إلى الساعة التي طرقهم فيها منقذهم الملك الظافر جنسريق، وأعلن خلاص قرطاجنة من حكم البغاة.

أجل لقد كان صبر الأفارقة خارقاً للعادة جديراً بالإعجاب ودراسة المعذبين من الأقوام المصابة بداء الرخاوة والانحلال فإنها تجد في هذا النوع من الأدب خير لقاح للعزيمة الضعيفة وهو حقيق بأن يكون مضرب الأمثال في أدب الرجولة الكاملة وما ذلك سوى الإيمان الحق المقترن بالأمل الصادق في جريان العدل الإلهي وهو ما تواصت به الأديان المنزلة لا ذلك الصبر الجموح الذي أخرجه لنا الأدب البالي المهلهل وهو يبتدي بالاستسلام وينتهي بالهزيمة.

فقد شاء الله أن يقرن تأميل الأفارقة في مدله الحق[1]، بالنجاح على أيدي القندال، وما كان أحد يحتسبهم حتى كان من الأمر ما كان ولله في خلقه شؤون يبديها ولا يبتديها ومن شؤونه أن يقيض لعباده الصامدين في وجه البلاء من يخلصهم بتوفيق من عنده له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين.

كان احتلال القندال لإفريقيا الشمالية فاتحة عهد جديد للمغامرة في سبيل الاحياء والتجديد من قبل الأهالي ولو أنهم ماتت نفوسهم من قبل لما كانوا أسعد مما كانوا عليه في الدورين السابقين، ومن شأن هذا العهد أن يتقدم عهد الاستقلال، لذلك تيامن[2] بطلعته الأفارقة واستقبلوه بالبشر والإيناس. ولم لا يستقبلونه بذلك؟ وهم لم يشهدوا فيه أثراً للظلم والارتكاب[3] ولم يبلغهم من أحد من قال يجب تخريب قرطاجنة كما فعل الرومان وذنبها الوحيد أنها آوتهم.

ومما زاد في حظوظ القنداليين أنهم ما كادوا يستقرون في البلاد

---

(1) أي الحقّ المفقود.

(2) الأصحّ (تيمّن بطلعته) أي تبرّكوا بها (ابن منظور/ 3).

(3) ارتكب فلان فلاناً أي علا عليه وركبه بالأوامر ونحو ذلك (ابن منظور/ 2).

حتى وادعوا الأهالي[1] وأمنوهم على حقوقهم وساسوهم بسياسة رفيقة قائمة على التفاهم والانعطاف رغم ما كان يبدو عليهم من خشونة المظهر وجفاف الطباع. فقد ألغوا جميع المظالم التي تفنن في إحداثها الرومان، وأقاموا ميزان العدالة بالقسط، وحجّروا التبشير بالنصرانية صيانة لوحدة البلاد من التفرق والتمزيق.

وفي عهد هنريق بن جنسريق[2] أي في سنة 483 صدر أمر ملكي بإغلاق جميع الـ 54 كنيسة وديراً، ومصادرة أملاكها وأموالها، والقبض على قساوستها وقد بلغت عدتهم 5000 قسّيس، وقع تشريدهم في حذود الصحراء. ولا معنى لحشد هذا الجيش من العاطلين، وإقامته في بلاد لا تدين بالنصرانية إلا أن يكونوا دعاة للرومانية المتقمصة في الكنيسة، وهي مسيحية اسماً، رومانية فعلاً، وما كان هذا خافياً على أحد من الواقفين على جلية الأمور. لذلك رأت الحكومة أن من مصلحة البلاد إقصاءَهُم عنها ومع المتنصّرين من ممارسة الطقوس الكنسيّة[3].

ولا شك أن سلوك هذه الطريقة في إصلاح المجتمع الإفريقي كانت الغاية منه صيانة روح القوم من الذبذبة، وتركيز الاستقلال على أساس وحدة الشعور بالملية الوطنية وهي تتنافى مع الملية الرومانية تنافياً كلياً، والمسيحية الكاثوليكية تصير معتنقيها رومانيين لا وطنيين.

ولا ريب أن ابتكار هذا الإصلاح النافع من افندالبين يستحق الإعجاب والتقدير لانتباههم إليه في ذلك العهد. ولا يلتفت إلى

---

(1) صالحوهم وسالموهم على ترك الحرب والأذى (ابن منظور/ 3).

(2) Huneric. مات سنة 523 م.

(3) في الأصل: الكنائسية.

هذيان الطاعنين. فإن بعضهم من صنائع الكنيسة القائمين بدعايتها والباقين من المتعففين لا شك أنهم متأثرون إلى حد بعيد بالرومانية. وبناءً على ذلك فهما متحدان في الغاية. فلا غرابة إذن أن يكون حنقهم على القندال من هذا الجانب شديداً.

أما المتجردون عن الأهواء الدينية والتعصبات الجنسية فهم ينظرون إلى المسألة من وجهة النظر الإفريقية المحضة. لذلك نجدهم يُنوّهون بها ويعدّونها من أتم الإصلاحات التي وفّقت إليها البلاد.

ولو كان المؤرخون الأوروبيون، ومن لف لفهم من مقلدتهم، متجردين عن تحسسهم بالعواطف الدينية والجنسية لأكبروا هذا الإصلاح القندالي ولاعتبروه تجديداً في الأدب السياسي لتحرير ضمائر القوم من أغراض الدعايات المضرة بأمن الناس.

وطبيعي أن يدرك الأفارقة بعد تنفيذ هذا الإصلاح أثر الاستقرار والاطمئنان وكفِّ أولئك الصيادين عن افتراس ضحاياهم من أرواح الناس، ومنع الزلزال عن كيانهم الاجتماعي، وليس أحد أولى منهم بإبداء الرأي في هذا الموضوع الذي يتعلق بهم دون من سواهم، ولا خلاف في إجماعهم عليه وحينئذٍ فلِمَ بقيت هذه الضجة لاحقة باسم القندال؟

من القضايا المسلمة أن الاحتلال هو عاصفة اجتماعية تهب ثم تسكن أشبه ما تكون بالأحداث تظهر ثم تزول، وتبقى آثارها أحاديث بين الناس إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولو كتب لواحد منها الخلود لكان ذلك للاحتلال القندالي المحبوب لإفريقيا الشمالية فقد جرى عليه ما يجري على الأحداث من نواميس التغيير والتبديل بعد

أن دام 48 سنة. فقد حكى لنا عنه التاريخ أنه بعد أن تأثل[1] ملكهم وهلك الملك هنريق أخلد القنداليون إلى شهواتهم، وأهملوا العناية بالجيش ودب إليهم دبيب الانحلال فانتبه الأفارقة للكارثة وأعلنوا استقلالهم في الجنوب بعد أن مددوه إلى حدوده الأصلية التي خططت في العهد الأول للرومان وتركوا للقنداليين قسم الشمال الصغير مفعماً بالاضطرابات.

ولما تقلد الملك هلدريق[2] سنة 523 ولاية المملكة محمقاً ضعيف الرأي فاقد العزيمة ميالاً إلى الانهماك، كثرت على عهده الاضطرابات الدالة على قلة جدارته بالملك فاجتمع القندال على خلعه وأولوا مكانه قريبه الأمير جلمار، فخرج هلدريق مغاضباً إلى القسطنطينية مستنجداً بقيصر بزنطية يوستنيان لإعادته إلى الملك[3]، وكانت لهذا القيصر أطماع في امتلاك إفريقيا، وانتزاعها من حكم القندال فاغتنم الفرصة وأشهر الحرب على الملك جلمار. وكانت هذه الحرب خاتمة حياة الدولة القندالية التي سقطت فيها شهيدة عدوان الأطماع البزنطية سنة 534 وهكذا تدور الدوائر على الأمم والدنيا دول.

---

(1) أي عظم وتمكّن. قال رؤبة: ربابة ربّت وملكاً آثلاً. أي ذا أثلة وعظمة (ابن منظور/ 1).

(2) ابن هنريك بن جنسريق. خلعه الجيش ونُصّب جيلمار حفيد جنسريق سنة 535 م (وقيل سنة 525 م) مع ابنتي أخيه.

(3) كان هلدريك قد تربّى في قصر بيزنطة، وتأدّب بأدب اليونان ممّا أقام روابط ودّ بينه وبين جوستنيان الذي أنجده بجيش سيّره بحراً إلى الشمال الإفريقي، فألقى القبض على جيلمار ولكن لم تقع إعادة هلدريك إلى العرش بل استولى البيزنطيون على البلاد ونصبوا على قرطاجة حاكماً مدنياً يدير شؤون هذه المستعمرة يساعده قائد عسكري، (تونس العربية: إحسان حقّي. ص: 32 - 34).

الفصْل الرابع

الـدَّور البـيزَنطي

انقسام الإمبراطورية الرومانية

من المفيد لإكمال البحث في تاريخ شمالي إفريقيا أن نلم بعرض الأسباب الماسة التي شطرت الإمبراطورية الرومانية العظيمة إلى شطرين ـ إمبراطورية رومانية غربية، وإمبراطورية بزنطية شرقية لنستعرض على ضوئها تلك العلاقة الآثمة التي وصلت إفريقيتنا المحبوبة بعسف البزنطيين عقب التجاء ذلك الإمبراطور المحمق هلدريق خليع الڤنداليين لابن خالته إمبراطور بزنطية ليتنسق بذلك صوغ الحوادث في أذهان القراء.

ترقب زوالاً إذا قيل تم

اتسعت رقعة الممالك الرومانية اتساعاً عظيماً أطغى الرومانيين. فقد ترامت حدودها في القرن الثالث بعد الميلاد من نهر الفرات شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن الصحراء الكبيرة جنوباً إلى الرين

والدانوب شمالاً. وقد رأى الإمبراطور قلديانوس أن الحكومة المركزية في روما لا تستطيع أن تدير شؤون الدولة وتدافع عن حدودها السحيقة فقسم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام وعين لكل قسم منها حاكماً وجيشاً وموظفين ورجال بلاط. وحسب أن هذا التدبير يصون الإمبراطورية ويدفع عنها أعراض الانحلال. لكنه ذهل عما يحدث بين أقطاب دولته من التباغض والتحاسد على ولاية هذه الأقسام لاختلاف منزلتها في العسر واليسر وتكالبهم على المال لإشباع غرائزهم المجبولة على الشهوات وحب الترف وتوفية النفس حظوظها إلى أقصى الحدود ولا يعنيهم ما وراء ذلك، وسواءٌ لديهم ارتفعت الإمبراطورية أم انحطت عزّت أم ذلّت.

ولما جلس قسطنطين[1] على عرش روما هاله تفشي هذا الانحطاط في جسم الدولة وأدرك ببصيرته أن مصدر هذا الدّاء العياء[2] مدينة روما الإباحية المستهترة التي أطغاها المال والجاه وأن ابتعاد الإمبراطورية عنها قد ينجيها من الهلاك المحقق ويحفظها من السقوط المتوقع. فتخلى عنها في سنة 330 وانتقل بجيشه وحاشيته إلى ساحل البوسفور واختار لإقامته قرية بزنطة الإغريقية وسماها القسطنطينية ومن يومئذ صارت عاصمة الإمبراطورية الرومانية عوض روما[3] غير أنه لم يغير من تقاليد أسلافه شيئاً سوى اعترافه بالديانة المسيحية وإباحة اعتناقها للشعب أسوة بغيرها من الأديان والزيادة في تقسيم الولايات فقد جعلها ستاً بعد أن كانت أربعاً.

---

(1) قسطنطين الكبير (274 - 337).

(2) الداء العيّ والعيي والعياء الذي لا يبرأ منه (ابن منظور/ 2).

(3) حتى الاحتلال العثماني (1453).

ولما آل عرش الروم البزنطيين إلى الإمبراطور دوسيس[1] لم يعتبر بما جره هذا التقسيم المشؤوم على الإمبراطورية من ويلات بل زادها ضغثاً على إبّالة[2]. فإنه قبل وفاته قسم المملكة سنة 395 بين ولديه - أركاديوس، وهوتوريوس - فجعل أولهما على الدولة الشرقية ومقرها القسطنطينية وثانيهما على الدولة الغربية ومقرها روما رغم ما كان فاشياً فيها من أعراض الهرم وإخلاد أهلها إلى الكسل والبطر[3]. والاعتماد في قضاء حاجاتهم على الأرقاء العبيد وكذلك أشغالهم الحياتية من فلاحية وصناعية وما إلى ذلك حتى الحروب فإنهم يستنكفون من مباشرتها بأنفسهم ويكلون أمرها إلى المرتزقة من الجنود وأكثريتهم من الشعوب. التي تسلطوا عليها وغالبهم من الأفارقة الناقمين الذين يجدون في السعي للانفصال عنهم وتخليص البلاد من شرهم، وفعلاً فقد كانوا معولاً مقوضاً لبناء هذه الدولة. وبسبب ذلك أصبحت من الضعف والوهن بحيث لم تقو على رد هجمات المغيرين الطامعين فيها فسقطت سقوطاً فظيعاً تحت أقدام الفنداليين كما قدمنا ولم يطل العهد أيضاً بهؤلاء في إسبانيا حتى أجلاهم القوط الغربيون سنة 429 فأقاموا ملكهم في إفريقيا برضاء الأفارقة أنفسهم خصوصاً بعد هلك هنريق لأنهم صاروا مواطنين هم لا يستمدون نفوذهم من الخارج بل منهم. ولم يطل بهم العهد حتى طرأت عليهم علائم الانحلال ولكن الأفارقة رأوا من مصلحة وطنهم أن يستبقوهم ولا يجهزوا عليها.

وبالرغم من اضمحلال الإمبراطورية الغربية فقد بقي شبح

---

(1) هو ثيودوسيوس الأول. إمبراطور روماني (379 - 395).

(2) ضغث على إيبالة (أو إبّالة) مثل عربي يقال للتعبير على تساقط البلايا: أي بليّة على أخرى.

(3) الطغيان في النعمة والاستخفاف بها وعدم شكرها (ابن منظور/ 1).

الإمبراطورية الشرقية قائماً وظل أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم ملوكاً على الغرب أيضاً ولكن هذه الإمبراطورية لم تباعد حتى ألمت بها في أوائل القرن الخامس أعراض الوهن بسبب ضعف الأباطرة الذين تعاقبوا عليها فقد استحكمت فيها الفوضى والانقسامات الداخلية، وفترت جيوشها في الحروب مع فارس في الشرق ومع الصقالبة[1] في الغرب.

انتعاش الإمبراطورية البزنطية بعد ذبولها

لم تدم تلك الأعراض المنهكة التي ظهرت على الإمبراطورية البزنطية طويلاً حتى نقهت[2] منها بعد هلك أولئك الأباطرة الضعفاء فقد خلفهم الإمبراطور جستنيان[3] وكان حازماً قديراً فلم يكد يجلس على العرش حتى تقبض على ناصية الحال وأزال الانقسامات الداخلية وجعل نصب عينيه إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية واسترداد ما فقدته من ممالك وتنحية الدول التي تغلبت عليها، وكان من أجلّ أمانيه إرجاع شمالي إفريقيا وافتكاكه من الفندال.

انكسار الفندال واستيلاء بزنطية على شمالي إفريقيا

أبت الأقدار وهي مصدر العجائب والغرائب إلا أن تحقق أحلام

(1) هم الشعوب السلافية Slaves بين جبال أورال والبحر الادرياتيكي في أوروبا الشرقية والوسطى.

(2) أي صحّت وفيها ضعف.

(3) يوستنيانوس: خلف عمّه يوسطينوس (532) كان يحلم بإرجاع الإمبراطورية الرومانية إلى سالف عزّها. حارب الفندال والفرس واستعاد إيطاليا والأقاليم الإفريقية.

الإمبرطور جستنيان فقد وافاه إلى القسطنطينية ابن خالته الملك هلدريق بعد خلعه يستنجد به لمحاربة قريبه الذي خلفه على عرش إفريقيا الملك جلمار فجهز لحربه سنة 534 جيشاً مؤلفاً من 20000 مقاتل عشرة آلاف من المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، وخمسة آلاف من البحارة، وأعد لهم 500 سفينة لحملهم ومعهم أسطول حربي به 92 باخرة وعين لقيادة هذه الحملة القائد بلزاريوس[1] ثم توجهت من فورها إلى سواحل إفريقيا. فنزلت بقبودية وقصدت حترموت وخف الأفارقة لاستقبالها وتقدموا إلى بلزريوس وعرضوا عليه مساعدتهم للمشاركة في طرد القندالين فسرّ بمقدمهم واتفق معهم على الزحف على قرطاجنة، ويوم التقى الجمعان كانت دائرة السوء على القندالين، وساروا في أثرهم إلى أريانة وكسروهم عليها أشنع كسرة، فلاذ منهم الملك جلمار بالفرار تتبعه الفلول إلى أن لحقوا به بدخلة جندوبة.

واستولى البزنطيون على قرطاجنة، ومنع بلزريوس جنوده من نهبها رأفة بمن يأهلها من الرومانيين.

ولما اتصلت أخبار هذه الكسرة بترازون أخ الملك جلمار وكان على صقلية أقبل في عساكره لنجدة أخيه فالتقيا ببعضهما قرب مرناق وهناك حصلت موقعة شديدة كان النصر فيها للبزنطيين على القندالين وقتل في أثناء هذه المعركة الحاسمة ترازون وانقطعت بمقتله آمال أخيه.

ويروي لنا المؤرخون عن هذه الواقعة العظيمة أن البزنطيين

(1) Belisare نحو (494 - 565). أسند الإمبراطور يوستنيانوس قيادة الجيش إليه وظلّ رغم ما ألحق به الفرس من هزائم يتمتع بسمعة طيّبة.

ارتكبوا فيها وقائع وحشية فظيعة من الإسفاف في التقتيل، وهتك للحرمات المصونة، ونهب وغير ذلك مما لا يليق بكرامة جيش ظافر.

وبعد هذه الكسرة الأليمة فر الملك جلمار بمن تبعه إلى جبال نوميديا ولما أعياهم التتبع وأنهكهم الجوع استسلموا لعدوهم فقبض بلزاريوس على جلمار وسيره إلى القسطنطينية وظل بها إلى أن مات[1] وختمت بذلك حياة الدولة الڤندالية الإفريقية والملك لله وحده.

تنظيم البزنطيّين لمملكتهم الجديدة

لما تم للروم البزنطيين[2] الاستيلاء على شمالي إفريقيا بادروا إلى تنظيم مملكتهم الجديدة على الصورة التالية:

فقد أسندوا إدارة الولاية لحاكم عام بزنطي وجعلوا مقره قرطاجنة، وخولوا له السلطة العليا في جميع الشؤون الإدارية والمالية والعدلية وإمضاء القرارات وعينوا له مرتباً سنوياً قدره 110000 فرنك وأقاموا لإعانته مجلساً من المتوظفين مؤلفاً من أربعماية عضو يتقلدون جميع الوظائف الإدارية والمالية والجبائية والمحافظة على الأمن والأشغال العمومية والتحصين.

ومن أسوأ المظالم التي تروى عن البزنطيين أن جميع المناصب تباع بالمزاد من قبل الوالي للراغبين والوالي يعين من قبله الولاة لأقسام البلاد الست وهي:

١ ـ شمال تونس (إفريقيا).

---

(1) حمل إلى بيزنطة حيث قُتل مسحوباً وراء خيل تجري به وتجرّه (تونس العربية: إحسان حقي ص: 32).

(2) (534 - 648 م).

٢ ـ بقية المملكة التونسية وطرابلس الغرب.
٣ ـ نوميدية.
٤ ـ موريطانية الشرقية (الجزائر).
٥ ـ موريطانية الغربية وجزائر الباليار.
٦ ـ وجزر سردينية وكرسكا.

ويلقبون عمال شمال تونس وجنوبها وطرابلس بلقب (قنصل) وعمال نوميدية والموريطانيتين لكل منهما لقب (بريبازيد)، ولكل عامل مجلس من الموظفين مؤلف من خمسين موظفاً.

ولكن بالرغم من هذه التراتيب لم يكن للبزنطيين همّ غير تحصيل الضرائب وجمع الرشاء[1] الجهنمية وإرهاق البلاد بالتكاليف والتقتير في الإنفاق عليها والإسراف فيما دون ذلك لهذا السبب انحطت البلاد خلقياً واجتماعياً بصورة لا عهد لها بها من قبل.

أما الجند والإدارة العسكرية فلهما قائد عام يتولى إدارتهما يدعى (كسارك) وله نظر عام في جميع الأمور مثل الوالي العام وأحياناً تقرن الوظيفتان لموظف واحد يحكم البلاد حكماً فردياً طاغياً.

وللبزنطيين جند رسمي يتألف من فرق نظامية رومية. مشاة وفرسان. غير أنه بطيء التعبئة، حسن المقاومة عند اللقاء ومن فرق أهلية معاونة، خفيفة الحركة ينعتهم البزنطيون بأنهم شديدو الوطأة عند الهجوم، سريعو الانهزام لا يمكنون العدو من أنفسهم.

الثورة من أجل العقيدة

كانت بزنطة في عهد جستنيان تلتهب بالخلافات الدينية وكان

(1) الصحيح: الرشى ج رشوة وهي ما يعطى لإبطال حق أو إحقاق باطل (الجُعل) (ابن منظور/ 1).

الإمبراطور يدين بالمذهب الأرثذكسي القائل بأن المسيح أشرف مخلوق لكنه ليس إلّهاً فاضطهد كل الرعايا الخارجين على هذا المذهب أو بالأخص من الكاثوليك الذين يقولون إن المسيح من روح الله وأنه مساوٍ لَهُ في اللاهوت والعلاقة بينهما أزلية وهو ما يعبّرون عنه بالتثليث. كما ثارت إفريقيا في آخر عهد الرومان على هذا المذهب وحلت مكانه نزعتان أخريان[1] استقرتا فيها على عهد الفندال: الأولى النزعة الأريوسية[2] التي آمن بها الفندال وهي القول بأن الله واحد والمسيح عبده ورسوله اختاره لتأدية رسالته إلى خلقه، ونزعة دونات[3] التي مال إليها الأفارقة وقالوا بها.

وبالرغم من تأصل الاختلاف بين أهل هذه المذاهب فقد أصدر الإمبراطور جستنيان مرسوماً في سنة 535 باعتبار المذهب الكاثوليكي ديانة رسمية لأهل البلاد لا يجوز لهم أن يمارسوا غيرها. وبسبب ذلك نشأت قلاقل واضطرابات وصار كل فريق ينكل بمخالفه في العقيدة وتعطلت حرية الضمير. وهبت من جراء ذلك ثورة عنيفة في أواسط المملكة التونسية ضد التدخل البيزنطي في حرية الاعتقاد وامتد أوارها إلى قرطاجنة وأحرق الثائرون قصر الحكومة فكتب البزنطيون إلى قائدهم الأكبر بلزاريوس يكاشفونه بخطورة الأحوال ويستنجدونه وكان رابضاً على صقلية فأسرع إلى نجدتهم وطارد ثوار الأفارقة عن قرطاجنة إلى مجاز الباب وانهزم أمامه في هذه الواقعة

---

(1) في الأصل أخريتان.

(2) النزعة الأرنوبيوسية نسبة إلى أرنوبيوس Arnobus الإفريقي الأصل الذي دافع عن الدين المسيحي كثيراً توفي حوالى 327.

(3) هي نزعة دوناتوس Donat الأسقف القرطاجي (315) الذي أنشأ بدعة عرفت باسمه (الدوناتية) أحدثت شقاقاً وفتناً كثيرة في إفريقيا عزل سنة (347) ثم نفي إلى أن مات. واستمرت النزعة الدوناتية رغم ذلك إلى القرن السادس.

زعيمهم ستوتزاس سنة 536 وفر إلى موريطانيا وهدأت الحال نوعاً ما.

وفي سنة 545 عادت الثورة أشدّ ممّا كانت وتتابعت الوقائع وتفاقم الأمر في طرابلس الغرب ودارت فيها الدوائر على البزنطيين وقتل عاملهم (هالامون) بعد أن نكل به الثوار أشد تنكيل ثم خلفه (سرجيوس) وكان عنيفاً فأراد أن يشدّد الخناق على الشعب فثار في وجهه ثورة مبيدة كادت تؤذن بزوال الحكم البزنطي من شمالي إفريقيا.

ولما اتصل الإمبراطور بالأخبار على وجهها الصحيح بادر إلى عزله وعين بدله يوحنا (ترغليتا) لتسكين ثائرتهم فلم يتوفق لذلك في أول الأمر وجرت له معهم وقائع في سبيطلة وقابس ولم تنطف هذه الفتنة التي أحدثها جنون التحكم في الضمائر إلا بعد أن عم الخراب في البلاد ومع ذلك فقد استمر هذا الوالي في منصبه إلى أن هلك حتف أنفه سنة 552.

أما خلفاؤه الذين تعاقبوا من بعده على الولاية فإنهم تقاعسوا عن كل شيء وقصروا هممهم على جمع الأموال من كل سبيل شأن كل مستعمر فكانوا يملؤون جيوبهم من نقود الشعب يقيمون بها قصورهم في بيزنطة وكل شيء كان يباع في عهدهم بالدينار حتى الذمة والشرف وهذا ما جعل الأفارقة يحتقرون بيزنطة ويتشبثون بالمبادي الاستقلالية لمقاومة هؤلاء الصعاليك الذين يتحكمون فيهم.

وإذا أردنا أن نقارن بين الحكومة البزنطية وبين الحكومات الأخرى التي تقدمتها فإننا نجد بوجه الإجمال صفات جامعة تنطبق عليهم جميعاً وصفات ينفرد بها البزنطيون عنهم جميعاً. أما الصفات

التي يتفقون فيها فهي الاستبداد والاعتساف والظلم وتوقير كاهل الأهالي بالضرائب وصرفها في غير منـافع البـلاد والتحيف. أما الصّفات التي ينفرد بها البزنطيون فهي النهب والرشوة وترك العناية بتعمير البلاد وبيع الحقوق.

لذلك كان الخراب الذي وقع في شمالي إفريقيا على عهدهم يفوق مراراً ما أحدثه الفندال في القسم الروماني الذي كانوا يبالغون في تخريبه وأما البزنطيون فقد عفوا[1] كل شيء وصلت إليه أيديهم.

فقد تناقص على عهدهم من تعداد سكان البلاد خمسة ملايين نسمة وهذا أفظع ما صنعته حكومة احتلالية نزلت بهذه البلاد بحيث لا يعادله شيء غير الآفات والجوائح[2].

آخر عهد للبزنطيين

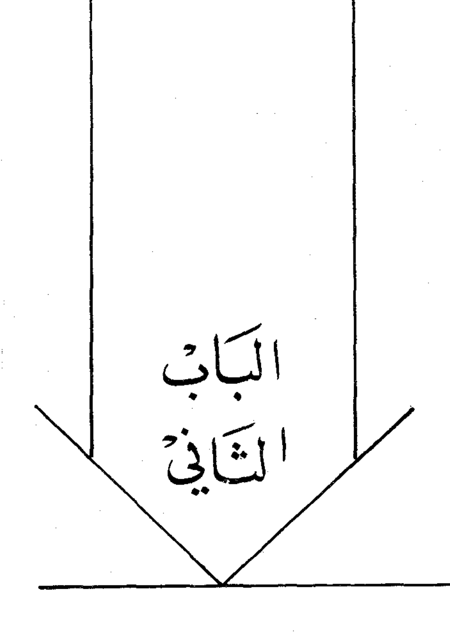
بعد أن تداعى حكم البزنطيين في شمالي إفريقيا أعلن غريغوار الصغير والي بزنطية انفصاله عن الإمبراطورية وأعلن ملكيته على البلاد واعتصم بمدينة سبيطلة، ومعه من جنوده وأعتاده ومن ضامه[3] من مرتزقة الأفارقة ما جعله يتوهم في نفسه بأنه أصبح في مَأْمَنٍ من كل طارق.

ولما عينت القسطنطينية والياً من قبلها بعد إعلان عصيانه جلس الوالي في قرطاجنة يحكم قسم إفريقية باسم الإمبراطوريـة الشرقية واستقر غريغوار في سبيطلة يحكم مملكة نوميدية، المنفصلة بسيفه عن

(1) أي أفسدوه ومَحَوْهُ. نقول: عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحَتْها (ابن منظور/ 2).
(2) الجائحات والجوائح هي البلايا والدواهي العظام (واحدتها جائحة) (ابن منظور/ 1).
(3) ضامه أي قهره وغلبه.

الأولى، ولم تنتبه المملكتان من أحلام الفخفخة الكاذبة حتى دوت في الآذان قارعة التكبير وتراءت للأبصار رايات التحرير ترفرف فوق كتائب الإنقاذ التي تحمل رسالة محمد بن عبدالله من الحجاز لفك أسر الأفارقة من ربقات[1] الدمار والخراب وهنا تستيقظ إفريقيا لإدراك حظوظها الضائعة من سعادة وإيمان بعد أن غشيها ما غشيها من كابوس الاستعباد والطغيان مدة فوق الكفاية لقرض أعمار الأمم.

(1) الربقة هي العروة في الحبل ومنها يقال: حلّ ربقته أي فرّج كربته. وتجمع على رِبق ورباق وأربقة ولم نعثر على الجمع ربقات.



الصراع العربي الآري في الشرق الأوسط إلى ظهور الإسلام

- الفصل الأول : الدور العربي.
- الفصل الثاني : الدور الفارسي.
- الفصل الثالث : الدور اليوناني.
- الفصل الرابع : رجوع الدور الفارسي.
- الفصل الخامس : اليمن قبل الإسلام.

الفصل الأوّل

الدّور العربي

تكلمنا في المباحث السابقة عن حروب الاستعباد التي أثارتها آرية الروم المغاربة والمشارقة من ناحيتهم على الأفارقة العرب الذين طفح بهم مكيال الجزيرة منذ أقدم العصور فانسابوا على أديم هذه الأرض الإفريقية. وأوردت الأمثلة المريعة عن أعمال أولئك المهاجرين الجفاة وما خلفوه وراءهم من فظائع تقشعر من هولها الأبدان في حقبة امتدت إلى نحو الألف سنة حتى تأذن الله بالفرج من عنده وقيض لهم الإسلام فدك باطلهم، وأصلح ما أفسدوه.

ولما كان تأثير هؤلاء الطغاة تجاوز شمالي إفريقيا إلى غربي آسيا واستفحل فيه شرهم وتركوه، بعد أن كان مضيئاً، ظلاماً دامساً فإننا رأينا من المفيد أن لا نقصر الكلام على **إنقاذ شمال إفريقيا وحده** وهو جزء صغير جداً بالنسبة للمنطقة العالمية التي عسف بها الآريون وأشرق فيها نور الإسلام وحرر ساكنيها من استعبادهم حتى يقف القراء على كثب من ذلك الانقلاب الهائل الذي أجراه في العالم

لتحقيق سلامة الأمم وإنقاذها من العسف والطغيان. وإنه القوة الخارقة التي جاءت بالمعجزات من الإصلاح الإلّهي لتعليم مبادىء الحرية والإنقاذ وإبطال الألوهيات التي اصطنعها الإنسان الظالم لتوهين الضعفاء وامتلاك الرقاب، وإعلان قواعد الحق العام بين الناس.

ولن يستطيع الإنسان مهما سمحت به فطرته أن يدرك ما أحدثه الإسلام من الإصلاحات العامة في جميع نواحي الحياة في أوضاع المسلمين الحالية ما لم يتجرد عنها ويقف على جانب من التخبط الأعمى الذي كانت تعشو[1] فيه الأمم قبل ظهوره. لذلك وجب علينا أن نضع نموذجاً منه بين يدي القراء حتى يكونوا على بصيرة تامة في تقدير مقاييسهم لتعاليم الإسلام لا مقلدة أغبياء تعبث بآرائهم الأهواء.

وقبل الشروع في ذلك ينبغي لنا أن ننبه حضراتهم إلى أن المعركة الظالمة التي نتجت عنها جميع الشرور الاجتماعية التي تعانيها اليوم الخليقة لم تكن وليدة عصرنا الحالي، ولا منبعثة عن وضع اقتصادي دعت إليه حاجة المكاثر إلى التوفير بل إنها أثر أحقاد وتراتٍ[2] قديمة يتوارثها الأحفاد عن الأجداد جعلت الشرق في عراك دائم لا هوادة فيه مع الغرب فهما يتصاولان من أقدم العصور ولا بد أن ينتهي بغلبة أحدهما على الآخر ولا بد للحق أن ينتصر مهما طال عناء المقهورين ما دام في الكون عقل وتدبير وطموح.

النزاع على السيادة العالمية بين العرب والآريين واجهتان متقابلتان

---

(1) من (العَشْو) وهو سوء البصر. والمقصود هنا سوء البصيرة.

(2)) أي مظالم ـ واحدتها وترة.

مأهولتان بالسكان الأولى مؤلفة من العرب، وهي تمتد من أرض بابل في الشرق مارة ببلاد الفينيقيين غرباً ثم تمر بمصر إلى قرطاجنة ومنها إلى سيف بحر الظلمات. الثانية توجد في الطرف المقابل وهو يبتدي من تخوم الهند في الشرق ويمر مقاطعاً أوروبا إلى ساحل بحر الظلمات في الجانب الآخر.

هاتان الواجهتان تتنازعان ملاءة السيادة على العالم، وتتغالبان عليها.

فكما كانت بادية العرب منذ الأزال في الجنوب مصدراً كبيراً لشعوب كانت تغادر المراعي[1] على أطراف البادية بلا انقطاع لتقيم في المدن والقرى المتاخمة لها. وتعيش عيشة حضرية ناعمة، كذلك أيضاً كان في الشمال رعاة ومراع تمتد من ساحل بحر قزوين شرقاً ثم تمر من آسيا إلى أوروبا مخترقة روسيا الجنوبية ثم تمر بالبحر الأسود إلى الدانوب[2] الأسفل وكانت تلك المراعي مكتضة بالرعاة الذين كانوا في الفينة بعد الفينة يتدفقون كالسيل على آسيا الغربية وأوروبا الشرقية وليست هذه القبائل غير الشعوب الهندية الأروبية[3] أهل أوروبة الحديثة.

ابتدأوا منذ القديم كالعرب يهاجرون من مراعيهم إلى جميع الجهات وعلى مرور الزمن تألف منهم كما تألف من الآخرين صنف من الخلق طويل يمتد من تخوم الهند في الشرق خطاً واحداً يقطع أوروبا إلى المحيط الأطلانطيقي.

---

(1) في الأصل: المراع.

(2) Danube نهر في أوروبا ينبع من ألمانيا الغربية ويخترقها مع النمسا ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا ويصب في البحر الأسود.

(3) Hendo - Europèens (الآرية).

وما التاريخ في الحقيقة إلَّا قصص النزاع المستمر بين تينك الواجهتين فهما بمثابة معسكرين كبيرين متقابلين يمتدان من آسيا الغربية إلى بحر الظلمات فالحروب التي نشبت بين روما وقرطاجنة كانت من بعض الأعمال الحربية التي وقعت على ميسرة الجيش العربي وكذلك الفوز الذي أحرزه الفرس على الكلدان سنة 539 قبل الميلاد كان من نتائج تلك العمليات التي أجريت على ميمنة الجيش العربي، وما استيلاء الفرس والروم بعد ذلك على مصر وسواحل سورية إلَّا لتهديم القلب في المعسكر الجنوبي وما ارتداد فلولها[1] إلى المؤخرة واعتصامها بالجزيرة قروناً إلَّا لكي تستجم للراحة وتستجمع قواها لمواثبة[2] العدو وإزاحته عن الواجهة وخرق خطوطه في الواجهة الأخرى.

فقد رأيناها تخرج ظاهرة مرة ثانية بتعبئة قائدها الأكبر محمد بن عبدالله فدفعت الجيش الشمالي عن واجهتها وخلصتها ثم ظلت تتعقبه إلى أن فرقت واجهته في إيران والبحر الأسود والدانوب وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

وهكذا استمرت المعارك سجالاً ما بين المعسكرين وهما بين مد وجزر إلى أن تغلبت الواجهة الشمالية مرة ثانية في العصر الحديث.

مواطن الأمة العربية

إذا تأملنا في المواطن الأصلية للأمة العربية التي صدرت منها نجدها بمثابة قلعة حصينة مترامية الأطراف يرابط فيها جيش متوثب على الكفاح متجه إلى الجنوب، طرفه الغربي عرش مصر، والطرف

---

(1) الفلول والأفلال هم المنهزمون (الواحد: فلّ) (ابن منظور/3).
(2) واثبه مواثبة بادره وانقضّ عليه (ابن منظور/3).

الشرقي خليج العرب، ومركزه إلى شمال الجزيرة متجه إلى الجنوب وميمنته سورية وفلسطين، وميسرته بلاد فارس، وظهره إلى جبال آشور.

وتنقسم هذه المواطن المتسعة إلى منطقتين منطقة مخصبة غزيرة المياه كثيرة الأنهار والإنبات. ومنطقة ناشفة لا يقع فيها مطر إلّا بضعة أسابيع في فصل الشتاء وسكانها ينتمون إلى الجنس الأبيض وأغلبهم قبائل متحضرة، وقليل منهم يغلب عليهم جفاء البادية، وقد كرت[1] الأجيال عليهم وهم ظاعنون[2] من مكان إلى مكان في الأجزاء المأهولة من البلاد بعضهم للتجارة وآخرون ينتجعون[3] المراعي لقطعانهم ومواشيهم فإذا طاب لهم المقام في مكان فما أسرعهم لاستبدال عيش الحضارة بعيشة الترحل والانتقال ويقبلون على تعاطي الفلاحة والزراعة.

ومهما اختلفت مواطن هذه الأمة بين منازل المدر والوبر[4] فهي متشابهة في الغرائز والسحن[5] والسجايا الخلقية، وكانوا ولم يزالوا حركة مسترسلة في الانتقال إلى ما حولهم من المعمور منذ آلاف السنين. وبالرغم من هذه الحركة، فقد حافظوا على ميزاتهم الجنسية وسيادتهم الذاتية في الأقطار التي ارتحلوا إليها على طول الخط بالرغم من وجود العناصر المختلفة التي لا تنفك عن مزاحمتهم فإنهم يتغلبون عليها ولو بعد حين ثم يبتلعونها.

---

(1) تعاقبت ـ نقول: كرَّ الليل والنَّهار أي عَادَا مرَّة بعد أخرى.
(2) ظعن عن المكان أي رحل عنه (ابن منظور/2) (ن. م).
(3) انتجع واستنجع الكلأ أي ذهب لطلبه في موضعه (ابن منظور: 3).
(4) أهل المدر هم أهل المدن والقرى (الحضر) وأهل الوبر هم أهل البدو.
(5) السحنة هي الهيئة واللَّون.

وهذا الانتقال التدريجي البطيء من الصحراء إلى البقاع المختلفة ينمو ويزداد حتى يكون أحياناً تياراً جارفاً يحمل تلك القبائل على مجاوزة الأراضي الزراعية إلى القرى والمدن فيعمرونها، وقد أكسبتهم الصحراء غرائز معينة يمتازون بها على غيرهم وهي أشبه ما تكون بالشيوعية فإن أراضيهم ليست ملكاً لأحد ولا حدود معينة لها لذلك كان كلؤها مباحاً لكل من يرعاه لا حق فيه لأحد دون غيره. ولا يوجد بينهم إقطاعيون، ولا أغنياء أصحاب اختصاص في المراعي والمياه بل هي حق الناس جميعاً لذلك لم يكونوا محتاجين إلى شرائع تقيدهم أو قوانين للفصل بين منازعاتهم، فلو رأى أحدهم قطعاناً من السائمة لغير قبيلته تمرح في كلئهم لما رأى في ذلك بدعاً بل إنه لا يصدُّها عنه ولا يكلم راعيها، ولو حدثته نفسه في اغتصابه فإنه لا يستطيع أن يدرك منالاً من ذلك إلاَّ بقتله وهو يجد في ذلك وبالاً عليه وعلى رهطه إما بالثأر أو الدِّية المرهقة لا عن يد حاكم أو سلطان قاهر بل جرياً على العادة واحتراماً للتقاليد.

فقد كان لعادة الأخذ بالثأر بين العرب والاستعداء على اغتصاب الأموال أثر كبير في تقويم الأخلاق، ومنع الجرائم، وكبح النفوس من الاعتداء مما لسنا نجد له مثيلاً في أرقى البلاد المتحضرة مهما كان فيها من صولة الأحكام وصرامة القوانين.

بتلك الميزة عاش أهل البادية أحراراً في بلادهم بلا وازع ولا حارس عيشة أباة الضيم، وكرام المعادن، ولم تتمكن حكومة جاورتهم أو تسلطت على بلد قريب منهم أن تستولي عليهم. وبسبب ذلك كان لاتصال العرب بمجاوريهم أثر عظيم في يقظتهم والوقوف على مختلف الحضارات ونقل ما يحتاجون إليه منها كالأسلحة والأدوات والثياب والطيب وما إلى ذلك من المتاع، وتعلموا بالممارسة

كيف يستعملون الأشياء وكيف ينقلونها من مكان إلى مكان لا كناقلين لغيرهم لقاء أجور طفيفة ينالونها من أهل الأمصار بل كمستعملين وكتجار لحسابهم يقطعون بها بطون الفيافي والبيد بين بابل ودارين[1]، وصنعاء[2] وفلسطين وهكذا صاروا بالممارسة على طول السنين ملوك المبادلات التجارية بين الشرق والغرب لا يتقدم لمنازعتهم فيها منازع فكانت مراكب الفينيقيين تستبضع منهم وسفن الصين والهند تأخذ منهم وتحمل إليهم.

وهكذا أصبح العرب واقفين بواسطة التجارة على نفسيات الأقوام، وحضارات الشعوب الوقوف التام. وبسبب ذلك جلبوا إلى بلادهم الثروات الطائلة، وتمكنوا في رخاء ويسر من تمدين مدنهم داخل حدود الصحراء شادوا فيها القصور وغرسوا الجنات وجعلوها مضرباً للأمثال ناهيك بجنة عدن وإن نسينا فلا ننسى إرم ذات العماد[3]، والبتراء[4] وتدمر[5]، ومكة وصنعاء، ودارين وغيرها من المدائن القديمة التي طار صيتها بين الأقطار ويخلد ذكرها بما حوته من آثار.

كيف تكونت سجايا العرب

لا مرية[6] في أن سجايا الأقوام تتكون من محيطها فإن من عادة

---

(1) قيل إنها في البحرين وقيل هي بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ وهذه هي اليوم الداروم (معجم البلدان 432/2).

(2) اشتهرت قبل الإسلام بقصورها مثل قصر غمدان. قيل أن اسمها في القديم (أزال) (معجم البلدان 426/3).

(3) قيل هي الإسكندرية وقيل هي دمشق وقيل هي المدينة. كما قيل هي أرض كانت واندرست. ذكرت في سورة الفجر.

(4) البتراء (سلع) مدينة في الأردن كانت عاصمة الدولة النبطية.

(5) مدينة قديمة مشهورة في صحراء الشام. من أشهر آثارها هيكل بعل.

(6) أي لا جدل.

قطع الفلوات[1] السحيقة واجتياز المفاوز[2] المنهكة توليد المهابة في النفس والعظمة، والصمت، والجلد، والصبر على المكاره، وتثير الخيال الخصب، وهو مادة القوة الشاعرية، والنظر البعيد. وكلها من الخصائص النفسية التي امتاز بها العرب لذلك كانوا يتحسسون بأسرار الطبيعة ولا يتهيبونها ويشعرون بفقد الإلف فيتشوقون إليه ويبكون الدِّمن[3] والرسوم التي خلفوها فكانوا بسليقتهم شعراء وصافين، وقافة[4] عرافين.

فقد اهتدوا بالنجوم وعرفوها من سري الليل فرصدوا الكواكب والمطالع، وضبطوا مداخل الفصول، وحذقوا الحساب. وكشفوا عن كل ما يحيط بهم من طبائع الأقوام وأحوال الشعوب. وقد لا يعزب عن فهمهم نشر ما يجري في العالم فأكسبهم ذلك حساً مرهفاً دقيقاً فهم ينتبهون للّمحة، ويفهمون بأقل إشارة، ويفطنون إلى المغامز فكانوا فلاسفة فطريين، وذوي مقاييس عقلية صحيحة قلما تخطىء التقدير.

وكان رأيهم في الإلهيات دقيقاً عكس الأمم الأخرى التي تستوحي عقائدها من تأليه الحجارة والصخور منذ تأثرت بها في العصر الحجري فكانوا يقرون بوجود الله ويؤمنون بالغيب وإن كان على ضرب من غرار الوهم بما تسرب إلى نفوسهم من مجاوريهم الآريين ومن ذلك اتِّخاذهم للوسطاء والشفعاء.

أما رأيهم في العدل فكان سليماً يتلقونه من وحي الصحراء فهم

---

(1) واحدتها فلاة وهي الصحراء السحيقة وتجمع أيضاً على فلاً وفُليّ وفَليّ. (ابن منظور/3).

(2) واحدتها مفازة وهي المنجاة.

(3) الآثار. واحدتها دمنة.

(4) القائفُ. هو الذي يعرف الآثار ومنه القيافة (ابن منظور/3).

يشعرون بالعطف الشديد على الضعفاء، ولا يقتلونهم كما يفعل ذلك غيرهم بل كانوا يحسبونهم عيال الله، ويجعلون لهم حقاً في أموالهم، وينصرون المظلوم على الظالم وينجدونه، ومن ذلك تولدت فيهم غرائز الشجاعة والكرم، وحماية الجوار. وهي من أسمى الفضائل في الأمم التي تكسبها الشعور بالحق الكامل فتدرك ما لها وما عليها.

ولهذه المزايا الغالية اصطفى الله من أصلابهم الرسل الذين أرسلهم لهداية الأمم.

خروج العرب من باديتهم وتأليف الأمم منهم

أما خروج العرب من باديتهم وتبسطهم في الأرض على امتداد الخط الجنوبي فقد كان قبل خمسة آلاف سنة على ما أثبته المؤرخون فقد هبطوا إلى العراق وسورية ومصر ثم إلى شمالي إفريقيا وعمروا البلاد وبنوا المدن ومن تأثل[1] منهم وأقام في جهة تأقلم فيها وعُدَّ منها ومن هؤلاء: الأكاديون، والآموريون، والبابليون، والآشوريون، والآراميون، والكلدان، والعموريون، والكنعانيون والفينيقيون، والحميريون، والمعينيون، والسبأيون، والفراعنة، والهكسوس، والأحباش، والأفارقة. ولم يبق محافظاً على خصائص العروبة القحة إلَّا من قبع منهم في بطن الجزيرة يردد نشيد الصحراء الخالدة بين الفدافدة والنجود لتدريب الجنود.

العرب بين الرافدين

لا شك أن أول من عمر بلاد الرافدين[2] هم العرب. وهي جزء

(1) تأصَّل.

(2) الواقعة بين جبال (ذاغروس) وبادية الشام. ازدهرت في أنحائها الحضارات=

طبيعي من مـواطنهم وإن كان غـير معروف عـلى التحقيق متى عمروها، وكل ما علم من ذلك أن وجودهم فيها كان محققاً منذ سنة 3000 قبل الميلاد. حين هاجمهم السوماريون في بابلٍ، ودامت الحرب الطاحنة دائرة بينهم زهاء ألف سنة، ولم تنفض إلاَّ سنة 2100 قبل الميلاد.

وكـان السومـاريون منتشـرين على ضفـاف الفرات، وتمكنـوا بالتدريج من الاستيلاء على القسم الجنوبي من سهل شنعار فدعيت المنطقة التي استـولوا عليهـا سومـير[1]. وكانـوا على نصيب من الحضارة، ولهم قلم يكتبون به يعرف بالقلم الإسفيني وهو نوع من الرموز المسمارية[2].

وقد تعذر على المؤرخين أن يثبتوا للسوماريين أصلاً معروفاً وإنما عرَّفوهم بأشكالهم وآثارهم التي عثروا عليهـا في خرابـات بابـل القديمة، وكل ما عرفوه عنهم أنهم ليسوا من قرابة الجنس الأروبي الهندي بل قوم آخرون محاربون نظموا الجيوش قبل غيرهم من الدول وحاربوا بها أعداءهم، وأنهم يعبدون إلهاً اسمه إنليـل[3] ينعتونه بأنه إله الهواء ويركزونه فوق أعالي المدينة، وقد بنوا له هيكلاً في مدينتهم المقدسة نيبور[4] ليكون مرتفعاً كالقمة التي كان يحتلها في بلادهم الجبلية الأولى التي قدموا منها قبل نزولهم في بابل.

وكانوا لا يدفنون موتاهم في مدينة الأموات (المقابر) بل يحفرون

= السومرية والآشورية والبابلية وغيرها.

(1) أو شومر.

(2) نوع من الكتابة التصويرية.

(3) هو صاحب لقب (سيِّد). له ولد يسمَّى إينورتا.

(4) مدينة قديمة كانت العاصمة الدينية لسهل شنعار في عهد السومريين والبابليين.

لهم حفراً تحت المنازل يُواروهم فيها. ولا يبنون فوق مشاهدهم قبوراً ولا أضرحة.

ومن مميزاتهم إكبار الكهنة والموظفين، وجعلهم في أرفع منزلة مع أنهم كانوا يظلمونهم ويوقرونهم بالضرائب ولا يهتمون بشيء من مصالحهم غير الري والزراعة، ومن مآثرهم في ذلك أنهم جففوا قبل 5000 سنة الأراضي العميقة عند مصبي الرافدين وجعلوها أرضاً صالحة للزراعة.

ولم يتهاون العرب عن مقاومتهم في القديم بل ظلوا يطاردونهم ويسترجعون منهم البلاد الواقعة شمالي سومير التي سميت فيما بعد بـ (أكد) التي تصل الرافدين بالجبال الشرقية ومن أنشط القبائل التي انبرت لمقارعتهم، وتقلدت زعامة العرب قبيلة الأكديين[1] وهكذا وجد من أقدم العصور طراد في سهل شنعار بين أهليين وغرباء على امتلاك البلاد إلى أن ظهر الملك سرجون الأكادي سنة 2750[2] وكان مدرباً على فنون القتال فزحف بالأكاديين من جبال عيلام الشرقية إلى الغرب سالكاً في سيره مجرى الفرات فقهر السوماريين وأدال منهم. وهو أول قائد ازدان به تاريخ الأمة العربية في حروب التحرير ضد الأجانب.

---

(1) نسبة إلى أكد وهي مدينة في العراق (المؤلف). وتسمى كذلك أكاد أو أجاديه بناها سرجون الأوّل قرب كيش، جنوب العراق. وقد اتخذ هذا الملك مدينة أكاد عاصمة لملكه فسميت أسرته الحاكمة بالأسرة الأكادية. وهذه الأسرة هي من الساميين الأوَل الذين استوطنوا العراق والذين استمرّ وجودهم اللغوي والحضاري والسياسي بعد ذلك في الإمبراطوريتين البابلية والأشورية ثم في دولة الكلدانيين أخيراً. انظر: (الساميون ولغاتهم: حسن ظاظا دار المعارف بمصر 1471 : 26).

(2) هذا التاريخ غير صحيح حيث أن سرجون الأوّل (الأكبر) حكم (بين 2584 - 2530 ق. م).

مملكة أكد في بلاد الرافدين

وبعد انتصار العرب على أعدائهم أنشأ لهم سرجون[1] مملكة عربية ممتدة من عيلام[2] إلى سواحل البحر المتوسط. وحمل قومه على التحضر وسكنى المدن، ومنعهم من الترحل ونشَّطهم على تعلم القراءة والكتابة بالأحرف السومارية، فكانوا يكتبون بها لغتهم، وأخذوا عن أعدائهم ما كانوا يمتازون به من المعارف ومن ذلك تقويم السنين (وهم الذين وضعوه) ومعايير المكاييل والموازين، وأساليب المعاملات، والتجارة، وفنون الحرب، وصنع الآلات الحربية، والنحت، وحفر الأختام وقد بزوا أساتذتهم فيها.

ولم يطل عهد الأكاديين حتى ضعف أمرهم وانحط شأن الجنود بسبب ترحلهم وإقامتهم في المدن فقد نكثت فَتلهم[3] المدن السومارية الجنوبية[4] حوالي سنة 2500 قبل الميلاد. وتقلد زعامة العصيان ثلاث من تلك المدن واحدة تلو الأخرى برئاسة مدينة أور. وبعد ذلك لم يجد الفريقان لهما بُدًّاً من المصالحة. فعقدا بينهما اتفاقاً وطنياً على أساس المساواة وبفضل هذا الاتفاق انتعشت البلاد وانتشرت فيها العلوم والمعارف وأقبل الناس على تحصيل الفنون وكان هذا العصر من أزهى عصور الأدب وفيه نشأ الأدب الخرافي الدسم الذي تلقفه اليهود بعد ترحيلهم إلى بابل وشحنت به كتب التلمود.

---

(1) هو سرجون الأوَّل (الأكبر). اسمه في اللغة الأكادية: شرو- كينو. ومعناه الملك المكين أو الرئيس القوي.

(2) هي إيران اليوم فالعيلاميون هم السكان القدامى لإيران.

(3) نقضت وحدتهم وقوَّتهم.

(4) من المدن التي قامت بهذا العصيان: لاجاش ولارسا وغيرهما من المدن القديمة المقدسة للسومريين.

تغلب الآموريين على بلاد بابل

لما ضعف بأس سومير وأكد وتضاءل سلطانهم في البلاد كان فخذ من بطون العرب يعرف بالآموريين[1] هبط العراق من الأراضي السورية حول سنة 2300 قبل الميلاد فهجموا على بابل الصغيرة واستولوا عليها. ثم طفقوا يشنون الغارة على (سومير وأكد) للتغلب عليهم ودارت بينهم حروب[2] استمرت ناشبة مدة قرن كامل ثم انتهت بالفوز عليهم.

وفي أيام الملك السادس للآموريين الملك حمورابي[3] غزا قوم من عيلام، الواقعة في الجبال الشرقية، مدن سومير الجنوبية فتلقاهم الملك حمورابي بجنوده ودارت بينهم الوقائع ثلاثين عاماً[4] وأخيراً تمكن منهم، وبتشريدهم تمكن من الاستيلاء على جميع المدن السوميرية، واتخذ مدينة بابل عاصمة لملكه. وبناء على الشهرة

---

(1) ساميون يدعون (آمورو) أقاموا لهم أسرة حاكمة في بابل هي الأسرة البابلية الأولى.

(2) في الحقيقة كانت هذه الحروب بين الآموريين والعيلاميين الزاحفين من إيران.

(3) تولى ملك بابل سنة 1948 ق. م ودام حكمه 57 سنة. هو فاتح عسكري ومشرع ومصلح اجتماعي. كان يسمي نفسه في شريعته بملك البرّ أو ملك السَّلام وهو الذي تعنيه التسمية العبرانية (ملكي صادق) ورغم أن التاريخ يشهد بوثنيته فإن الكتاب المقدس بعهدته يرفعه فوق درجة إبراهيم وموسى وعيسى باعتبار أنه على زعم أهل الكتاب من غير أم ولا أب وليست له بداية ولا نهاية وهو الذي بارك أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو واضع الشرائع التي اقتبست منها التوراة بل إنه منزه عن البشرية وموصوف بأخصّ صفات الألوهية راجع المنار ج 3 م 6 بتاريخ 3 ماي 1903؛ الساميون ولغاتهم لحسن ظاظا ص 38؛ Nugayrol: Hecrie d'assyriologie. Pairs 1955.

(4) وقيل 35 عاماً.

(5) اسمها باللغة البابلية (باب إيلو) ومعناه باب الله (الساميون ولغاتهم ص 37) وهذا اللفظ لم يطلق على كل المملكة البابلية في عهد البابليين بل كانت كل منطقة منها =

الذائعة التي أحرزتها تلك المدينة في عهده الميمون دعيت باسمها المملكة. وبعد انتهاء الحروب عاش ١٢ سنة كانت كلها هناء وراحة.

وقد نال هذا الملك من الجاه وبُعد الصيت ما لم يتأتَّ لملك غيره فهو يعد إمام المشترعين في العالم القديم زيادة عما امتاز به من مضاء العزيمة وقوة الذكاء وقد نعتته التوراة بالملك الصادق.

تدوين الشرائع العربية

ومن مَآثر هذا الملك الجليلة تدوين الشرائع المختلفة التي كانت شائعة في ذلك العهد وتهذيبها وإدخال الإصلاحات عليها وتنسيقها تنسيقاً بديعاً سهل مآخذها على الذين جاؤوا من بعده وألف فيها كتاباً خالداً[1] جعله دستور العمل ثم أمر بنقشها على عمود من الحجر أذن أن ينصب بمدينة بابل في هيكل الإله مردوخ[2] وهو أقدم أثر للشرائع الأممية. وقد عثر الأثريون على ذلك العمود التاريخي في خرابات بابل قبل بضِع سنين[3] وهو منحوت من حجر الديوريت (صم الصفا) منقوشة في 3600 سطر وبأعلاه مشهد يمثل الملك واقفاً بين يدي الإله (الشمس)[4] يتناول منه الشريعة وهو جالس فوق العرش.

= باسم خاص. وفي عهد الفرس أطلق اسم بابل على كل البلاد ثم انتقل هذا الاستعمال إلى اليونان. (تاريخ اللغات السامية: ولفنسن ص: 29).

(1) كان البابليون ينظرون إليه على أنه مقدّس ومن مصدر إلهي فيجب الخضوع لقوانينه.

(2) Marduk أكبر أبناء آيا Ea. رفع حمورابي شأنه إلى الدرجة الأولى مع كبار الآلهة.

(3) سنة 1901 ـ يؤكّد حمورابي في هذه القوانين على لعنة الإله للحكام الذين لا ينجحُون في تنفيذ هذه الشريعة كما وقع اكتشاف قوانين مماثلة لقوانين حمورابي وهي تشير كذلك إلى الإله شمْش (الشمس).

(4) الإله شمس (الشمس) هو القاضي الأعظم وله ولدان هما كنو وميشارو.

وبعد انتظام المملكة البابلية جرى السكان شوطاً بعيداً في مضماري الحضارة والتقدم وبالأخص في الزراعة والصناعة والتجارة.- وكانوا قبل ذلك العصر يتعاملون على أوزان من الفضة ولما اتسع نطاق حركتهم غيروا الأوزان وجعلوا مكان عيارها نقوداً من الفضة ينعقد بها التبايع سموها الشاقل.

وكان الشعب لم يزل عاكفاً على تقديم العبادة للإله أنليل معبود السومارين القديم ولكن نظراً للمكانة السياسية والاجتماعية التي بلغ إليها فقد أنف من الاستمرار على عبادة إله أجنبي فعدل عنه إلى عبادة الإله مردوخ سيد بابل الحقيقي وبَوَّأ عشتروت[1] آلهة الحب، المنزلة التي تستحقها في نظرهم وبذلك قضوا على كل أثر تركه لهم الأجانب.

علوم البابليين

اشتهر البابليون في عصر تقدمهم بالطب والفلك والأرصاد والعرافة والقيافة والزجر[2] والسحر وتفسير الرموز الخفية والإخبار بالمغيبات والتنجيم وأخذت ذلك منهم الأمم جميعاً.

ولا شبهة في أن بابل قد بلغت الذروة في عهد حمورابي لكنها لم تعمر طويلاً بعد موته والسر في ذلك أن العصر لم يكن عصر استقرار بل كان عصر اختمار وتقلقل شأن الأمم التي لم تزل في بدء عهد تكوينها الاجتماعي فلا بدّ لها من الانتقال في شتى الأطوار حتى تستقر.

---

(1) عشتروت أو عشتر: آلهة اللذة عند السومريين القدامى. ومن صفاتها أنها إله ذكر في الصّباح وآلهة أنثى في المساء.

(2) التكهّن.

بدء الطفيليات الاجتماعية
في كيان العرب

طرق الحثيون [1] العراق من بطن آسيا وشرعوا يمدون نفوذهم في الأنحاء الجنوبية فاجتازوا سهل شنعار وأطلقوا أيديهم في بابل بالسلب والنهب وقفّى على إثرهم في ذلك الجبليون (الذين كان الملك حمورابي طردهم من مدن سومير) فانقضوا على بابل، والبابليون يدعونهم الكاشيين، ولبث هؤلاء الدخلاء يعيشون في البلاد إلى أن داهمهم الآشوريين وقرضوهم وخلصوا أرض الوافدين من شرهم.

نهوض الآشوريين لإعزاز شأن العرب
وتكوين وحدتهم

كان الآشوريون[2] في سنة 3000 قبل الميلاد من القبائل العربية الرحالة ينزحون من البادية وهم يتكلمون بلهجة تقرب من البابلية فأقاموا لأنفسهم بعد تجمعهم مملكة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وأرباضها بسط الحثيون عليها سلطانهم غير مرة ثم أنهم لا يلبثون حتى يتخلصوا منهم بقيام ملوك من السلائل العربية ذوي قوة

---

(1) قام على رأسهم ملك طموح هو (مرسَل الأوّل). فقاد جيشه بعد موت حمورابي وهجم به على الأمبراطورية البابلية فخرّب منها أقاليم كثيرة وعاث فيها سلباً ونهباً. وبذلك أقام مملكة في آسيا الصّغرى عاصمتها بالقرب من المنطقة الأثرية التي تسمّى الآن (بوغاز كوى) بشرق الأناضول.

وتسميتهم بالكاشيين (أو الكشيين) نسبة إلى الإقليم الذي انطلقُوا منه (كاشن) في الشمال الشرقي للعراق (الساميون ولغاتهم لحسن ظاظا ص 42).

(2) سمّوا بالآشوريين نسبة إلى إلههم الذي كانوا يعبدونه (آشور) وبه سميت بلادهم. كما حملت اسمه عاصمتهم الأولى التي كانت تقع على نهر دجلة شمالاً من نقطة التقائه بنهر الزاب الصّغير وهي (آشور) مدينة قديمة يعود تأسيسها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد (راجع المصدر السابق ص 38).

وشوكة أمثال سرجون، وحورابي وكان أمر العرب في الشمال قوياً قبل ظهور الحثيين ثم خف بزحفهم. ولما مات سرجون لم يسع الآشوريين غير التقدم للذياد عن أوطانهم فخاضوا غمرات حروب عوان[1] لرد هجمات أولئك المغيرين الدخلاء على الشمال والجنوب ودامت هذه المعركة الهائلة 1500 سنة دون أن تغف لهم عين. وحين أعياهم الجهد تواطؤوا مع الفرس وضمّوهم إلى جيوشهم فأتوهم بالمركبات الحربية ولم تكن لهم بها سابقة فتقوّى بهم ساعد الآشوريين وعكفوا على جلاد أعدائهم في البلاد التي اغتصبوها. وما كانوا يتوانون عن الإخلال بأمنهم في الحدود التي كانوا يدعونها إلى أن تمكنوا في سنة 1500 من اجتياز الفرات وانقضوا عليهم انقضاض الكواسر فحطموهم. ثم زحفوا على بابل متابعين مجرى دجلة وكانت يومئذٍ تحت وطأة الكاشيين فاستولوا عليها وخلصوها من أيديهم، وهم الذين أتوا بالفرس أول مرة وأوطأوهم أكناف البلاد فجازوهم على ذلك جزاءً عادلاً.

ظهور بواكير[2] وحدة العرب المتمدنين

بينما نجد الآشوريين يقومون في بلاد بابل بعملية تطهيرها من الدخلاء وتصفية العرق العربي نرى الآراميين[3] مجدين في الاستيلاء على الجانب الغربي من الجزيرة، ويفصلون بذلك آشور عن البحر. وبعد سنة 1200 يتوفقون لتأسيس ممالك عديدة أعزها دمشق ويبدي الآراميون نشاطاً عجيباً في إنفاذ تجارتهم إلى ما وراء مدنهم، وتجتاز قوافلهم الموقورة بالبضائع البادية، وتمتد شمالاً إلى منابع دجلة. ولا

---

(1) أشدّ الحروب.

(2) في الأصل: بواكر. واحدتها باكورة وهي أوّل الشيء.

(3) لم يقيموا لهم في وقت من الأوقات مملكة موحدة أو امبراطورية كغيرهم من الساميين. كانوا في الصحراء السورية العربية وبوادي الشام منذ أقدم العصور.

يمضي عليهم عهد طويل حتى تبصرهم يتقبضون على تجارة آسيا الصغرى ويترددون على الأسواق الآشورية وهم يحملون معهم الحروف الهجائية التي وضعها إخوانهم الفينيقيون وأخذوها عنهم فيحلونها محل العلامات المسمارية الأجنبية، فتنتشر في جميع الأنحاء ثم لا تلبث أن تصير بعد زمن حروفاً للشعوب الشرقية والغربية جميعاً عدا الصين.

وبفضل هذه الحروف العربية الفينيقية تتغلب اللهجة الآرامية على بقية اللهجات الملوثة بالنبرات الأجنبية ويصبح عدد المتكلمين بها في مملكة آشور أضعاف المتكلمين بالآشورية.

ويحاول الآشوريون في هذه الأثناء لأولْ مرة أن يوسعوا نطاق نفوذهم في شمالي سوريا ثم يرتدون عن ذلك في غير يأس فقد حاول الملك تغليت بلاسر الأول[1] سنة 1100 أن يبسط سلطانه على شمال سوريا فزحف بجنوده غرباً إلى البحر المتوسط وشاهد أمواجه المتلاطمة من نافذة أرواد الواقعة على الحد الشمالي لفينيقيا ولم يكتفِ الملك الطموح بمجرد النظر إليه بل ركب زورقاً فينيقياً وجرب مخر عبابه، ومرت بعد ذلك ثلاثة قرون على آشور دون أن تعود إلى تكرار هذه الزيارة.

وفي أواسط القرن التاسع عاودت الآشوريين تلك الذكرى الجميلة فزحفوا عبر الفرات وكانت وجهتهم نحو السواحل، ولما شعرت بمقدمهم المدن السورية والفينيقية فضلت أن لا تشق في وجوههم عصا الطاعة فاعترفت لهم بالسيادة، وحملت لهم أكداس الخراج.

---

(1) ويسمى تغلات فالصر الأوّل (1116 - 1090).

وفي سنة 722 قبل الميلاد تقدم سرجون الثاني[1] ملك آشور واستولى على مدينة السامرة اليهودية[2] وقد بلغت الدولة في عهده قمة السيادة والمجد.

وفي عهد ابنه الملك سنحاريب الثاني[3] فاقت في عظمتها عهد أبيه وهو معدود من أكبر ساسة العالم في عصره فقد جهز جيشاً كبيراً بقيادة ابنه[4] وسيره لضم مصر فمات دون إتمام هذه البغية ولكن أتمها الحفيد آشور بنيبال[5] عوض أبيه سنة 674.

وبعد اتساع رقعة هذه المملكة العربية وشمولها أغلب بلاد الخط الجنوبي اتخذ سنحاريب مدينة نينوى الواقعة شمالي آشور عاصمة لهذه الدولة العظيمة وتوفق لتحقيق أمنية تختلج بأفئدة العرب لم يتوفق إليها أحد من الملوك الذين تقدموه.

ويذهب المؤرخون في تعليل الأسباب التي أتاحت له هذا الفوز الخارق إلى القول بمهارة صناع الأسلحة في عصره فقد اتخذوا له عتاداً من الحديد الذي لم يكن معروفاً من قبل أن يسلح به جيوشه، وقد وجدوا بغرفة الأسلحة وحدها في قصره من بين الذخائر الكثيرة

---

(1) (722 - 705 ق. م). بسط سلطانه على فلسطين وجزيرة قبرص واحتلّ جزء من بلاد الميديين وفرض نفوذه على العيلاميين في إيران ووطّد سلطانه على بابل. (المصدر السابق ص: 49).

(2) بدأ بمحاصرتها أخوه سالما نصر الخامس (727 - 722 ق. م) ابن الأمبراطور تغلات فالصر الثالث (745 - 727 ق. م) حيث كانت مملكة إسرائيل تحت حكم ملكهم هوشع ولكنه مات أثناء هذا الحصار (ن. م).

(3) هو سن. احي. أربا المذكور في كتب اليهود (705 - 681 ق. م) قرّر إحراق بابل سنة 689 ق. م. باعتبارها من النقاط الثائرة (ن. م).

(4) آسرحدون.

(5) (681 - 669 ق. م).

200 طن من الأسلحة الحديدية الجديدة وكان من أهمها المنجنيق، وأدوات ثقب القلاع والحصون لذلك عجزت جيوش البلاد التي تغلب عليها عن كفاحه.

الإصلاحات الاجتماعية في العهد الآشوري

لم تكن عظمة الدولة الآشورية قاصرة على ناحية من النواحي بل كانت مؤلفة من كل نواحيها فمن تفوّقٍ في العتاد، ومهارة في إدارة الحروب إلى حكمة سياسية ملكت قلوب الشعوب ودربة خارقة في تصريف الأمور وغير ذلك من التصرفات الحازمة الدالة على عراقة هذه الدولة في الاضطلاع بشؤون الملك.

ولقد كانت عنايتها العظيمة بالإصلاح الاجتماعي من أجلّ الصفات التي غيرت من مميزات هذه الدولة. فقد عدلت كثيراً من الأحكام الأصولية التي رتب قواعدها الملك حمورابي الآموري فقد ألغت عقوبات السن بالسن والعين بالعين وعوضتها بالتعازير من غير تشويه، وسوت بين الناس في العقوبات وألغت ما كانوا يراعونه في ذلك من الفوارق الاجتماعية، لأن العبرة في الزجر قمع الجريمة وهو لا يحصل بالمحاباة. وكذلك أقامت الحدود على المستهترين من الذكور والإناث الذين ينتهكون الحرمات.

ومن أهم الإصلاحات لنظام الأسرة اعتبار عقدة الزواج رابطة خاصة بالمتعاقدين فقط لا علاقة لها بأحد سواهما والغاية من ذلك منع انتقال الزوجة بالإرث لأي أحد من القرابة كما هو جارٍ في تقاليد الصحراء.

وكذلك وضع الحجاب على نساء الأكابر والأشراف تحقيقاً للصيانة ومنعهن من الظهور في الأسواق وقد كان ذلك أصلاً في اتخاذ

الحجاب عند أهل المدن.

ومن إصلاحاتهم المفيدة أنهم لما أدركوا أن اتساع رقعة ممالكهم يستلزم التوفير في عدد الجنود أضعاف ما كانوا يوم كانت امبراطوريتهم داخل حدود بابل فقد كانت طريقتهم إذ ذاك دعوة المزارعين لخدمة الجندية مدة يسيرة في كل سنة ولما توسعت البلاد لم تعد تلك المدة المعينة موفية بالحاجة منها فاضطروا أن يأخذوا المجندين من غير تعيين للمدة. وبسبب ذلك أخذ الجيش على مر السنين يتكاثر ويتعاظم حتى غدت مملكة آشور عبارة عن جيش من غير شعب فتعطلت من هذه الناحية الأعمال المدنية وأهملت الصناعة وقلت الزراعة وبيعت المصانع والحقول بأبخس الأثمان.

وأول من انتبه لهذا الخطر الملك سرجون الثاني فعمد إلى تلافيه بتسريح المجندين من المزارعين وإعادتهم إلى أراضيهم ليباشروا فلحها ويبقوا فيها كرديف[1] يدعوهم إلى الخدمة في ساعة الخطر للدفاع عن مناطقهم ومنع نقلهم إلى الجهات البعيدة. ثم عوضهم بخليط غير متجانس من فلول الجنود الذين هزمهم الآشوريون في حروبهم ورفع ضباطهم فوق مراتبهم فانقلب هذا الإصلاح فساداً في جسم الدولة لأنه جند أجنبي مصطنع لا تجيش في صدره نار الحمية المقدسة - التي تلهب أحشاء الجنود فانحطت بذلك معنويات الجيش وأصبحت في درك لا يرجى منه نجاة. ولا غرابة أن تصاب الأمبراطورية الآشورية من هذه الناحية باعتمادها على الأجانب.

وهي على كل حال تجربة مرة آلت إلى انحلال الدولة الآشورية

(1) الردّاف والردفاء هم الجنود الذين يطلق سبيلهم إلى وقت الحاجة. (ابن منظور/ 1).

بعد بلوغها أوج العظمة الخارقة التي ازدان بها تاريخ الشرق.

زحف الكلدانيين والأجانب على الامبراطورية الآشورية وانقراضها

بينما كانت الامبراطورية الآشورية تهوي رويداً في كفاحها الداخلي لصد غارات الآراميين الذين انهالوا عليها كالأكلة في الجسم العليل، كانت قبيلة عربية أخرى تزحف في نفس الوقت زحفاً بطيئاً من رأس الخليج العربي وتنزل سواحله عند حضيض الجبال الشرقية اسمها (كلدى) وهي من القبائل الرحالة تريد أن تعيد بزحفها تمثيل روايتي أكد والآموريين فانتشرت بالفعل في طول البلاد وعرضها واحتلت بابل وجعلتها المركز الأول وكان ذلك أهم شيء لديها.

ولما أدرك الكلدانيون هذه الغاية هب ملكهم (بنو بلامر)[1] وكان من أقيال الأمبراطورية الآشورية فقلب لدولته ظهر المجن وزحف عليها بجنوده لمنازلة عاصمتها نينوى.

ومن نكد الدنيا على الآشوريين أن كانت الشعوب الآرية الأوربية تتقدم أيضاً من الشمال في جيوش جرارة لغزو الامبراطورية وفي طليعتها قبائل مادي[2] وفارس فكانت هذه الغارات المتعاقبة من الجوانب المختلفة عاملاً قوياً في تزعزع بناء المملكة وهي تعيث

---

(1) نبو فالصر (نبو بلاسر) من الأسرة الكلدانية ـ ملك بابل (633 - 584 ق.م)

(2) أو (ميديا)، وعلى رأسها ملكها أوفا شاترا المعروف باسم يساكسار الأوّل (633 - 584 ق. م). وبلاد ميدي أو مادي هي شمال إيران وغربيها تعرف اليوم باسم أذربيجان والعراق العجمي. امتدّت سطوة الميديين قبل أيام كورش حتى حكموا بلاد إيران وسمّوها باسمهم واختلطوا بالإيرانيين اختلاطاً تاماً حتى صاروا معهم أمّة واحدة وصارت السلطة الإيرانية تعرف باسم بلاد ميدي (مادي) وفارس على ما جاء في التوراة وكتب التاريخ القديم (تاريخ إيران ص: 5).

بالفساد فيها جيلاً كاملاً حتى ألقت الروع في القلوب فأجفل منها الرعايا وأجمعوا أمرهم على أن يهبوا في وجوه الزاحفين مرة واحدة لدفعهم من البلاد وتخليص الآشوريين من براثن الهلاك وذلك لاعتقادهم في هؤلاء رغم استبدادهم أنهم أساة البلاد وحماة الحق المضاع وموئل الرجاء في طرد المغيرين عليهم وانضم إليهم جميع الملوك الذين كانوا تحت لواء آشور وحاربوا معهم جنباً إلى جنب ضد غزاة بابل وسوريا ـ كلدانيين وشماليين ـ ولكن ماذا تجدي عنهم المقاومة والدولة مولية ونجمها آفل فقد عرتها إمارات الضعف والانحلال وأدركها العجز من الغارات الأولى حين دمر الغزاة مدينة آشور القديمة ولما وصلوا إلى نينوى وشدوا عليها شداً عنيفاً سقطت سقوطاً مريعاً[1] وبسقوطها هوت الدولة وبقيت كحلم من الأحلام، وكذلك سيكون مثال غيرها من الدول فإن مصير كل تجمع إلى افتراق وزوال ولا تدوم إلا الباقيات الصالحات من الأعمال.

الامبراطورية الكلدانية

أنشأ الكلدانيون[2] السادة الجدد لبابل امبراطورية عظيمة وهم آخر البطون التي حكمتها من العرب قبل الإسلام بعد هدم الآشوريين فأعادوا بناء المدينة على عهد ملكهم ببوبنصر[3] بعد أن دمرها سنحاريب الآشوري وجعلوها عاصمة لملكهم ودعوا البلاد كلها باسمهم فصارت كلدية، وظل الآريون محتفظين بالبلاد الجبلية الواقعة في الشمال.

---

(1) راجع الكتاب المقدّس سفرناحوم (الإصحاحان 2؛ 3).

(2) فرع من الآراميين اسمهم (كلدو) أي كلدانيون. وهم في جنوب العراق.

(3) بنوفالصر (بنو بلاسر). راجع ص: 50.

وبعد هلك الملك ببو بنصر[1] خلفه ابنه نوبخذ نصر[2] سنة 604 واستمر إلى سنة 561 قبل الميلاد وكانت أيامه موسومة بالقوة والعظمة وهو معدود من أكابر رجال التاريخ في الشرق وكانت مصر يومئذٍ قد استقلت بنفسها فأخذت تحرض من حين إلى حين الولايات الغربية على شق العصا وإيقاد جذوة الفتنة فتثور على الدولة وبسبب ذلك استحقت غضب الملك نبوخذ نصر وعاقبهم عقاباً عسيراً لا سيما القرى اليهودية التي كانت مقحمة بين مواطن الكنعانيين فدمر مساكنهم وخرب هيكلهم الذي بناه الملك سليمان وأجلاهم إلى بابل ولم يفلت منهم إلا من لجأ إلى أرض الحجاز وتوطن مدينة يثرب[3].

وقد كان هم هذه الدولة تعمير مدينة بابل وزخرفتها وتشييد المباني العظيمة التي فاقت بفخامتها وجلالها مباني من سلفهم من الآشوريين ومن أجلّها هياكل الآلهة، والقصر الملكي والجنائن المعلقة على السطوح التي عدها مؤرخو اليونان من عجائب الدنيا السبع، والشارع الكبير الذي يتوسط المدينة من باب عشتروت وتمر منه مواكب الإله مردوخ السنوية وتحيط به من الجانبين دوائر الحكومة وقصور الأمراء وأكابر الدولة.

هذه هي المدينة الغنّاء التي جددها الملك نبوخذ نصر وحصّنها بالقلاع والأسوار الضخمة لتبقى منيعة أبد الدهر من طوارق الحدْثان[4] وقد بهرت بجمالها وغرائبها نظر المؤرخ اليوناني

---

(1) بنو فالصر (بنو بلاسر) راجع ص: 50.

(2) وقيل بختنصر أو بخترشه (بالفارسيّة) كانت مصر هدفاً لمطامعه، فبدأ بمهاجمة دولة اليهود في فلسطين ومدينة صور إلا أنه مات قبل تحقيق مطمعه.

(3) المدينة المنوّرة حاليّاً.

(4) دواهي الدَّهر.

هرودتس[1] حين زارها بعد عصرها بأكثر من قرنين ووصفها بذلك الوصف الرائع الذي يعد من أبدع الأوصاف الفنية بحيث تركها ملء الأسماع والأفواه. وقد وُفّقْتُ إلى مشاهدة أطلالها أثناء إقامتي في العراق وكان ذلك في يوم الخميس 15 ـ إفريل سنة 1926 وإليك صورة لما بقي منها في الذهن الكليل.

وقفنا أمام أطلال القصر من الناحية الشمالية فرأينا على يميننا هيكل الآلهة سن ماخي[2] وهو مبني بالآجر غير المشوي بالنار، وألفينا بين القصر وبين الهيكل باب عشتروت وهو نشز[3] مرتفع عليه أقواس وفوقها صورة بارزة تمثل الإله مردوخ إله بابل الذي يرمزون إليه بصورة ثور وحيوان آخر رمزي. أما باب عشتروت فهو بداية الشارع المقدس إلى معبد مردوخ الكائن في جنوب المدينة على مسافة ميلين. وفي شمال القصر يوجد تمثال أسد من حجر الجرانيت على غاية من الإتقان والمظنون أنه من آثار الحثيين غنمه منهم الكلدانيون في حروبهم فنصبوه في الهيكل علامة على انتصارهم.

وفي جنوبي هيكل سن ماخي ركام من تـراب عالٍ وحسب الوصف التاريخي أنه محل الجنائن السبع المعلقة وفي شمالي الجنائن أطلال القلعة الجنوبية، وهيكل عشتروت.

ولما انحدرنا نحو الجنوب إلى الروابي بعد قطع السهل الملاصق لها صعدنا إلى ربوات أخر واقعة شرقي ضريح الإمام عمران بن علي وفوقها إلى الجنوب توجد بقايا برج بابل وهو بناء مربع في وسطه

(1) Herodote (نحو 484 - 420 ق. م) مؤرخ ورحّالة يوناني. له (تاريخ) هو أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها.
(2) الإله القمر.
(3) جمع نشاز وأنشاز: الأمكنة المرتفعة.

قاعدة يظن أنها كانت مؤلفة من سبع طبقات. وفي شمالي البرج توجد حفرة فيها بقايا الهيكل الأكبر للإله مردوخ وفيها يذكره لنا المهندسون أن هذه القلعة بنيت قبل المسيح باثني عشر ألف سنة كما دلّت عليه الآثار التي وصفتها.

تلك هي المدينة العظيمة التي أجملت لنا وصفها التوراة فقالت كما جاء في سفر التكوين: تبلبلت فيها الألسن[1].

والظاهر أن الكلدانيين أخذوا روح التمدن من بابل كما اقتبسه الأقوام من قبلهم الذين اجتازوا هذا السهل من العرب وغيرهم فازدهت في عهدهم الصناعة والتجارة وتقدمت المعارف والفنون وترقت الآداب والديانة كما تشهد بذلك آثارهم الخالدة المدوّنة على الآجر بالخط الإسفيني القديم.

وكان الكلدانيون مثل غيرهم مولعين بعلم التنجيم وكشف أسرار الغيب ومعرفة الأوفاق[2]. والطوالع ومراقبة حركات الأجرام السماوية. ومن ذلك كان ولعهم بعلم الفلك شديداً وقد نجحوا فيه نجاحاً يذكر، فهم الذين قسموا قبل الخليفة خط الاستواء إلى 360 درجة ورتبوا الكواكب مجاميع اثني عشر وسموا كل مجموع برجاً ودعوها كلها بمنطقة البروج وهي أول خريطة عملية رسمت لأبراج السماء.

وكانوا يتوهمون السيارات الخمس وهي عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري وزُحل المعروفة في ذلك العهد قوات روحانية ذات سلطة فعلية في الكون وتأثير في أحوال البشر فأخذ ذلك عنهم

---

(1) يُقال تبلبلت الألسن في بابل أي اختلطت.

(2) لعلّه يعني أوقات ظهور الأهلة.

اليونان والرومان على العمياء دون روية ولا تمحيص فحسبوها آلهة وعبدوها. وتقدم الكلدانيون في الرصد درجة عظيمة من التدقيق حتى توصلوا إلى الإنباء بالخسوف والكسوف ونقل عنهم اليونان أرصادهم وبنوا عليها ومنهم استرد العرب المسلمون علوم أوائلهم كما تعلّموها عنهم ورفعوا منها ما علق بها من أوهام وأضاليل.

وبعد وفاة الملك نبوخذ نصر سنة 561 قبل الميلاد غشي ببابل من سنة الذهول ما غشي الأمم العظيمة فاستنامت للخمول ولم يبق لتلك الأمة مداها في الحضارة فاستولى عليها الوهن والضعف بسبب إقبال الشعب على التنجيم والسحر والكهانة بعد ذلك النشاط العجيب فكان هزالها نذيراً بزوال السيادة العربية من الواجهة الجنوبية وتغلب الآريين من أصحاب الخط الشمالي عليهم وانقباع العرب في الصحراء لتشحيذ قرائحهم[1] بإلهاماتها النفسية وارتقاب الفرص لإعادة الكرة.

(1) لشحذ قرائحهم أي لتقويتها.

الفصل الثاني

الـدّور الفـارسي

الانقلابات العالمية نتيجة طبيعية لتطور القوميات

تكلمنا (في المقالات السابقة) عن التطورات الاجتماعية التي حدثت في المهاجر العربية المختلفة وما قام به أولئك المهاجرون من الأعمال الخارقة في البلاد التي اعتمروها، وما أنشأوا فيها من مآثر ضاقت عن تعدادها بطون الأسفار من دول ونظم وشرائع وعلوم وفنون وصناعات إلى غير ذلك مما اقتبسته منهم الأمم واتخذته أساساً لإصلاح ممالكها وتقدم شعوبها.

ولا شبهة في أن سقوط هذه التجمعات كان بسبب تعدد الحضارات وعدم التجانس بينها وهي حضارات متأقلمة خالية من روح القوم باعثة على التفكك ولما حاول الآشوريون أن يحفزوها بسطوة ملكهم تداعت إلى الانحلال ثم آل بهم الأمر إلى الضعف والفناء في العناصر الآرية التي كانت خاضعة لهم تدين لهم بالطاعة

لكنها انقلبت عليهم في تلك النهاية الفاجعة.

أصل الميديين والفرس

مما لا ريب فيه أن قبائل الشرق من الهنديين بعد أن تنحت عن مواطنها الأولى في آسيا وجهت وجهتها نحو السهول الخصبة الواقعة شرقي بحر قزوين حيث كانت ترعى مواشيها حوالى سنة 2000 قبل الميلاد. وفي هذه البقاع تسمَّوْا بالآريين، واستطابوا المقام فيها إلى حين وكانوا يدينون بعبادة النار ويذهبون في اعتقادهم إلى أنها أصل الوجود ويطلقون على كهانهم المحبوبين اسم موقدي النيران.

وحوالى سنة 1800 قبل الميلاد افترق هؤلاء الآريون إلى شطرين: شطر شرقي سار نحو الهند فاستعمروه واستعبدُوا سكانه الأصليين وأذلوهم وأطلقوا عليهم اسم المنبوذين[1] وذلك شأن عنصرهم في استعباد الأمم. والشطر الثاني زحف إلى الغرب والجنوب الغربي من الجبال المتاخمة لبلاد العراق وهناك ألقوا عصا التسيار وتسموا بالإيرانيين وكان بينهم فريقان معروفان بالشدة والبأس وهما الميديون (الطورانيون) والفرس وقد قدمنا أن الميديين زحفوا جنوباً من الشمال على نينوى.

وبلاد ميدي هي المعروفة الآن بأذربيجان[2] والعراق العجمي الواقعة جنوباً بين الجبال المحيطة ببحر الخزر وكانت خاضعة لحكم الآشوريين أيام سطوتهم إلى سنة 759 قبل الميلاد.

---

(1) راجع كتابه: «مسألة المنبوذين في الهند».

(2) معناها بالفهلوية: أذر (اسم النار) بايكان (خازن النار).

انقراض الإمبراطورية الآشورية

جلس على سرير الإمبراطورية الإمبراطور سردنفول[1] وكان شاباً وسيماً كسولاً غير مبال بأمر الملك يمضي أيامه ولياليه في السكر والعربدة ومن غريب أطواره أنه كان يتزيًّـا بزيّ النساء ويجالسهن ويساعدهن على أعمالهن فاتفق رئيسان من أكابر قواده من غير العرب على هدم سلطنته والاستيلاء عليها وهما ـ أربسيس، كبير قواد عسكر بلاد ميدي. وهي يومئذ من الولايات الآشورية، وبليزيس قائد جيوش مدينة بابل وما يليها، فأشهرا راية العصيان وجمعا 40000 مقاتل وهجما من فورهما على مدينة نينوى وأصلياه حرباً ضروساً، فلما يئس من السلامة. ولم ير لنفسه وجهاً للهرب خاف أن يؤخذ أسيراً ويصير عبداً ذليلاً لغالبيه فلم يَسَعْه إلا أن جمع خزائن أمواله وما ملكت يداه من الذخائر والنفائس في قصره وأضرم فيه النار تخلصاً من الأسر والعار فاحترق بمن فيه من المحافظين والخدم والحشم والسراري[2] والمحاظي[3] وكان ذلك في سنـة 760 قبل الميلاد.

وهكذا انقرضت مملكـة آشور الأولى واقتسم تـراثها الضخم القائدان الخائنان لدولتهما[4]. وبهذه المؤامرة السافلة التي لم يتوصّلا

(1) سردانابال Sardanapalles ملك خرافي تحدّث عنه الكتبة اليونان واعتبروه آخر ملك آشوري في نينوى.

(2) السرية هي الجارية والأمة (ابن منظور/ 3).

(3) الحظية والمحظية هي السرية المكرمة عند أمير أو ملك (من الحظوة) (ابن منظور/ 1).

(4) أخذ الميديون أعالي الدجلة حتى تُخوم آسيا الصغرى وهو شمال العراق بما فيه الوطن الآشوري القديم. أما بقية الإمبراطورية أي ما بقي من العراق وسوريا وفلسطين والمستعمرات النّائية التي منها مصر فقد ترك أمرها إلى نبوفالصر (نبوبلاسر) بأسرته الكلدانية أو البابلية الجديدة (الساميون ولغاتهم لحسن ظاظا ص 50).

إليها لولا استخدام الجيوش الأجنبية للمحافظة على سيادة الدولة، أمكنهما أن يقضيا عليها.

ظهور مملكة ميدي

ولما خلا الجو لأرباسيس تقلد مملكة ميدي وأعلن نفسه عليها ملكاً مستقلاً واستولى بليزيس على مدينة بابل إلى أن ظهر الملك فول بن سرندفول[1] وجلس على سرير نينوى سنة 759 وكان بطلاً شهماً فاستعاد مؤقتاً مملكة آشور العربية وانتقم من بلزيس الخائن شر انتقام.

وبعد مهلك أربسيس أقام الميديون ملكاً عليهم بعده ديجوسيس[2] وكان حكيماً عاقلاً ولما استقر له الأمر شرع في بناء عاصمة للملك سماها أكبتانا (همدان)[3] وكانت مملكته عبارة عن البلاد الممتدة من بلاد ميدي إلى الخليج العربي من الشمال إلى الجنوب ومن كرمان شرقاً إلى بابل غرباً. وحكم مدة 53 سنة دون أن يقيم حرباً. وكان مهيباً عند الجميع ويقال إن السبب في استقامة أموره أنه كان يعتمد على الجواسيس الذين بثهم في أنحاء المملكة لملاحظة سلوك الرعايا وإخباره عن كل ما يجري في البلاد.

وبعد موته جلس ابنه فروات على العرش[4] فأحدث حروباً عديدة وأخضع لمملكته بلاد فارس وعدة ممالك أخرى في آسيا، ونصب الحصار على نينوى ومع ضعف حَوْلِهَا وقلة أنصارها في ذلك

---

(1) فور بن سراناپال.

(2) ديوسيس (810 - 757 ق.م).

(3) مدينة في إيران جنوب غربي طهران تسميها التوراة (أحمتا).

(4) (757 - 635 ق.م).

الوقت لم يتيسر له الاستيلاء عليها بل إنه قتل أمام أسوارها الحصينة.

وتولّى بعده ابنه كياكاسَار[1] وكان شغوفاً بالحرب وهو أول من شرع في تنظيم الجيوش على ترتيب الوحدات ـ مشاة، وفرسان ورُماة. فبدأ بالهجوم على نينوى للأخذ بثأر أبيه، واستولى على شمال ما بين النهرين واتخذ له مدخلاً إلى آسيا الصغرى، فأخضعها وأضافها إلى مملكته وتقدم إلى نهر هاليس وحارب الليديين واستمرت الحرب بينهما خمسة أيام متوالية ولم يغلب أحدهما على الآخر.

الكسوف يغير مصاير الأقوام

وبينما كان القوم في اليوم السادس في أشدّ القتال إذ انكسفت الشمس وتحول نور النهار إلى ظلام دامس. ولما شاهد الملكان، ملك ميدي، وملك ليديا، هذه الظاهرة المخيفة أمسكا من ساعتهما عن الحرب وعقدا صلحاً سريعاً طلباً للنجاة من غضب الآلهة. ومبالغة في تثبيته، وتأكيد عهد الولاء بين الطرفين أمام الآلهة زوّج ملك ليديا ابنته من الأمير استياج بن الملك كياكاسار، وجعل وزراء الدولتين جراحاً خفيفة في أيديهم وشربوا بالتبادل الدم الذي جرى منهما علانية علامة على الارتباط والتحابب جرياً على تقاليدهم القديمة.

وعقب هذا الصلح اللطيف مات الملك كياكاسار ملك الميديين وخلفه ابنه الملك استياج[2] فزوج ابنته الأميرة مندان بكمبيز[3] ملك

---

(1) اختلف في مدّة حكمه فقيل إلى 584 ق.م وقيل إلى 595 ق.م.
(2) استياجس 585 أو 595 - 560 ق.م.
(3) قمبيز الأوّل Cambyse 1.

فارس وكان تابعاً لمملكته ولم يكن للملك استياج وريث يخلفه في الملك غير ابنته مندان فولد لها من ملك الفرس ولد سمي كورش[1] وكان ولداً نجيباً عاتياً سيقت حياته مساق الخرافات كما هي العادة في حياة الأبطال أمثال كرشنة ورومولوس[2].

حرب التحرير لإنقاذ فارس وانقراض ميدية

ولما عظم شأن كورش بعد أن عاد إلى قصر أبيه احترمه جميع أهل فارس فأخذ يستميل قلوبهم ويستنهض هممهم لقتال الميديين وتحرير بلاد فارس من عبوديتهم ولم يزل دائباً غلى ذلك حتى أجابوه إلى أمنيته وكانوا يشعرون بجور الميديين وظلمهم فانقدح حب الاستقلال في قلوبهم، ولم يعد يثنيهم عن طلابه شيء. وفي أيام يسيرة تدافعت إليه القبائل والطوائف وهو يجمع منهم العساكر حتى ألف جيشاً جراراً سنة 559.

وحين بلغ استياج، جدّ كورش لأمه، خبر استعداده أرسل إليه من قبله رسولاً يدعوه إلى زيارته فأجابه كورش إني سأزورك عن قريب بالأبطال والفرسان ووجوه فارس ولم يلبث أن زحف إليه بجنوده فاقتتل معه قتالاً شديداً[3] وكان مقاتلة الفرس يفوقون الميديين

(1) قورش (Cyrus) اسمه في التواريخ الإيرانية كي خسـرو. واسمه في التـوراة احشويروش (أحش رويروش) ومعناه البطل القدير. دام حكمه حسب الروايات اليونانية (534 - 529 ق. م) وحسب رواية الأفروديين دام حكمه 60 عاماً.

(2) Romulus المؤسس الأسطوري لروما وأوّل ملوكها (735 - 715 ق. م) تقول الأسطورة أنه غذّته ذئبة وهو طفل مع أخيه التوّأم (ديموس) واحتضنه أحد الرعاة فنشأ بطلاً . . .

(3) تحت قيادة وزيره هارباغوس.

بالحماسة لتحرير وطنهم فقاتلوا دون قتال المخلصين لبلادهم إلى أن كسروا أعداءهم وهزموهم شر هزيمة وأسر كورش جده استياج، وبقي في أسره إلى أن مات، فكان كورش ملكاً لفارس وقائداً عاماً لجيوش ميدي وأولى خاله كياكاسار الثاني ملكاً صورياً على ميدي[1] ولكن جميع التدابير كانت إلى كورش ولم تطل ولاية كياكاسار على بابل أكثر من سنتين ثم مات فاغتصب الملك من بعده رجل من وجوه بابل اسمه نابوناديوس[2] وكان كورش يومئذ مشغولاً بحروبه مع ممالك آسيا الوسطى فلما اتصل به خبر المتغلب أسرع إلى بابل ونصب عليها آلة الحصار مدة سنتين فلم يقدر عليها لقوة تحصينها وإحاطتها بأسوار سميكة مرتفعة منيعة وهدمها من أصعب الأمور وماذا تفعل فيها الشجاعة أو المنجنيقات وسورها عرضه خمسون قدماً فلم ير سبيلاً للخلاص من هذه الورطة غير تحويل نهر الفرات عن مجراه وهو يمر من وسط المدينة مخترقاً تحت السور ويقسمها شطرين فاعتمد على هذا التدبير وأمر بفتح ترع[3] وخلجان كبيرة حول المدينة. ولما تمت اختار الوقت المناسب للعمل وإذ دنت الساعة أمر بفتح المنافذ التي بين النهر والترع المفتوحة فتحولت مياه الفرات إليها وصار مجرى النهر أرضاً يابسة فدخلت منه عساكر الفرس وفي مقدمتهم كورش بعضهم من مدخل النهر وبعضهم من مخرجه ووقعوا في أهل المدينة بغتة وفتكوا فيهم فتكا ذريعاً. وبهذه الحيلة استولى كورش على عاصمة الكلدانيين المنيعة ولما لم يكن لخاله ولد يرثه فقد ورث منه مملكتي ميدي وبابل وضمهما إلى فارس وصارت الممالك الثلاثة من ذلك الوقت مملكة واحدة تحت ولاية

---

(1) 560 - 534 ق.م.

(2) نابونيد الملقب بالمهتمّ بالآثار.

(3) الترعة هي الباب.

كورش وأعقابه وانقلبت بذلك سيادة العالم إلى الآريين.

وتسنى لكورش بعد ذلك إخضاع الفرثيين[1] وجميع البلاد الواقعة بين النهرين وأرمينية[2] وسوريا، وبلاد آسيا الصغرى وجانباً عظيماً من بلاد العرب عدا الصحراء مرتع الأسود. وضرب الجزية على جميع مستملكاته. ثم عبر بجيشه الجرار نهريّ دجلة والفرات، وأقام لهم معسكرين في إقليمَي خوزستان[3] والعراق.

وقد أغرت كورش هذه الانتصارات المتوالية فأعلن الحرب سنة 529 على توسرسي ملكة السيتيين (التتار)[4] فقابلته هـذه الملكة الصارمة بجيوشها وكسرت جنود الفرس كسرة هائلة وأسرت كورش ويقال إنها قتلته بابنها الذي صرع في هذه الحرب ولكن مؤرخي اليونان يروون أنه انتحر لما شاهد لأول مرة انهزام جيوشه أمام الأعداء.

ثم قام بعده بالأمر ابنه قمبيز[5] وأول عمل فتح به عهد حكمه إعلان الحرب على مملكة الفراعنة فسير إليهم جنوده وانتصر عليهم ويورد المؤرخون في تعليل هذا الانتصار المزري بكرامة الفراعنة حكاية عجيبة تدل على منتهى ما بلغوا إليه في سخافة الاعتقاد

---

(1) سلالة فارسية قاومت الرومان طويلاً قضى عليها السّاسانيون (226 ق.م).

(2) قيل إنها سمّيت بذلك نسبة إلى أرميا بن لنطا بن أومر بن يافث بن نوح عليه السلام، (معجم البلدان: الحموي 160/1)، وهي تقع بين أنجاد إيران شرقاً والأناضول غرباً وبين بحر قزوين ومسيل الفرات الأعلى.

(3) Kojistan: إقليم في غربي إيران يسمى قديماً سوزيان. من مدنه الأهواز وعبدان.

(4) التتر Les tateres (سكيشيا) اسم شاع عند العرب لقبائل كانت تسكن أواسط آسيا، ويسمّى المغول بهذا الاسم وهو قسم منهم.

(5) قمبيز (كمبيس) الثاني لوهراسب: (529 - 521 ق.م) أكبر أولاد كورش قتل أخاه سمرديس خوفاً من انقضاضه على الحكم.

وذلك أن قمبيز علم أن الفراعنة يؤلهون الكلاب والقطط فأمر الجيش أن يجمع ما يجده منها في تلك النواحي وأن توضع في المقدمة عند الهجوم ولما فعلوا ذلك كان المصريون يتهيّبون من قتالهم خشية أن يصيبوا تلك الحيوانات الإلهية المقدسة! فلبثوا في موقفهم حائرين بينما كان الفرس يتقدمون إليهم رويداً رويداً والكلاب تنبح والقطط تموء حتى احتلوا المدن وتملكوها.

ومن فظائع أعمال قمبيز في مصر إباحته نهب مدينة طيبة عاصمة مملكة مصر العليا المقدسة وهدم حصونها وهياكلها وإحراق نقوشها ونفائسها وبذلك عفا أعظم أثر قدمته المدنية الفرعونية للعالم كما فعل الرومان ذلك بقرطاجنة سنة 146. ولم يشف ذلك غليل قمبيز، بل أمر جيوشه بتشويه جميع العمارات والمعابد وتخريبها حتى تكون مصر عاطلة من كل المحاسن.

ولما تمهدت للفرس السلطة بمصر عزم قمبيز على محاربة قرطاجنة لاستئصال شأفة العرب من الخط الجنوبي فأمر أسطوله بالمسير إلى إفريقيا وكان بحارته من الفنيقيين فأبوا أن يواقعوا إخوانهم وامتنعوا من تنفيذ الأمر الغاشم فخاف من انتكائهم[1] وعدل عن هذا العزم.

ولا شك أن فارس بعد استيلائها على مصر أصبحت إمبراطورية عالمية فهي تمتد شرقاً من بحر السند إلى شطوط الأرخبيل غرباً ومن نهر سيحون شمالاً إلى حدود مصر الغربية جنوباً.

ولم يكن الفرس مع ذلك أمة علم وفنون وإنما كانوا أهل ثرثرة يطربون بالحديث عن ماضيهم ويتقدون حماسة عند ذكره، ويرددون قصص أسلافهم ويبالغون في تصويرها وكانوا لقصور لسانهم

(1) انتقاضهم.

يستعملون في دواوينهم اللغة الآرامية، تقليداً للآشوريين، والأحرف الآرامية في الكتابة الفارسية. وبعد أن تحضروا اخترعوا لأنفسهم 39 حرفاً من الكتابة المسمارية!.

ولما جلس دارا الأكبر[1] على عرش فارس بعد مهلك أبيه سنة 521 لم يكن له هم في زيادة الفتح بل السعي في تنظيم هذه الممالك الواسعة فقبض بنفسه على أزمة الأحكام وقسم البلاد إلى عشرين ولاية وجعل على كل منها عاملاً يدعى مرزبانا[2] يعينهم هو بنفسه وقسم الأراضي الزراعية إلى قطائع شاسعة وهبها للحكام والمؤبذان (الكهنة)[3] وجعل الشعب عمالاً لدى أصحابها.

وحاول في أخريات أيامه أن يجعل الدولة بحرية ذات أساطيل، وأمر بإيصال النيل بالبحر الأحمر بترعة كان حفرها الفراعنة من قبل ثم سدّتها الرواسي فحفرت وجرَتْ فيها السفن من مصر إلى سواحل فارس.

ونظراً لمصانعة[4] دارا ـ وأبيه من قبل ـ للفينيقيين فإنهم مالوا إليه

---

(1) كان كورش وابنه كمبيز يكرهان المجوس وأهل ميدي (أذربيجان) كرهاً شديداً فانتهز الكهنة فرصة غياب كمبيز عن بلاده واتفقوا على تنصيب واحد منهم كان يشبه (سمرديس بن كورش)، زاعمين أنّه هو سمرديس نفسه وأنه لم يقتل من طرف أخيه كمبيز كما أشيع. لكن لم يطل الأمر حتى عرف الفرس أن ملكهم الجديد لا قرابة بينه وبين كورش فتآمروا على خلعه وقتلوه وولوا واحداً منهم يتصل نسبه بملوك الدولة الكيانية وهو دارا أو داريوس هستاسبس الشهير 521 - 486 ق.م. (تاريخ إيران ص: 30).

(2) المرزبان هو الفارس المقدّم على القوم دون الملك وهو معرب من الفارسية وجمعه مرازبة.

(3) الواحد مؤبذ وهو الكاهن.

(4) مداهنتهم ومداراتهم.

ومكنوه من أسطول حربي عظيم جميع سفنه فينيقية صنع الفينيقيين.

ولما تولى بعده ابنه أحشيوروش[1] ألفى تحت أمره أسطولاً ضخماً لا عهد للدول بمثله فاستعمله في نقل الجيوش وحماية الثغور. وأنشأ كثيراً من الطرقات المعبدة تسهيلاً للمواصلات بين أجزاء الممالك الفارسية المترامية الأطراف.

وبعد استقرار الروح الفارسية أخذ الفرس يقتبسون آثار المدنية العربية التي تقدمتهم فأخذوا عن البابليين طريقة بناء السطوح العظيمة التي كانوا يشيدون فوقها قصور ملوكهم كما نقلوا عنهم صناعة النحت، ونقش التماثيل والثيران المجنحة. وعن المصريين تشييد المباني الفخمة، والأروقة القائمة على الأساطين الرخامية وصناعة الآجر المرصّع بالمينا[2].

ولا شك أن ملوك الفرس الذين تعاقبوا على العرش بعد مهلك داريوس لم يكونوا كملوك العرب أتقياء في سرائرهم وإن كانوا قساة أشداء في حروبهم بل كانوا ميالين بطبيعتهم إلى القصف[3] واللهو والبطالة تاركين أعباء الحكم إلى الندماء والمضحكين ومن إليهم من المجان والمستهترين فآل الأمر إلى الفساد والعجز عن إدارة الأعمال وبالتالي إلى الوهن والتقهقر وأظْلَمَ مِنْ ظُلْمهم الشرق بعد أن أضاءت شموسه وأقماره على عهد العرب.

وتحت سيطرة الجنس الهندي الأروبي بقيادة الفرس نقل الأروبيون من بلاد الشرق العربي كل ما حوته من نصيب الحضارة. فقد

---

(1) الذي تذكره المصادر أن زركسيس الأوّل هو الذي تولّى بعد داريوس هستاسبس (486 - 465 ق. م).

(2) الفسيفساء.

(3) القصف والقُصوف الإكثار من الأكل والشرب واللهو (ابن منظور/ 3).

اقتبسوا عنها صناعة البرنز والقصدير الذي كانوا يجلبونه من بريطانيا، والأدوات الحديدية والمعدنية، والغزل، وصنع الأقمشة الصوفية والحريرية والكتانية، والزجاج والورق، وطلاء الخزف والترصيع، واستخراج الأصباغ، ودبغ الجلود، والتطريز، والنحت والبناء والنقش، والتصوير، وسبك الأختام، والتماثيل والكتابة والحساب والشعر والنثر، وطريقة التدوين وتقويم البلدان والسنين، والمباحث الاجتماعية والدين والطب والفلك، والأشربة وصنع العقاقير، وتنظيم الحكومة، وتدريب الجيوش، والتحلي بالجواهر، واستعمال الأفاويه[1] في الطبخ واتخاذ الطيب وما إلى ذلك وهو شيء كثير وكثير جداً.

● وإذا نحن جردنا العصر الفارسي الذي دام زهاء ثلاثة عشر قرناً من خصائص الحضارة العربية التي اصطبغ بها فإننا لا نجده يمتاز بشيء أخرجه للعالم يمكننا أن نستدل به على جدارة الآرية عن العرب بالملك غير وقف سير الإنسانية عن التقدم طيلة تلك القرون.

---

(1) الأفواه تُجمع على أفاويه وهي التوابل (الواحد فوه) (ن.م).

الفصل الثالث

الدور اليوناني

بعد أن تكلمنا عن ظهور الفرس وتهديمهم لكيان الدول العربية ناسب أيضاً أن نتكلم عن اليونان الذين تقدموا لهدم الكيان الفارسي وهما طرفان من الأرومة[1] الآرية ولكل شيء آفة من جنسه فقد قام اليونان بدور عظيم في مسرح السياسة العالمية لم يوفق إليه الفرس ويكفي دلالة على عبقريتهم الأثر الثقافي الذي خلفوه لأمم البحر المتوسط بينما الفرس لم يخلفوا شيئاً غير الدمار والخراب.

يذهب العلماء في تقسيم تاريخ هذه الشرذمة القليلة من الناس قديماً إلى قسمين أحدهما يتضمن الأزمنة المجهولة أي من نشأتها إلى أن هاجموا الفرس في عهد الملك داريوس بن هستاشب سنة 490 قبل الميلاد وهو المعروف بالعصر الخرافي. والثاني يبتدي من عهد حروبها مع الفرس إلى أن رضخت لحكم الرومان وهو عصر التمدن اليوناني.

---

(١) الأرومة والأرم: الأصل. (ابن منظور/ 1).

العصر الخرافي اليوناني

إن مبدأ التاريخ اليوناني غامض كأكثر تواريخ الأمم القديمة تغشاه ظلمة شديدة وممزوج بكثير من الخرافات التي لا يركن إليها العقل، وإن حفل بها الشعر، وكل ما نستطيع أن نستخرجه من عصارته أنهم كانوا قوماً متوحشين يرعون البهائم، ويفلحون الأرض، ويسكنون الكهوف والأكواخ، ويكتسون جلود الخرفان ويقتاتون البقول والجذور، وحين ظهر بينهم فلاسقوس، وعلّمهم أكل البلوط رفعوه مقاماً علياً وجعلوه في مصاف الآلهة ثم عبدوه. واستمروا على سذاجتهم إلى أن وافاهم التيتانيون وهم فريق من الفينيقيين فاختلطوا بهم، وأخرجوهم من وحشيتهم، وعلموهم طرائق معائشهم، ونصيباً من معارفهم فتهذبوا نوعاً. واعتنقوا على أيديهم ديانة الصابئين (عبادة الكواكب) وعبدوا آلهتهم مثل ستورقوس (زحل) وزفس (المشتري) ولم يطل عهد التيتانيين بينهم حتى اعتبروهم آلهة لهم إذ كانوا يقدمون عبادتهم لكل من اشتهر منهم بشيء لا يعرفونه من قبل والعبادة عند القدماء كناية عن طاعة الضعيف للقوي وهو الأصل في تعدد خرافة الآلهة عند جميع الأمم الوثنية التي لم تفْقه أسرار الكون، يونان أو غير يونان.

تأثير الروح العربية في اليونان

أما حديث التيتانيين فإنهم استعمروا بلاد اليونان على التحقيق وأحدثوا بها جملة من المدن صارت فيها بعد ممالك صغيرة منها مدينة بيوم عند خليج ليانتو نحو سنة 2089 قبل الميلاد ومدينة أرغوس سنة 1856 وهم الذين حملوا إليهم طرفاً من التمدن الفينيقي.

وكان التيتانيون كبقية قومهم من العرب يميلون بفطرتهم للحروب

والطعان فانقرضوا سريعاً وتراجع اليونان بانقراضهم إلى حالهم الأولى إلى أن طرقهم زحف ثانٍ من فينيقي صيدا نحو سنة 1700 قبل الميلاد فأحدثوا محاط بحرية لمراكبهم ومراكز لتجارتهم فاستأنفت العمارة حياتها في بلاد اليونان.

ومما ساعد على تقدمهم دخول الرجل المصري سكروبس إلى مواطنهم وذلك في سنة 1556 قبل الميلاد ومعه ثلة من قومه، واستولوا على أراضي إيتكة، وأنشأوا فيها اثني عشر مدينة. عند ذلك أخذ اليونان في التقدم ومن حفاوتهم البالغة به أن زوجه ملكهم ابنته، وبعد هلك الملك خلفه في الحكم فعلّم رعاياه زراعة الكروم والزيتون والحنطة، وسَنّ لهم شرائع الزواج وطقوس الدين والاحتفالات وغير ذلك من النظم والتراتيب الاجتماعية التي لم يكن لهم بها عهد.

وأخذت معارف القوم تتسع بتوارد الفينيقيين ثم شرعوا يقلدونهم في تعاطي الملاحة والتجارة وصناعة بناء السفن فقد أنشأوا لأنفسهم سفائن على شكل سفن الفينيقيين وصاروا ينتقلون عليها بين الشطوط القريبة ويتعرفون بأهاليها فلم يمضِ عليهم غير وقت يسير حتى حازوا شهرة في الملاحة والأسفار البحرية. ثم اخترعوا لمراكبهم الشراعات المربعة فكانوا يسيرون سفنهم بالشراعات والمجاذيف معاً.

وبعد وفاة سكروبس خلفه في الحكم على أثينا رجل اسمه انفكتيون فحمل بقية البلاد الصغيرة على أن يقيموا عهداً فيما بينهم لتبادل المنافع العمومية فأجابوه إلى ذلك وكانت البلاد التي انضمت لهذا العهد ترسل من طرفها نواباً إلى المجلس الذي كان ينعقد في مدينة ترموبوليس[1] مرتين كل سنة ودعي هذا المجلس بالمشورة الأمفيكتونية.

(1) يضرب بها المثل في فظاظة الأخلاق، تحالفت مع الفرس ضد اليونان.

وفي نحو سنة 1550 قبل الميلاد قدم رجل فينيقي يدعى قدموس[1] وبنى قلعة عظيمة سمّاها قادمة في الناحية المسماة بيوتيا[2] وبعد حين بنى حولها مدينة طيبة[3] وقد حمل معه حروف الهجاء وفن الكتابة ولما تعلم ذلك منه اليونان كانوا يكتبون سطراً من اليسار إلى اليمين ثم سطراً من اليمين إلى اليسار وهلم جرا. وبعد انتشار القراءة والكتابة في اليونان انتقلت منها إلى ما يليها من بلاد أروبا.

الخرافات اليونانية

ثم أخذت عقائد اليونان الخرافية[4] تتفرع وتتشعب فقد كانوا يعبدون عدداً كثيراً من الآلهة بين ذكور وإناث قالوا عنهمْ إنهم يلدون ويولدون ونسبوا إليهم السلطان على الأحوال الأرضية ووصفوهم بجميع الأوصاف البشرية ومزاياها إلا قبول الموت والفناء فقد ذهبوا إلى القول بخلودهم. وكانوا إذا اشتهر أحد من الناس بصفة حميدة أو ذميمة أو بأعمال غريبة من أي نوع كانت قدموا له احتراماً دينياً وجعلوه نصف إله وقلدوا ذلك بعض الفحول من البشر زعموا أنهم ولدوا من إله وبشر معاً.

ويذهبون في اعتقادهم إلى القول بأن أقدم الآلهة هو سيرور

---

(1) Cadmus: هو نجار فينيقي قيل إنه ابن آشور ملك فينيقيا يُعتقد أنه اخترع الأبجدية. والذي تذهب إليه أغلب المصادر أنه شخصية خرافية، وأن الأبجدية ليست من صنع شخص واحد.

(انظر تاريخ العالم: ق. م. هيلر. ترجمة إبراهيم ميخائيل عودة. ص 75 - 76).

(2) بيوتيا Beotie: مقاطعة في اليونان الوسطى.

(3) ثيبة أو ثيبس Thèbes اسمها الحالي ثيفا (وذلك ق 15 ق. م).

(4) من المثيولوجيا اليونانية أن (تيريه) هو من الشجعان اليونانيين المشهورين وهو ابن (أجيه) ملك أثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصف آدمي ونصف ثور.

(الفلك) وقالوا عنه إنه كان له ولدان أحدهما اسمه ساتورنوس فتزوج شقيقته أوبيس وهي تسمت جدة لأنها ولدت أكثر الآلهة. والابن الثاني اسمه تيتان وهو البكر فأعطى الملك لأخيه ساتورنوس على شرط أن يأكل جميع أولاده الذكور لكي يرجع الملك إلى نسل تيتان ففعل ذلك حتى ولدت امرأته جوبيتر (المشتري) وأخته يونون وأخاه نبتون فأخفتهم ولم يأكلهم والدهم. ومن ثم تغلب جوبتير على أبيه وسلب الملك من يده وطرده، ثم قسم الملك بينه وبين أخويه فأخذ لنفسه القسم العلوي المعبر عنه بالسماء وأعطى سلطان البحار والمياه إلى أخيه نبتون وسلطنة القسم السفلي (جهنم) لأخيه بلوتون. ثم دعا نفسه إله الآلهة والبشر. وعَدَى هؤلاء فهناك آلهة للجبال والسهول والحدود، وآلهة للزراعة والثمار والخمر، وآلهة للحرب والصلح والرياح والعوصف، وآلهة للصناعات والفنون، وآلهة للنكاح والزنا والحب والبغض، وآلهة للشعر والجمال والموسيقى.

وللتأليه كما قدمنا أسباب قد تكون تافهة جداً. فقد ألّه القوم أبولون لقتله ثعباناً كبيراً وألّهوا هركول[1] لقتلة سبعا هائلاً في الغاض.

عصر الإصلاح في اليونان

ابتدأ عصر الإصلاح في أثينا حول سنة 750 بقيام رئيس الأراكنة[2] (الجمهورية) بتنظيم الشرائع والقوانين، وكانت غير مستوفاة، ووضع عقوبات صارمة على المخالفات. فقد جعل القتل

(1) هرقل أو هرقول اليوناني هو كما في المثيولوجيا اليونانية ابن جوبيتير كبير الآلهة من زوجه ألكمين وهو أعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون الأفاعي والضواري والتنانين العظيمة.

(2) الأركون هو الرئيس والمقدم والمعظم (يونانية).

عقاباً لكل ذنب. ونظراً لقساوة هذه الأحكام قيل إنها كتبت بالدم، ولكنها لم يطل عهدها حتى أهملت بالمرة.

وفي سنة 594 قام رئيس الأراكنة سولون[1] الحكيم، المشهور فوضع للدولة نظاماً جديداً وقوانين عادلة مناسبة لروح ذلك العصر وأحوال البلاد. فأبقى أثينا جمهورية كما كانت من قبل وجعل القوة بيد الأمة حتى تكون جمهورية ديموقراطية، وأبقى وظيفة الأركونت الذي ينتخب سنوياً. إلا أن الأوامر المهمة تعرض على مجلس سناتو مؤلف من 400 عضو ثم تعرض على مجلس الأمة المركب من 20 عضواً. وجعل المحاكم تتألف من أعضاء تولوا المناصب الرفيعة في الجمهورية ووظيفتهم مراقبة الدين والتربية العمومية، وكان هذا المجلس مرموقاً بعين الاحترام في نظر الشعب.

وقسم سولون الأمة إلى أربع طبقات حسب الثروة جعل لكل طبقة نصيباً معيناً في تنظيم الجيش، وعين لها أيضاً صفها في القتال ونصيبها من الضرائب. فمتى كانت الفوائد التي تنالها مناسبة للثروة تكون وظائفها بتلك النسبة. وكان القضاة لا ينتخبون إلا من الطبقة الغنية إلا أن الأمة كانت مع ذلك هي صاحبة النفوذ في الانتخاب والمراقبة على القضاة. أما الأرقاء فكانت حالهم سيئة جداً. وكان يمكن للأغراب التمتع بمطلق الحرية ويمكنهم أن يدخلوا ضمن الرعوية الأثينية وكانت المواريث تقسم على التسوية بين الأولاد. وكان من وظائف المجلس العالي التحقق من كيفية معيشة كل أثيني. وكان يعاقب كل من لا يتعاطى عملاً. ولم يكن الأولاد تربيهم الحكومة كما كان ذلك جارياً في إسبارطة بل يربّون بمعرفة عائلاتهم. وليس

(1) Solon (640 ـ نحو 550 م) مشترع أثيني وأحد حكماء اليونان السبعة. سن لبلاده قوانين تحررية.

للحكومة حق في طلبهم إلا متى بلغ سن الولد السادسة عشرة ثم يؤخذ إلى المدارس العمومية ليتربى تربية عسكرية. وقد خدم سولون بهذه القوانين الأمة بتكوين الوحدة العائلية وتحقيق الحرية الشخصية والتشجيع على العمل.

واهتم سولون بتوسيع أعمال التجارة وترقية الصنائع وتكثيرها ونشر الفنون وحرض الناس على العفة وحسن السلوك ومنع البذاء في القول وفحش الكلام، وكل ما يخل بالآداب العامة ومن خالف ذلك عوقب بصرامة شديدة.

قوانين إسبارطة[1]

لما ذكرنا قوانين أثينا لا بأس أن نردفها بقوانين إسبارطة حتى نقف على عناية هذه الأمة باستكمال نهضتها وكيف استطاعت مع ضآلة عددها وصغر مساحتها أن تضع قبضتها على ناصية العالم في حقبة من الزمن.

فقد سنّ لكورغ، ملك إسبارطة بعد أن زاول ثقافته وعلومه في مصر عاصمة حضارة الشرق في ذلك العهد، نظاماً جديداً لشعبه لما دعاه إلى العرش سنة 884 قبل الميلاد أبقى فيه سيادة الحكومة بين ملكين كما كانت في السابق إلا أنه لم يجعل لها خصائص غير قيادة الجيش وفيما عدا ذلك جعلها حكومة جمهورية حقيقية وأحدث لها مجلس شيوخ مركباً من 28 عضواً وجعل بإزائه مجلساً للعموم وجعل لهما قوة التصرف دون غيرهما وعين مراقبين لأعمال الملوك. وترك نظام الطبقات على حاله وهو يقسمها إلى ثلاث وهي الدوريون

---

(1) زاحمت أثينا على السيادة وتغلّبت عليها في حرب البيلوبونيز (404 ق. م). ذات نظام رياضي عسكري.

والأقونيون والهيلوت. ووزع أحسن الأراضي على التسعة آلاف الإسبارطيين وما بقي منها فرقه على الآقونيين البالغ عددهم 30,000 وكلف الآقونيين والهيلوت بزراعة أراضي الإسبارطيين الذين لا يجوز لهم الاشتغال بشيء غير القنص والتمرن على الحرب ليبقوا دائماً وأبداً على قدم الاستعداد للدفاع والهجوم.

ومن جملة شرائعه تكليف الإسبارطيين بأن يأكلوا سوية لاستمرار الالفة دائماً بينهم بشرط أن يكون أكلهم من لحوم واحدة مرتبة كمية وكيفاً. وحجر عليهم تعاطي التجارة وتداول النقود الذهبية والفضية ولم يرخص لهم إلا باستعمال نقود حديدية ذات قطع كبيرة الحجم قليلة القيمة حتى أن من يقبض مبلغاً صغيراً يحتاج في حمله إلى عربة وحظر على الغرباء إطالة المكوث بإسبارطة مخافة إفساد أخلاق السكان بِحملهم على التنعم والترف. وأقام الحكومة مقام العائلة في التربية وكانوا يلقون الطفل الضعيف المشوّه الخلقة حياً في أخدود يسمى (سبادا) والأطفال الأصحاء التّامّو الخلقة يربونهم تربية واحدة عمومية ويدربونهم على الأعمال الصعبة فكان رئيس كل طائفة منهم يقودها في القتال. وفي زمن السلم يستخدمونهم كأرقاء في تحضير الأغذية.

وأغرب ما عرف في تربيتهم أنهم كانوا يمرنونهم على السرقة ليعلموهم الحيل والمكر والخديعة. فكانوا يطلقونهم على البساتين وأمكنة الغذاء العمومية ليسرقوا منها ما يحتاجونه بحيث لو قبض عليهم أثناء السرقة كانوا يجلدونهم جلداً مبرحاً على إهمالهم وتغفلهم وقلّة مهارتهم في الخلاص من الورطة.

ومما يروى عنهم في ذلك أن طفلاً سرق ثعلباً صغيراً وأخفاه تحت ملابسه فأخذ الثعلب يُمزق بأظافره وأسنانه لحم بطنه ولم يظهر الطفل

أقل فزع أو تألم مما أصابه مفضلاً النجاة بغنيمته على أن يظهر أمره وينكشف سره.

ومن تقاليد الإسبارطيين في تربية الأولاد على الخشونة والصلابة النوم على الأرض والعدو والقفز والتدرب على القتال وتحمل المشاق والآلام. ومن قوانينهم الصارمة تحريم الهزيمة أمام العدو مهما كان عدده أو عدته وبذلك صار الإسبارطيون أشجع جنود عرفهم التاريخ.

ومما يؤثر عنهم في ذلك أن إسبارطياً أراد الذهاب إلى الحرب وكان به رمد فقيل له أين تذهب وبك هذا الوجع فقال إن لم أتمكن من فعل شيء فإني أثلم بقتلي سيفَ أحد الأعداء.

ولم تكن النساء الإسبارطيات أقل شجاعة وهمة من الرجال. ومما يروى عنهن، وهو من عيون الأدب العالي، إن امرأة إسبارطية بلغها موت ابنها في الحرب فقالت بلا جزع ما كنت أنتظر منه حيث ذهب لقتال الأعداء إلا أن يقتل أو يقتل، وأحسن لدي أن أعلم أنه مات موتة شريفة تليق بوطنه وجدوده من أن أراه عائشاً نذلاً.

ويروى عن أخرى أنها أعطت لولدها درقته[1] عند مسيره إلى الحرب وقالت له إرجع بها أو محمولاً عليها.

وقالت واحدة لولدها سمعته يشكو قصر سيفه، لا بأس تقدم أنت خطوة إلى الأمام فإنك تصيب عدوك.

ولا شك أن أمثال هذه القوانين وتلك الأساليب في التربية تبعث في النفس قوة وفي العزيمة نشاطاً وتزيد في الشباب صلابة يعتز

(1) ترسه الجلديّ والجمع دَرَق.

بها الوطن وما أجدر هذا الدرس بأن يكون أدباً للأقوام المخنثة الذين أفناهم الترهل[1] وقتلهم الجبن حتى يكون فيهم بمثابة لقاح انبعاث لإحياء قلوبهم.

أثر التربية الصالحة في الأقوام

لما نشبت الحرب الأولى بين الفرس واليونان سنة 492 لم تنهض إسبارطة الجبارة لمساعدة أختها أثينا لعوائق داخلية حالت دون ذلك لكنها أنجدتها بألفي مقاتل حضروا المعركة في اليوم الثاني وأبلوا فيها بلاءً حسناً لكنها في سنة 480 لما تقدم الامبراطور أكسرسيس ملك الفرس[2] بجيشه اللجب[3] وأساطيله الكثيرة العدد البالغة 2200 سفينة تقدمت في كبرياء لإنجاد اليونان. ولما وصل ملك الفرس بجيشه الكثيف إلى مضيق الترموبيل[4] الحصين وكانت حراسته موكولة إلى ليونيداس ملك إسبارطة ومعه نحو 4000 مقاتل لا غير فحرقه الفرس وهجموا عليه فردهم عن المضيق رداً عنيفاً إلى أن هزمهم على الأعقاب. غير أن ليونيداس رآهم يعيدون عليه الكرة من خلف بعد عبورهم المضيق من طريق دلهم عليه أحد الفلاحين فصرف معظم عساكره وبقي في 300 إسبرطي[5] يراصد بهم ذلك الجيش بقوة وحمية وحسب أكسرسيس أنه تمكن منه فأرسل إليه يدعوه لتسليم سلاحه فرد عليه تقدم وخذه... ! وكانت السهام في تلك الأثناء تتساقط عليه إذ بلغت حد الكثرة وحجبت عنه ضوء

(1) الرخاوة.
(2) كانت تضرب به الأمثال لبسالته وشجاعته.
(3) جيش لجب أي ذو جلبة وكثرة (ابن منظور/ 3).
(4) واقع في شمالي بلاد اليونان.
(5) وقيل ألف مُقاتل.

الشمس فلاحظ له ذلك أحد جنوده. فقال لا بأس إذن فلنقاتل في الظلام. ثم استمر يقاتل حتى أثخنه[1] الأعداء وسقط أمامهم شهيد الشجاعة والبسالة وقتل من كانوا معه عن آخرهم ولم يفر منهم أحد لأن قانون لكورغ لا يبيح لأحد الفرار أمام الأعداء. لكنهم لم يصرعوا حتى قتلوا من الفرس 20000 مقاتل.

وبعد هذه الموقعة العظيمة تقدم أكسرسيس إلى أثينا ولم يكن بها أحد لخوف السكان من الفتك بهم والتجائهم إلى السفن[2] وكانت الأساطيل اليونانية راسية بخليج سلامين[3] بمكان مناسب للحرب وكانت سفن اليونان لا تزيد عن 400 سفينة بينما الأسطول الفارسي يبلغ 2200 فقد انتصر عليهم اليونان انتصاراً مهولاً دون أن يفقدوا في هذه المعركة العظيمة سوى أربعين سفينة مع أن تلفات الفرس بلغت أكثر من 200 سفينة. ولما رأى أكسرسيس انكسار سفنه فرّ من الموقعة. وقد بلغه أن اليونان يريدون قطع الطريق عنه بإحراق الجسر الممدود على الدردنيل. وترك 300000 عسكري خلفه بقيادة مردونيوس لمداومة الحرب مع اليونان، فاجتمعت جيوش أثينا وسبارطة وكان عددها نحو 60000 مقاتل تحت قيادة بوزنياس[4] الإسبارطي وارستيد الأثيني. وحين التقى الجيشان انكسر الفرس انكساراً فظيعاً وقتل مردفيوس وتشتت شمل الباقين[5] وبفضل بسالة اليونان والإسبارطيين نجت بلادهم من استعباد الفرس.

---

(1) بالغوا وغلظوا في قتله.

(2) بإشارة زعيم اليونان ورئيس حكومة أثينا وقتئذٍ هو ثمسوكلس.

(3) على مقربة من مدينة أثينا.

(4) لعلّه: يُوربيادس.

(5) كان ذلك في ساحة بلاتيا سنة 479 ق. م.

أما الملك اكسرسيس فقد لجأ إلى سفينة فارسية ورجع منهزماً إلى أرض فارس ولما وصل إلى بلاده اغتاله أرطبانسيس[1] رئيس حرسه طمعاً في الملك وكان ذلك في سنة 470.

وبعد هذه الكارثة العظيمة أخذت الدولة الفارسية الأولى في التقهقر والاضمحلال سنة الله في الأمم الظالمة وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

تحرير اليونان من الاستيلاء الفارسي

قلنا فيما مضى أن الميديين لما استولوا على آسيا الصغرى وضعوا أيديهم على مقاطعات يونانية وهي: كارية. وأيونية، وأيولية وضموها إلى ممالكهم، ولما انتصر كورش على كروسيوس دخلت ليديا بطبيعة الحال تحت الراية الفارسية.

وكان استيلاء الدول في تلك العصور استيلاءً عسكرياً بحتاً. فإذا أُضعف الجيش سقطت الدولة. وكذلك إذا استطاع المغلوبون أن يجندوا جيوشاً يحاربون بها المتغلبين على بلادهم فإنهم يقهرونهم ويتخلصون من إرهاقهم، وربما تسلطوا عليهم وأدالوا منهم. ولذلك كانت الدولة مؤسسة غير ثابتة يتولاها كل من يستطيع أن يجند الجنود ويحسن تدريبهم على الكفاح لا فرق في ذلك بين الأمم الصغيرة والكبيرة.

لذلك لا يدهشنا أن نرى فريقاً صغيراً من اليونانيين وهم أهالي أيونية يهبون في وجه دارا الأول بن هستاشب لخلع النير الفارسي عن أعناقهم فقد أرسلوا إلى إخوانهم في أثينا وجزر الأرخبيل يستنجدونهم

---

(1) أرنطبانوس قتله مع ابنه فخلفه في الملك ابنه الأصغر (ارتكزركسبيس) واسمه في التواريخ الإيرانية أردشير بهمان ابن اسفنديار.

على محاربة الفرس وهم سادات المشرق وهؤلاء لم يتريثوا في نجدتهم بل أمدّوهم بخمس وعشرين سفينة، وعدد من الجنود. ولما وافتهم هذه النجدة تقدموا إلى مواجهة المواني البحرية وحاصروا مدينة سرديس التي كانت مقر الولاة الفرس فأحرقوها بقيادة ملتيادس[1] وكان ذلك في سنة 490 قبل الميلاد.

ولما اتصل خبر هذا العصيان بدارا صمد إليهم بجيش مؤلف من 110,000 مقاتل و 600 سفينة حربية بقيادة داتيس وارتفرن فشتت شمل اليونانيين العصاة وألجاهم إلى المراكب طلباً للنجاة بعد أن هلك منهم نحو 7000 جندي.

ولكن هذه الكسرة الشنيعة لم تخمد جذوة اليونانيين الساعين في تحرير وطنهم بل رأينا أثينا تجهز أسطولاً عظيماً، ملأته بالجنود، وتسيره لمواقعة الفرس في جزر الأرخبيل[2] بقيادة ملتيادس فناجز الأعداء واستخلص من أيديهم أغلب تلك الجزر ولم تعصوصب[3] عليهم إلاّ جزيرة باروس. ثم رأينا هذا الأسطول الصغير يعود إلى موطنه ظافراً منصوراً. وقد رأينا الشعب الطموح يستقبل الظافرين بالنقمة والجحود لعدم توفقهم في إنقاذ الجزيرة المذكورة ويتهمون قائده بالخيانة العظمى فمات المسكين حتف أنفه مكموداً.

شق على دارا، سيد الشرق، أن تنال من عظمة جيوشه تلك الشراذم الجريئة فعزم على غزو بلادهم واكتساح مدنهم وكان من تقاليد السياسة في ذلك العصر أن ترسل الدولة إنذاراً إلى الخارجين

---

(1) Miltiades ملك تراقيا. حاول استمالة كليومينيس ملك إسبارطة لمحاربة داريوس لكنه لم يُفلح.

(2) Archipel مجموعة جزر في بحر إيجة (دوديكانيز، سبوراد - سيكلاد).

(3) لم تمتنع.

عنها على أيدي رسل تأمرهم فيها بالطاعة وتحذرهم من عواقب الإصرار على العصيان. وعملاً بتلك التقاليد بعث دارا وفداً إلى أثينا وإسبارطة يطلب منهما تقديم علامات الخضوع، وهي أن يرسلوا من قبلهم تراباً وماءً[1]، فتلقاهم اليونان بالاستهزاء والسخرية، ورموا البعض من أعضاء الوفد في بئر والبعض الآخر في بلوعة (مسكوكة) قائلين لهم خذوا منها ما شئتم!!!.

وقد يتعجب الإنسان من هذا الكبرياء اليوناني مع ضعف عددهم وصغر ممالكهم بالنسبة لتعداد سكان المملكة الفارسية وضخامة الدولة وقوة بطشها. ولكن لا عجب في ذلك متى علمنا أن مراد اليونانيين تحرير ممالكهم وهو مطلب يعلو عن كل المخاوف التي تخامر قلوب المستضعفين.

وحين بلغ دارا ما حلّ برسله في أثينا وإسبارطة غضب عليهما غضباً شديداً وصمم على إفنائهم ومحاربتهم براً وبحراً فسير عليهم عمارة بحرية مؤلفة من 300 سفينة بقيادة صهره[2] القائد مردنيوس فحاربتها الطبيعة بأنوائها الشديدة فأغرقتها أمام جبال أثوس. وأما الجيوش البرية فقد سارت من عدوة آسيا واستولت على مقدونية ولما تقدمت في طريقها إلى إسبارطة وأثينا كفاهما البريجيون المؤونة فهاجموهم وكسروهم واضطروهم إلى الرجوع على الأعقاب.

ولما رأى اليونانيون أن أعداءهم لم يصلوا إليهم فضلوا أن يذهبوا إليهم بأنفسهم فتجهزوا لهم في عمارة بحرية وقصدوا الجزائر التي

---

(1) دلالة على أنهم سيعطونه أراضيهم ويصبحون من رعاياه بدون حرب وقد خافت مدن يونانية كثيرة فأرسلت من مائها وترابها إلا أثينا وسبارطة فقد رفضتا ذلك بشدّة (تاريخ العالم: ق. م. هيلر ص: 124).

(2) زوج ابنته (ن. م).

كانوا استردوها منهم ونازلوهم فيها حتى استخلصوها جميعاً ولم تتعسر عليهم إلّا جزيرة باروس لحصانة موقعها فارتدوا عنها إلى حين ثم انقلبوا إلى مواطنهم يتجهزون لإعادة الكرة وهم قانعون بالفوز على أعدائهم في المستقبل وقرروا أن حروبهم الآتية ستكون في الأغلب بحرية فأخذوا يهتمون بإنشاء الأساطيل وتحصين الثغور[1] وحشد المقاتلين. وفي تلك الأثناء هلك دارا وخلفه ابنه أكسرسيس الأول[2] فعزم على الانتقام من اليونان تحقيقاً لعزم أبيه فأخذ في الاستعداد لذلك مدة أربع سنين وجهز عمارة بحرية بلغ عدد سفنها كما تقدم 2200 سفينة وأعد جيشاً ينيف عن المليون فسار في طريقه دون أن يلاقي معارضاً إلى أن قرب من.أثينا فعزم أهلها مع حلفائهم الإسبارطيين على مصاولة الفرس إلى النهاية وهناك حصلت بينهم الوقائع الهائلة التي ذكرناها في النبذة السابقة.

ولم يكد يتم الفوز لليونان في هذه الموقعة[3] حتى شرعوا في إيقاظ أهل أيونيا وتحريضهم على طرح نير الفرس عن رقابهم، ووعدوهم بالإعانة، ثم تقدموا إلى جزيرة قبرس وخلصوها ثم انتقلوا إلى مدينة بزنتيوم (القسطنطينية) وانتهبوها ثم عادوا إلى بلادهم بغنائم كثيرة فعمروا بها أثينا وحصنوها، وزينوها بالمباني الفاخرة والمسارح الجميلة، ووسعوا ميناءها.وصيروها بذلك من أعظم المدائن العصرية.

ومن ذلك الوقت طار صيت أثينا بهمة رجالها وصار سكان الجزائر اليونانية ومستعمرات الفرس يمدون أيديهم إليها ويطلبون محالفتها

(1) الأماكن التي يخاف هجوم العدوّ منها.

(2) زركسيس Zerxes ابن داريوس هستاسيس.

(3) في سهل ماراتون قرب أثينا.

وقد بلغت من التقدم شأواً بعيداً. ولما تقلد أمورها سيمون بن ملتيادس وكانت المنازعات قد تفشت فيها بسبب الطغيان والشفوف فلم يجد لدائها علاجاً أنجع من إعلان الحرب على الفرس فحاربهم في جملة وقائع وانتصر عليهم انتصارات عظيمة غيَّرت وجه التاريخ.

وثيقة تحرير اليونان من الدولة الفارسية

لما أدرك الإمبراطور أكسرسيس أن مملكته أنهكتها الحروب الكثيرة التي اصطدمت فيها مع اليونان اضطر أن يدعوهم إلى عقد الصلح فأجابه سيمون إلى ذلك طبق الشروط الثلاثة التالية:

أولاً: أن يرفع يده عن جميع ممالك اليونان في آسيا الصغرى وأن تكون مستقلة بذاتيتها.

ثانياً: أن يمنع سفنه من اجتياز بحارهم.

ثالثاً: لا تتخطى العساكر الفارسية مسافة ثلاثة أميال من حدود المنازل اليونانية.

فقبلها الإمبراطور ووقع عليها وكان ذلك بداية عهد تحرير الروم من الربقة الفارسية. ولم تطل حياة هذا الحاكم عقب إبرام الصلح وتولى مكانه بركليس[1] وبقي في الحكم مدة عشرين سنة وكان اهتمامه منصرفاً لتحصين المدينة وتزيينها وبلغ سكانها في عهده إلى منزلة عالية في إتقان الصنائع والفنون والبناء والنقش والتصوير والزخارف وغير ذلك مما كانوا أخذوه عن الفينيقيين.

وكانت أثينا في ذلك العهد كما هو الواقع مدرسة للعلماء وقد

---

(1) Pericles: لم يكن لا ملكاً ولا حاكماً إلّا أنه كان حكيماً جداً وخطيباً وقد استطاع التأثير في شعبه الذي صار يقتدي به في كل شيء.

أطلق عليها مهد العلوم والفلسفة. كل ذلك بفضل مجهودات بركليس وإصلاحاته فقد كان سياسياً محنكاً ويعد من الخطباء المفوهين ومن فرائد آثاره في أثينا هيكل منيرفا وهو مشيد من المرمر الأبيض محاط بالأساطين[1] الضخمة تتخلله أجمل النقوش لم تزل أطلاله باقية إلى يومنا هذا وقد شاهدتها غير مرة في زياراتي إلى أثينا وهي تستوقف الأنظار وتحير الألباب.

وفي أخريات عهد هذا الرئيس حدث شقاق بين أثينا وإسبارطة آل بهما في النهاية إلى حرب دامت مع ما تخللها من الهدنات نحو ثلاثين سنة وتسمى حروب المورة[2] كان السبب فيها أنه وقعت حرب بين ولاية كرنثوس وجزيرة كورفو فحرض بركليس حكومة أثينا على مساعدة أهل كورفو[3]. فرأت إسبارطة أن في ذلك تعدياً على الحقوق ونكثاً للعهود المقطوعة بين ممالك اليونان والحقيقة أن إسبارطة كانت تنظر إلى نجاح أثينا بعين الحسد وهي تترقب الفرص السانحة لإذلالها. فطلبت إليها نفي أسرة بركليس ولما رفضت طلبها شبت بينهما نيران الحرب وكان ذلك في سنة 431 ودامت إلى سنة 404 وأخيراً ألقت أثينا سلاحها أمام إسبارطة لقاء شروط: منها ـ أن يهدم الأثينيون حصن فرضة بيره وأن لا يأخذوا من أسطولهم أكثر من اثنتي عشرة سفينة وأن يتركوا الثغور التي تغلبوا عليها في السابق وأن يعيدوا المنفيين إلى مواطنهم وأن لا يشهروا حرباً على أحد في المستقبل إلَّا بعد موافقة إسبارطة.

---

(1) الأساطين والأساطنة هي الأعمدة (الواحدة أسطوانة).

(2) نسبة إلى شبه جزيرة في جنوبي بلاد اليونان تدعى (المورة) Morèe كما تسمى هذه الحروب بالحروب البيلوبونيسية نسبة إلى القسم اليوناني الذي تقع فيه إسبارطة يدعى (بيلوبونيس).

(3) Corfou إحدى الجزر اليونانية الأيونية، تقع في طرف الساحل اليوناني الغربي.

وبمقتضى هذه المعاهدة استولى الإسبارطيون على أثينا وكذلك على بقية المدن التابعة لها وألغوا نظامات سولون الفيلسوف[1] ونصبوا عليها ثلاثين شخصاً من المخلصين للإسبارطيين وهم الذين يعرفون في التاريخ اليوناني بالطغاة الثلاثين ومن فظائعهم إصدار الأوامر بقتل أكثر من ١٥٠٠ نسمة بلا محاكمة وكذلك اقتسام أموال الشعب فيما بينهم إلى غير ذلك مما كانوا يرتكبونه من المظالم الشنيعة.

فلسفة سقراط الإلهية ونكبته

وبالرغم من هذا العصر المظلم فقد نبغ فيه سقراط[2] وهو من أشهر فلاسفة اليونان وكانت دعامة فلسفته الإيمان بالتوحيد وإنكار التعدد والقول بخلود الروح وكان في حياته رجلًا تقياً ورعاً فتشكى منه أهل أثينا وقالوا عنه إنه يفسد عقول العامة بتعاليمه المخالفة للعقائد القومية فحكم عليه بالموت وذلك بأن يتجرع كأساً من عصير السيكران فشربه ومات وأبى أن يرجع عن رأيه بعد أن ترك لقومه فلسفة الإيمان بواجب الوجود لكنه لم يكتب عنها شيئاً وإنما كتبت بعده بقلم تلميذه أفلاطون[3] المعروف بالإلهي. وكان مقتله من أفظع المظالم التي ارتكبت باسم العدل في مصادرة حرية الاعتقادات.

---

(1) التي وضعها سنة 594 ق. م. وهي في الحقيقة تبسّط في تشريعات (داركون) من قبله.

(2) فيلسوف يوناني عاش بين سنتي 469 - 399 ق. م. جعل محور الفلسفة معرفة الإنسان ذاته ـ حارب السفسطة وانتقد الحكم ـ كان يطوف المدينة معلماً الناس الحكمة والعدل عن طريق طرح الأسئلة ومنذ ذلك الحين عرفت هذه الطريقة بالطريقة السقراطية. كان لا يؤمن بكل آلهة اليونان مثل جوبتير وفينوس وغيرهما. حكم عليه بالموت.

(3) ولد في أثينا سنة 427 ق. م.

ثورة أثينا لإسقاط الأراخنة الثلاثين

ولما طغت مظالم الأراخين الثلاثين المذكورين وأفحشوا في الاعتداء صرخ أهالي أثينا من عتوّهم وقام من بينهم البطل تراسيبول وحملته الأنفة لقومه على المسير إلى طيبة وجند فيها بعض مواطنيه الذين تبعوه ثم خرج بهم وهجم على أثينا فخلصها من حكم أولئك الأراخين الأشقياء أعداء قومهم ثم أخذ في لم الشعث وإعادة الأمن إلى نصابه وأصدر أمراً بإعلان العفو العام عن المذنبين وقد تكللت مساعيه بالنجاح وأحبه مواطنوه حباً شديداً لأنه خلصهم من ظلم مرهق دون تشف ولا انتقام.

إتفاق اليونان مع الفرس على الانتقام من إسبارطة

لم تفتأ عين الفرس عن مراقبة الأحداث التي تمر باليونان ولما حدث ما حدث من الشغب بين أثينا وإسبارطة انتهزت الفرصة للتدخل فأوعزت إلى أثينا وطيبة وكورينتة وأرغوس أن يبرموا اتحاداً ضدَّ إسبارطة فتعاقدوا على ذلك ولما علم بذلك ليساندر[1] ملك اسبارطة وكان في طريقه لمناجزة فارس عاد أدراجه ومات قبل وصوله. فتولى بعده جيسيلاس فوجد البلاد على جرف الدمار والتقى بجنود المتحالفين قرب مدينة قورونة سنة 494 ولما احتربوا انتصر عليهم ووقف تقدمهم وحفظ اسبارطة من غائلة السقوط وعادت إليها المدن التي خرجت عنها.

غير أن كانون رئيس جيش الأثينيين تقدم إلى تخريب إقليم لاكونية ثم عطف على تدعيم أسوار أثينا وحصنها بما قدمه له الفرس من

(1) اشتهر في حرب البيلوبونيز. قتل سنة 395 ق. م.

الأموال فلما أحس بذلك الإسبارطيون داخلهم الخوف والرعب من الاثينيين وكانوا قبل ذلك لا يخشون بأسهم لذلك فكروا أن الأجدر بهم أن يتقدموا لمطالبة الفرس بالصلح فعاقدوهم على ميثاق من أهم بنوده تنازل الإسبارطيين للفرس عن المستعمرات اليونانية التي بآسيا وما إلى ذلك من الشروط الأثيمة التي تدل على انحطاط الشعور بالوطنية عند الإسبارطيين وكان من عواقب هذه المعاهدة المهينة للشرف اليوناني اتخاذ ملوك الفرس مُحكّمين لفصل ما يحدث بينهم من المنازعات والخلافات وبسبب ذلك كانوا يفرطون في مصالح أوطانهم لإشفاء غليل نفوسهم فيما بينهم من الحزازات التي نشأت بينهم بباعث الغيرة والمنافسة.

فقد سعت طيبة في ملاشاة قوة اسبارطة وهذه أجهدت نفسها في إنهاك أثينا وعلى هذه الصورة كانت المدن اليونانية تعمل بلا وناء لإضعاف بعضها بعضاً ووقعت بينها المنازعات والمشاحنات وتبدلت أوضاع البلاد وحلت محل القوانين الشهوات وأظلمت آفاق البلاد بما تفشى فيها من الجور والمظالم وانحطت الآداب وكسدت أسواق العلوم وذوت أفنان الفنون وتعطل سير البلاد للتقدم.

بدء عصر مقدونية[1]

كثير من الانقلابات تبدو من أتفه الأسباب لذلك ينبغي لمسيري دفة النهضات القومية أن لا يفلتوا مراقبة ما يقع تحت أنظارهم من مختلف الأحداث فقد ظهرت في مقدونية بعض القلاقل بعد وفاة ملكها أستاناس وترك وراءه ثلاثة بنين فقاموا يتنازعون على الملك

(1) مقدونيا أو مكدونيا Mecedoine بلاد في شبه جزيرة البلقان عاصرت الدولة اليونانية.

فبعث المقدونيون وفداً من قبلهم إلى طيبة يلتمسون مساعدتها في إزالة الخصام بين هؤلاء الورثة فأرسلت طيبة من فورها عسكراً بقيادة بيلو بيداس[1] لكي يصلح ما شجر بينهم. ولما وصل إلى مقدونية مهد الأمور وولى أحدهم العرش ثم عاد ومعه فيليبش أخو الملك وهو أبو إسكندر الكبير المقدوني وكان عمره 10 سنوات ومعه عدد من وجوه البلاد رهناً تحت يده فأقام في طيبة نحو اثنتي عشرة سنة تعلم فيها فنون الحرب وسياسة تدبير الممالك. ولما توفي أخوه دعاه الشعب إلى الجلوس على العرش فلبى طلبهم وكان عمره إذ ذاك 22 سنة.

وبعد أن استوثق له الأمر جعل يدبر في الوسائل التي تمكنه من إخضاع باقي الممالك اليونانية وضمها إلى مملكة مقدونية فأخذ يبذر بذور الشقاق في هاتيك الممالك، وكان له في جميعها رجال من أهاليها وأكابرها يساعدونه على إتمام مقاصده رغبة في توحيد البلاد وتخليصها من المنازعات.

وفي السنة الرابعة من ملكه أي سنة 356 قبل الميلاد ولد له من زوجه[2] ولد سماه اسكندر ولما شب سلمه إلى الفيلسوف أرسطوطاليس[3] الشهير لكي يثقفه ويقوم على تربيته وتعليمه فنشأ في كنف والده وعناية الفيلسوف لا كما ينشأ أبناء القصور في أحضان الدعة والخمول. فينشأون مشلولي العقول بل نُشيء تنشئة البطل.

---

(1) فيليبوس الثاني. بلغت الدولة في عهده قوّة جعلتها تحتل تساليا. هو قاهر الأثينيين والثيبيين في (خيرونه).

(2) تدعى (الومفيدا).

(3) فيلسوف يوناني عاش بين (384 - 233 ق. م) ينزع بفلسفته إلى التجريد ولذلك اشتهر منطقه باسم المنطق الصوري باعتبار أنه يراعي تطابق الفكرة مع الفكر دون مراعاة لمدى تطابقها مع الواقع. كان يتصوّر أن القلب هو مركز الشعور وأداته...

السعي في توحيد الممالك اليونانية

من أهم الأسباب التي مكنت الملك فيليبش من تحقيق هذه الأمنية زيادة عن حذقه ومهارته السياسية حصوله على استخراجٍ الذهب والفضة من مناجم مقدونية وكان يستخرج منها مقداراً وافراً كل سنة حتى توفرت لديه الأموال، وتمكن بقوتها أن ينال ما لا سبيل لنواله بقوة السلاح.

فقد توصل إلى اصطناع إحدى قبائل الأثينيين فكانت تعينه في حروبه لذلك عمد إلى تخليص بلاد تيسالية عما كان حل بها من ظلم وجند منها فرساناً كماة ضمهم إلى جنوده وسار بهم إلى افتتاح أثينا رغم فصاحة ركينها ذيموستين[1]، وماذا تغني الفصاحة في شعب سفلت أخلاقه، وخبت حميته، وجمدت قريحته واختل نظامه، وساءت حاله، واستفحل فيه داء الانهماك، وفشت فيه الرشوة، وحقوقه تباع بالمزاد كما تباع العروض البائرة.

والسبب في اعتماد فيليبش على احتلال بلاد اليونان هو حدوث الحرب المقدسة التي استمرت عشر سنوات وكانت سبباً في اضمحلال بلاد اليونان وانتشار الفقر والبؤس في أهلها. ومفاد تلك الحروب أن أهالي مدينة فوسية كانوا استولوا على قطعة أرض موقوفة على المعبود أبولون[2] بمدينة دلف وحرثوها غير عابئين بالتقاليد الدينية المحترمة فأشهر عليهم مجاوروهم السلاح بعد أن حكم عليهم مجلس

---

(1) Demosthènes. (384 - 328 ق. م) سياسي وخطيب يوناني، تبيّن خطّة فيليبوش للاستيلاء على اليونان فقام ينظم المقاومة ضده في أثينا والمدن الأخرى عن طريق الخطب التي عرفت بالفليبيّات.

(2) إله النور والفنون والجمال عند اليونان. ابن زفس وليتو. كان له معبد في مدينة دلفي.

المعبود ومجازاتهم على هذا العدوان بالعقاب الصارم، ولا تجد قوماً يحترم نفسه يرى الهوادة في دينه ولو كان يعبد الأوثان فتقدم فيليبش لمقاتلة أهل فوسية المحليين ومن لف لفهم إحدى عشر سنة أي من سنة 357 إلى سنة 346 حتى محا هذا الرهط من عداد اليونانيين. وبذلك توصل إلى الحصول على ما كان بتلك المدينة من الأصوات في مجلس الإنفكتيون بإقرار اليونان أنفسهم مكافأة له على صنيعه المشكور. وصار فيليبش من ذلك اليوم معدوداً ضمن العائلة الإغريقية كما أعطوه أيضاً حق الإدارة على بعض الألعاب الألومبية[1].

وقد كان هذا النجاح خطوة خطاها فيليبش في مشروعاته السياسية أكسبته عند اليونانيين منزلة واحتراماً عظيماً.

ولما عاد إلى مقدونية أخذ يستعد لتنجيز مقاصده وفتح قرب مملكته عدة ممتلكات ثم ذهب وحاصر مدينة بوزنطية لقطع الأقوات والميرة عن أثينا وكانت تحمل إليها منها في مقابلة معاكستها لمشاريع فيليبش وإشهار الحرب عليه بإغراء من فارس فحصلت العداوة بين فيليبش والأثينيين وأرسل الأثينيون من قبلهم إمدادات عسكرية لبوزنطية تحت قيادة فوسيون فصالح فيليبش توفيراً لراحة اليونان وتحقيقاً لأمنهم. ثم دعي مرة أخرى من بعض المدائن اليونانية لقيادة جيش في حرب ثانية مقدسة ضد اللوكريين الذين دنسوا أراضي مدينة إيلاتي المهمة سنة 338 فوقع الرعب في قلوب سكان أثينا فاتحدت ضد فيليبش بمساعي ذيموستين واتفقت في الوقت نفسه مع طيبة التي

---

(1) ألعاب رياضية كان اليونانيون القدماء يحتفلون بها قرب الأولمب كل أربع سنوات سنة 776 ق. م. وقد أخذت منها تسمية الألعاب الأولمبية التي تجري في يومنا كل أربع سنوات كذلك في مدينة من مدن العالم.

كانت معادية لهم ومهادنة لفيليبش فجهزوا جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً، وخرجوا لملاقاة فيليبش فالتقى الجمعان بالقرب من إحدى مدائن بيوتيه الشمالية وتواقعوا في سهول شيرونة، وبعد قتال مريع دارت دائرة السوء على اليونانيين وانتصر فيليبش فعامل اليونانيين معاملة حسنة وأطلق أسراهم بدون فدية، ولكي يُنسي اليونانيين مصيبة فقْد استقلالهم، وهي لا تنسى أبداً، أراد أن يحول نشاطهم إلى محاربة الفرس أعدائهم القدماء فدعا الدول اليونانية إلى عقد مؤتمر في مدينة كورنثوس حضره نوابهم، وقر فيه قرارهم على تولية الملك فيليبش قيادة الجيش الأولى في الحرب التي تعاقدوا عليها فأرسل فيليبش القائد يرمنيون مع طليعة الجيش إلى آسيا الصغرى حيث كان مزمعاً أن يلاقيه ببقية الجيش غير أن المنون لم تسمح بذلك فقد عدا على فيليبش تابعه بوزينياس فقتله سنة 336 وما كانت صحيفته لتطوى إلاَّ لتنشر صحيفة ابنه القائد العظيم اسكندر.

إن أبي قد غلب تقريباً على العالم بسيفه ولم يترك لي شيئاً أغلب عليه بسيفي.

اسكندر

اسكندر المقدوني[1]

هو مبيد ممالك، ومؤسس دول، وقاهر أمم، بل قوة عصبية خارقة رجت العالم مدة 13 سنة ثم سكنت مرة واحدة إثر موته، سكون العاصفة عقب هبوبها، بعد أن أفرخت القلق والذعر في

(1) الإسكندر الكبير (356 - 323 ق. م) الملقب بذي القرنين. ولد في مقدونية وتوفي في بابل. انتصر على الفرس في إيسوس (333 ق. م) ثم في سواحل إفريقيا ثم في مصر: تتبع داريوس في العراق وانتصر عليه في كوكاميل قرب أربيل (331 ق. م) وتابع زحفه إلى أطراف فارس وتجاوزها إلى ضفاف نهر السند.

مراكز الخط الجنوبي للشرق وأخمدت أنفاس الحضارة العربية في بابل ودمشق وفينيقيا ومصر، وقامت على أطلالها حضارات أخرى متغلغلة مصطبغة بصبغات أممية مختلفة لا تتمايـز عن بعضها بشيء من الخصائص العرقية غير التغلب ثم تمر وتعقبها أخرى كما تتعاقب الطفيليات على الجروح النزّازة في الجسد الطريح.

خلف اسكندر أباه فيليبش عقب مقتله وكان عمره يومئذ 20 سنة ففرحت الممالك اليونانية بهذا التبدل وكانت ترجو من ورائه إرجاع استقلالها الذي اغتصبه فيليبش فعصت تراقية، وانتكثت طيبة، وانسلخت أثينا فتقدم الإسكندر لتأديب هذه الممالك المتوثبة على الطاعة، فرد تراقية، ثم تقدم إلى طيبة وفتحها وخربها وباع نحو 30000 من أهاليها.

ولما رأت منه الجد بقية الممالك اليونانية وأبصرت ما أنزله بأهل طيبة خافت بأسه وقدمت له الطاعة.

وعقب خضوع الدويلات الإغريقية دعاهم جميعاً إلى عقد مؤتمر قومي في مدينة كورنثوس فأجابوه إليه وأعلمهم بعزمه على المضي في محاربة فارس جرياً على خطة أبيه ففوض المؤتمر إليه الأمر وقلده القيادة العامة على الجيوش اليونانيـة، فأخذ يوزع كنوز أبيه على القواد ورجال الجيش ولم يبق لنفسه شيئاً. فقال له أحد المقربين لقد أفرغت كنوز أبيك فماذا تركت لنفسك؟ فقال له: الرجاء. ثم تأهب للغزو ولم يأخذ معه من الزاد والمهمات سوى ما يكفي لشهر واحد لأنه كان موقناً بالنجاح وخرج بجيش مؤلف من 36 ألف مقاتل منهم 30 ألف راجل و 6000 فارس.

فلما علم دارا[1] ملك الفرس بتعبئة الإسكندر وخروجه استهزأ به

(1) هو دارا (داريوس) الثالث.

وعزم على كسر شوكته وكان يدعوه بالصبي المجنون ولكن ماذا يجدي عزم الملك ومملكته مشرفة على الزوال بسبب اتساع أرجائها وفساد عمالها والتواء قلوب شعوبها عليها أضف إلى ذلك استبداد ملوكها واستغراقهم في الملذات والشهوات، وإن لم يكن ذلك كافياً في تخريب المملكة فهو يعين عليه.

فقد كانت المرازبة لبعدهم عن العاصمة يكادون يكونون ملوكاً مستقلين، وكانت الدسائس والمؤامرات لا تفارق البلاط والأعوان لا يفترون عن الكيد للأمناء حتى صيروا جو البلاد مشبعاً بالفتن والشرور، والشعوب الحانقة لا تتمنى غير قرب زوال هذه الدولة المرهقة على يد كائن من كان.

وحين تقدم الإسكندر لمناجزة تلك الدولة الواهنة تلقته جنودها بهمة فاترة لا أثر فيها للشجاعة والنخوة وكانوا نحو مائة ألف مقاتل فالتقى الجيشان عند شاطىء نهر غرانيكس[1] من بلاد ترواذة، وفي الوقائع الأولى انهزم الفرس وتأثرهم[2] الإسكندر على طول شواطىء آسيا الصغرى، واستولى على بلاد فرجيا فخضعت له مدينة اليكارناس التي تحصن بها منون الرودسي أحد مشهوري قواد الفرس فخربها بعد أن حاصرها واستولى عليها ثم وقف عن التقدم وكف عن متابعة فلول الأعداء[3].

وفي سنة 333 قبل الميلاد عاد دارا لمقاتلة اليونانيين فزحف بجيش عظيم يبلغ 55000 ألف مقاتل فتلقاه الإسكندر على كيليكية وجرت

---

(1) نهر في آسيا الصغرى.

(2) تتبع أثرهم.

(3) كان ذلك سنة 334 ق. م.

بينهما موقعة عظيمة انهزم فيها دارا وقد هلك من جيشه عدد لا يحصى واجتاز نهر الفرات هارباً وهو غير مصدق بالنجاة فاستولى الاسكندر على أمواله وأسر أمه وزوجته ستاتير وابنه وابنتيه وكانوا يتبعونه في حروبه فعاملهم الاسكندر بمنتهى الرفق والحلم[1]. وفي هذه الموقعة علا نجم الإسكندر واشتهر صيته، وتفتحت أمانيه.

استيلاء الإسكندر على سورية ومصر

وبعد هذا الانتصار الهائل سار الإسكندر بجنوده إلى سورية واستولى عليها وسير أحد قواده صوب دمشق فدخلها منصوراً ووجد بها أموالاً لفارس تجل على الحصر. ثم تحول إلى فينيقيا واستولى عليها. وامتنعت عليه مدينة صور فحاصرها براً وبحراً مدة سبعة أشهر ثم فتحها عنوة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وعلق 2000 من رجالها على أسوارها. وباع من مقاتلتها 30000 أسيراً، وصادر الأموال التي عثر عليها. ثم انتقل إلى غزة وكانت مدينة منيعة فشدد عليها الحصار ولما فتحها ذبح معظم أهاليها. ثم سار إلى القدس واحتلها سلماً. ومنها قصد مصر فلم يبد أهلها أقل مقاومة نظراً لما كانوا يلاقونه من إرهاق الفرس وتعذيبهم لذلك لم يسىء إليهم، ولم يغير شيئاً من تقاليدهم بل ترك كل شيء على حاله فمال إليه المصريون وعدوه منقذاً لهم من الهلاك وتلك عاقبة الظلم. ثم ذهب إلى الحدود الغربية إلى أن بلغ سيوة. وزار معبد الإله أمون[2] وكان المصريون يسمونه (أمون رع) وطلب من كاهنه الأكبر أن يلقبه بابن الشمس، وعند رجوعه من هذه الزيارة أمر بتخطيط مدينة

---

(1) في الأصل: وكن يتبعنه في حروبه فعاملهن الإسكندر بمنتهى الرفق والحلم.

(2) هو الشمس التي اعتقد المصريون أنها إله.

الإسكندرية[1] لتكون مركزاً للمواصلات بين الشرق والغرب.

وبعد أن تم للإسكندر ما أراده من الاستيلاء على ولايات آسيا الصغرى، وسورية، وفينيقيا، ومصر واكتسح منها الفرس وعين عليها ولاة من قبله عاد لإخضاع سواحل آسية الشرقية وما جاورها من الجزر[2].

ولما عاد الإسكندر إلى آسيا أرسل إليه دارا وفداً فارسياً يطلب منه فداء أمه وزوجته وأولاده لفكاكهم من الأسر وعرض عليه مالاً وافراً، ووعده أن يعقد معه صلحاً ويزوجه ابنته روكسانة ويجعل بائتها كل الأراضي الواقعة بين نهر الفرات وبحر الروم فأجابه الإسكندر أنه يقبل ذلك بشرط أن يقدم عليه دارا بنفسه ويطلب منه ذلك فعظم طلبه على دارا وأبى عليه كبرياؤه أن يتنازل إلى هذا الحد فأمسك عن المطالبة بفداء أهله وإجراء الصلح.

استئناف الإسكندر لحروبه مع دارا

وأخيراً صمم الإسكندر على ملاحقة دارا في عقر داره وقال إن العالم لا يتسع لربين ثم توجه بعساكره لمناجزة قِرنه[3]فتوارى منه دارا في البلاد الواسعة التي بقيت له فاجتاز نهر الفرات والدجلة بجيش عدته 60000 مقاتل إلى أن التقى بعساكر الفرس بالقرب من مدينة إربل وكانت تزيد عن 900000 مقاتل و 50000 فارس و 200 مركبة حربية و 15 فيلاً. ولما رأى المقدونيون عظمة هذه القوة أشاروا على

(1) أسس هذه المدينة إحياءً لذكرى هذا النّصر.

(2) كان ذلك سنة 332 ق.م.

(3) أي مُقاوِمه.

الإسكندر أن يبيتهم[1] ويأخذهم على حين غرة فرد عليهم: إنني لا أحب أن أختلس النصر بل آخذه.

وحين تواقع الجيشان تأخر الجناح الأيسر للمقدونيين ففزع اليونانيون من هذه الهزيمة فأوعز الإسكندر إلى منجم كان في حاشيته أن يبشر عساكره بالنصر لكي يبث فيهم روح الإقدام فنادى المنجم بذلك بصوت عال فاستثيرت النفوس. وبعد كفاح عنيف أبدى فيه الفريقان شجاعة نادرة انتصر الإسكندر على الفرس وانهزم دارا مع فلوله إلى مدينة بلخ وداخل الرعب قلوب الفرس واستولى الإسكندر على مدينة بابل وغيرها من العواصم وغنم أموالهم. ثم أخذ يتبع دارا إلى أن عثر عليه مقتولاً في الدامغان سنة 320 وقتله غيلة رئيس حرسه وكان فاراً معه فحزن الإسكندر لهذه النهاية المحزنة لخصمه العظيم التي أصابته بيد أحد رجاله وأمر أن يدفن باحتفال رهيب يليق بمقامه. وسلم قاتله لأولياء الملك ليقتصوا منه فقتلوه شر قتلة وأمر بإقامة المسلات[2] تذكاراً لحياة الملك القتيل وإكبار شأنه.

ولما خلا الجو للإسكندر وآل إليه ملك الفرس بلا منازع تفرغ لإصلاح البلاد التي افتتحها بسيفه وفرق أموال الغنائم على جنوده التي عثر عليها في خزائن ملوك الفرس وغيرهم فملك بذلك قلوب الجنود وازدادوا به ولعاً فوق ما كانوا وهو لا يألو جهداً في إرضائهم فقد كانوا مرة يسيرون في قرية مقفرة يتعقبون دارا فاشتكى الجيش العطش وهو يكاد يشرف على الهلاك. وبينما هم كذلك إذا بَصُرَ الإسكندر جماعة من المقدونيين يحملون ماء في قرب محمولة على البغال وأحضروها بين يديه وكان وقت الهجيرة فسألهم الإسكندر لمن

---

(1) بيّت العدوّ هجم عليه ليلاً.

(2) أعمدة على هيئة المسلات.

هذا الماء فقالوا نحمله لأولادنا ولكننا نريد أن نوثرك به ولا نبكي على فقدهم ما دمت فينا فتناول منهم خوذة[1] ملئت ماء ثم التفت إلى فرسانه فوجدهم يتطلعون إلى الماء فرد الخوذة إلى صاحبها ولم يتناول منها قطرة واحدة وشكرهم على فعلهم وقال لو شربتُ منه بمفردي فإن عساكري يفقدون شجاعتهم. ولما سمع الفرسان قوله تعجبوا من إيثاره وعلو نفسه وصاحوا جميعاً قائلين إنهم يتبعونه لأي مكان سار ولا يضنون على أنفسهم بالموت في سبيله ما دام عليهم ملك مثله.

تقليد الإسكندر لملوك الفرس وادعاؤه للألوهية

لما آلت الممالك الفارسية إلى الإسكندر وأدرك لذة الملك المطلق ونعومة العيش وغير ذلك ممّا أبطر ملوك الفرس وأفسد أخلاقهم، مال إلى تقليدهم وعبث بحقوق الرعية واستعمل الجبروت، ومال إلى الأبهة وما يناسبها من الكبرياء والشفوف، وصار يرتاح إلى المديح المبالغ فيه ويسرّ بالتملق فتذمر من ذلك المقدونيون ورأوا فيه خروجاً عن تقاليدهم القومية لا سيما لما أبصروا ملكهم خلع عن نفسه الملابس اليونانية واتخذ الملابس الفارسية، ودعاهم إلى إجلاله وتعظيمه بصورة تقرب من العبادة وبعبارة أوضح إلى تأليهه. ولما أنكر عليه ذلك الفيلسوف جليانوس أمر بسجنه كأنه أنف أن يكون ملكاً كغيره فأراد أن يتعالى عليهم بالألوهية.

ولم يقتنع بالانتصارات التي أحرز عليها بل أخذ يستزيد منها

(1) يجعلها المحارب على رأسه لتحميه.

فدخل التركستان وأفغانستان وأسس فيهما مدناً كثيرة دعاها باسمه ونشر بين الآسيويين روح الإغريق، وعوائدهم. وتمادى به الطمع إلى امتلاك الهند فقد هاجم البنجاب وأسر ملكهم مهراج فيروز ثم مَنَّ عليه بالإطلاق.

وفي سنة 327 تزوج أسيرته ركسانة ابنة دارا الذي قهره وقد شغف بها شغفاً شديداً وكانت تبادله الحب رغم ما أنزله بأبيها.

ولما أراد التوغل في الهند صده عساكره لما رأوا أن لا حدّ لمطامعه، ولا نهاية لمتاعبهم وطلبوا منه الرجوع إلى بلدانهم فانثنى راجعاً من البنجاب وهو آسف حزين. وحين حط رحاله بمدينة اصطخر وكانت يومئذ عاصمة الثقافة الفارسية وبها خزائن كتبهم وأحواها لمآثرهم ومفاخرهم فعز عليه أن تكون مهبطاً لوحي الروح الفارسية فأمر في إحدى الليالي، وكان ثملاً[1]، بإحراقها فأحرقت بجميع ما فيها ومن جملة ما احترق فيها كتاب زرادشت متنبي الفرس وهو الكتاب المعروف بالزند مع تفسيره المعروف بوستبه ولم يبق منها بعد الحريق إلا جزء واحد وهو عماد ذلك الدين لهذا العهد[2]. فأضاع بسكره على العالم كنوزاً لا تقدر وهي جريمة لا تغفر للإسكندر.

قفول الإسكندر من فتوحاته

وحين اتصلت فتوحات الإسكندر بسواحل المحيط الهندي أمر

---

(1) سكران.

(2) زرادشت بن استيمان هو نبيّ المجوس أتاهم بالكتاب المعروف (بالزمزمة) عند عوام الناس واسمه عند المجوس (نسياه) ثم عمل زرادشت تفسيراً لذلك الكتاب سمّي (زيدا) ثم عمل للتفسير تفسيراً سماه (بازيد) وبعد وفاته عمل العلماء تفسير تفسير التفسير وسمّوه (بارده) (مروج الذهب للمسعودي 110/1).

أساطيله بالمسير من مصب نهر السند إلى نهر الدجلة، ومر بشواطي الخليج العربي، وكان طامحاً إلى الحصول على مجد في البحار يقارب مجده في اليابسة ومراده أن يدور بجزيرة العرب بحراً وينزلها على طاعته فأمر ببناء أسطول ضخم في فرض فينيقيا وأتى بالسفن محمولة قطعاً إلى بابل ونقلت منها إلى بعض الفرض لتركيبها وتسييرها في البحر قصد الرجوع بها إلى بابل فعاد إليها سنة 324 من طريق بلوجستان[1] بعد أن فقد ثلاثة أرباع جنده فدخل بابل في موكب مشهود نادر المثال فقد ركب عربة فخمة يجرها ثمانية أفراس من العتاق الجياد محاطاً بأبهة عظيمة لم تعهد لملك من الملوك.

كيف قضى الإسكندر حياته الأخيرة

كان قصد الإسكندر من رجوعه إلى بابل أن يرممها ويجدد عمارتها كما كانت ويتخذها قاعدة لممتلكاته الشرقية فندب لها عشرة آلاف عامل من مختلف الصناع كانوا يشتغلون فيها. وكان ينوي بعد إتمامها أن يمضي إلى قرطاجنة ويفتحها ومنها ينتقل إلى أوروبا لإخضاع إسبانيا وإيطاليا ومن ثم يعود إلى مقدونيا ولكن المنون لم تمهله إلى أن يتم هذا المنهاج الواسع بل عاجلته وأطفأت تلك الشعلة البشرية الخارقة وهو في السنة الثالثة والثلاثين من عمره والثالثة عشرة من حكمه.

أسباب مرضه ووفاته

لما وصل الإسكندر إلى بابل عكف على الانهماك في الشهوات

(1) مقاطعة في جنوب شرقي إيران.

والملاذ حتى أنهكت جسمه فقد كان يفرط في الشراب والنكاح حسب عادته حتى أصيب بحمى متقطعة وما زالت تضطرم في أحشائه حتى أودت به وكانت وفاته في سنة 323.

وقد بلغت الدولة على عهده شأواً لم تبلغه الدول التي تقدمته فهي تبتدي شمالاً من نهر الدانوب ثم تمر بالبحر الأسود وبحر قزوين ثم إلى نهر السند شرقاً وتمر جنوباً بخليج عمان وتمتد إلى البحر الأحمر وبلاد الحبشة وغرباً بحر الأدرياتيك ويدخل ضمن هذه الحدود جملة ممالك في ثلاث قارات.

ففي أوروبا مقدونية وبلاد اليونان، وفي آسيا، آسيا الصغرى وكيليكه وسوريا وفلسطين وآشور وفارس والتركستان وأفغانستان والبنجاب والبلوجستان وفي إفريقيا مصر وليبيا.

وكان يفكر في إدارة ممالكه الواسعة باليونانيين فكان يترك في كل ولاية شراذم منهم، وينظم مدنها على الطريقة اليونانية فإنه يمهد الطرق ويثقب الجبال. ومن أجل الملاحة أصلح مجاري الدجلة والفرات وحفر حوضاً لمدينة بابل يسع ألف سفينة. وكان يشجع الأدباء والكتاب والفنانين.

نقل رفات الإسكندر من بابل إلى الإسكندرية

نقل رفات الإسكندر من بابل إلى الإسكندرية على عربة ملوكية مفتخرة علوها ثمان وثلاثون قدماً وعرضها أربعة عشر قدماً وطولها اثنتان وعشرون قدماً يجرها أربعة وستون فرساً من الصافنات[1] الجياد.

(1) الصافن من الخيل القائم على ثلاث قوائم والجمع صافنات وصوافن (ابن منظور/ 2).

وكانت العربة المذكورة والصندوق التي تحمل الجثة مزينة بأفخر الجواهر ومضمخة بأزكى العطور.

ولما وصلت إلى مدينة منفيس عاصمة مصر السفلى أمر بطليموس لاغوس[1] بنقلها إلى مدينة الإسكندرية ودفنت في المقبرة التي بنيت له في مدفن فيروس مكان المعبد القديم وهو في وسط المدينة ويقال إن موقعه تحت كوم الديماسي الواقع غربي كوم الناظورة الآن. وقد زين المدفن من جوانبه الأربعة[2] بألواح منقوش بها هيئة قوة الإسكندر وصورة الأفيال التي حاربها في واقعة دارا ورسم أسطوله والمركبة التي حارب بها أعداءه وصور الأسلحة التي كان يقاتل بها جيشه. ودفن في صندوق من الذهب المرصع.

ويروي آخرون أن والدته أمرت به فجعل في تابوت من المرمر وطلي بأدهان ماسكة لأجزائه وأخرجته من صندوق الذهب لعلمها أن من يطرأ بعدها من الملوك والأمم لا يتركونه في ذلك الذهب. وجعل تابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نظمت من المرمر والرخام.

ويروي المؤرخون أن السبب الذي جعل بطليموس لاغوس يعدل عن وصية الإسكندر في عدم دفنه في هيكل جوبتير (أمون رع) الموجود بواحة سيوة مبني على كون الطالع دل على أن المكان الذي يدفن فيه الإسكندر ينال ثروة عظيمة في جميع البقاع.

انقسام الدولة اليونانية بعد موت الإسكندر

وبعد موت الإسكندر وهو لم يوص بالملك لأحد من بعده وخلف

(1) به سمّيت السلالة التي حكمت مصر بعد موت الاسكندر.

(2) في الأصل الأربع.

ابناً شرعياً من ركسانة وكان صغيراً في المهد قامت الفتن بين قواده بسبب أطماعهم في الملك واستمرت ناشبة في جميع الممالك حتى انقسمت أخيراً بين أربعة قواد:

المملكة الأولى: مصر تملكها بطليموس سوتير مع بر العرب وجزء من سوريا.

المملكة الثانية: مقدونية وبلاد اليونان تملكها كاساندر.

والمملكة الثالثة: بلاد تراس وبسينية وبعض أجزاء آسيا الصغرى تقلدها زيماخوس.

المملكة الرابعة: بقية الممالك المتحدة من البحر الأسود إلى بلخ فالهند تولى مقاليدها سلوقس الأول.

انقراض عائلة الإسكندر

وفي أثناء تلك المخاصمات والحروب أخذت عائلة الإسكندر التعسة الحظ في الاضمحلال ثم الانقراض سنة 311 قبل الميلاد بمقتل الإسكندر الصغير ابن ركسانة ووالدته ولم يبق من هذه العائلة أحد من الذكور وانقرضت عن آخرها سنة 300 والملك لله وحده.

المملكة السلوقية[1]

نسبة إلى القائد سلوقس الأول نيكاتور[2] أي الظافر، أحد قواد

(1) أنشئت سنة 307 ق. م. على نهر دجلة ـ عاصمتها سلوقية ثم أنطاكية (تاريخ بابل: مارغريت روتن ص: 174).

(2) (355 - 280 ق.م) قاد الجيش تحت إمرة الإسكندر ثم خلفه وسمّى نفسه ملكاً نحو 305 ق.م.

جيش الإسكندر الذين اقتسموا مملكته وأثاروا لأطماعهم فتناً وحروباً عظيمة للانفصال عن الدولة المقدونية. وكان مبدأ تأسيسها سنة 312 قبل الميلاد. وكان مؤسسها موفق الطالع فحارب زيماخوس صاحب تراقية فانتصر عليه في واقعة أفسوس[1] الحاسمة واستولى على جميع ممالكه في الشرق وصارت بلاده مملكة عظيمة مشتملة على كل أقاليم آسيا التي أخضعها الإسكندر ودعاها المملكة السورية واتخذ لها عاصمة مدينة أنطاكية التي بناها سنة 300 قبل الميلاد. وقد أحرزت هذه المدينة على شهرة واسعة عند الأمم النصرانية بـ(لُوقه) أحد كتاب الأناجيل الأربعة التي ظهرت بعد المسيح وفيها تسمى النصارى بالمسيحيين، وهي قريبة من أنطاكية الحالية. وعاش سلوقس إلى ما بعد 280 ثم مات قتيلاً وبعد مقتله تحررت من مملكته عدة بلاد مثل برغامس وكبادوكية وغيرها. وقام بعده بالأمر ابنه أنطيوخس الأول الملقب بسوطير[2] ولم يحدث في زمنه أمر يستحق التدوين ومات سنة 261، فتولى بعده ابنه أنطيوخس الثاني[3] وكان خاملاً، ضعيفاً فنشبت بينه وبين المصريين حرب غلبه فيها بطليموس وكانت هذه الحرب سبباً لاستقلال بعض ممالكه سنة 225.

ولما كانت أمثال هذه الدول الطفيلية لا تقوم على تضافر الشعوب، بل على أسنة الحراب، فقد حدث تلو تلك الحرب نزاع عنيف بين أنطيوخس الثاني وأخيه سلوقس[4] على الملك وبسببه جرت فتن ووقائع امتدت إلى جميع أقطار المملكة كادت تميد بها،

(1) مدينة على بحر إيجة.
(2) (261 ـ 280 ق.م.)
(3) (261 - 246 ق.م) في عهده استقلت فرثيا.
(4) سلوقس الثاني كالينيكوس (246 - 226 أو 224 ق.م).

بحيث استمرت الحرب ثلاث سنوات ثم انتهت بفوز سلوقس وفرار أنطيوخس إلى مصر وقتل فيها، وانفرد سلوقس بالملك إلى أن مات سنة 224 وقام بالأمر بعده ابنه سلوقس الثالث (كاراقوس)[1] وكان ضعيف الأناءة خامل الذكر فلم تطل مدته وتولى عقبه أنطيوخس[2] الثالث الملقب بالكبير سنة 223 وهو على خطله يعد من أكابر ملوك هذه الأسرة الذين اغتصبوا عروش الممالك العربية في الخط الجنوبي بعد سلوقس الأول، مؤسس دولتهم. فقد كان على الجملة شجاعاً ذكياً حازماً، وقد انكسر مراراً أمام الرومانيين ولم يثبّط ذلك من همته فقد استعاد قوته واستولى على بلاد البقاع بين لبنان وسوريا، وكذلك على إقليمي فينيقيا وفلسطين انتزعهما من أيدي البطالسة، ملوك مصر، فاسترد منهم بلاداً كثيرة. ثم كرّ عليهم أنطيوخس مرة أخرى واسترجع منهم المملكة بأسرها بعد أن عقد حلفاً مع فيلبش ملك مقدونيا واتفقا على اقتسام المملكة المصرية. وما زال هذا الملك عانياً بالحروب ينتقل من معمعة إلى معمعة حتى استرجع جميع المدائن التي انسلخت عن مملكته في آسيا واستولى على جانب من بلاد أوروبا. فتوطد سلطانه على أقطار شاسعة بجنوده الجرارة وأساطيله الكثيرة حول مياه البحر المتوسط. وهو الذي التجأ إليه قائدنا الفذ حنه بعل لما أصرت روما على إخراجه من إفريقيا، وعبثاً حاول أن يقنع مضيفه بتقليده قيادة جنوده ليزحف بها على رومية من طريق أوروبا فأخطأ أنطيوخس بمنعه من هذه القيادة لأن الرومان كانوا وقتئذ يتحرشون بمملكة السلوقيين وهو لا يريد أن يهاجمهم. لكنهم لما أدركوا نجاحه بادروه بإعلان الحرب فالتقى الجيشان سنة 191 قرب مضيق ترموبيل، بغير قيادة حنه بعل فكانت الدائرة على أنطيوخس وفر

(1) (226 أو 224 - 223 ق.م).

(2) (223 - 187 ق.م).

هارباً إلى أفسوس ثم أعيدت الحرب ثانية فكان الفوز فيها للرومانيين برّاً وبحراً، وأملَوْا على السلوقيين شروطاً كالتي أملوها على القرطاجنيين من ضمنها جلاء عساكرهم عن أوروبا وأداء غرامة حربية هائلة وتسليم أفيالهم وسفنهم الحربية ولا يبقي منها لمملكتهم إلا عشر سفن فقط، ومبالغة في النكاية طالبوهم بتسليم حنه بعل وإرسال عشرين رجلاً من أكابر السلوقيين من جملتهم ابن أنطيوخس يبقون في رومية رهائن. ولما لم يكن في خزائن السلوقيين ما يدفعونه من المال فقد قصد أنطيوخس بلاد فارس لنهب نقود كانت مدخرة في معبد إلههم فيتره فابتدر إليه حراس المعبد فقتلوه جزاء بغية شر قتله[1] سنة 187 وتنمرت فارس بسبب ذلك عن حكم السلوقيين.

وهكذا كان سوء تدبير الملوك السلوقيين سبباً في انحطاط الدولة وتضاؤل مكانتها بين الأعداء وبعد مقتل أنطيوخس جلس ابنه سيلوقس[2] على العرش وكان ضعيفاً خامل الذكر فلم يقع في عهده شيء يذكر وجلس بعد موته سنة 185 أخوه أنطيوخس الرابع[3] وكان ظلوماً غشوماً عاتياً فبادر لإشهار الحرب على المصريين وقد دامت أربع سنين كاد أن يتم له النصر فيها ولما علم الرومانيون بذلك أرسلوا إليه سفيراً يأمره بالكف عن قتالهم والرجوع فوراً إلى بلاده فامتثل الأمر وترك الحرب.

وحاول بعد إخفاقه في مصر أن يضطهد اليهود في فلسطين ويكرههم على تغيير دينهم[4] فلم يقبلوا منه ذلك فحاربهم وأحدث

---

(1) في عيلام.

(2) سلوقس الرابع (187 - 175 ق.م) اغتاله وزيره هليودوروس.

(3) الذي عليه المصادر أن جلوس أنطوخيوس الرابع (أبيفانوس) كان سنة 175 ق.م.

(4) وقبول عبادة اليونان الوثنية.

فيهم مقتلة عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً كما فعل نبوخد نصر وزاد عليه بأن نهب من هيكلهم ما تبلغ قيمته ثلاثة ملايين ليرة ونصب فيه تمثال زفس[1] معبود اليونانيين وجعل عقاب من يأبى السجود له الموت. وقاسى منه اليهود بلاءً عظيماً.

ونظراً لكثرة مظالمه ملّ الفرس حكمه وأعلنوا العصيان فلما خرج للبطش بهم سنة 164 هزموه فارتد راجعاً إلى أنطاكية وبينا كان سائراً في الطريق إذ سقط من مركبته فمات بعد قليل وكثرت بعده الفتن الداخلية واضطربت الأحوال فتولى بعده ابنه أنطيوخس الخامس ولم يلبث أن وقع قتيلاً في سنة 162 قتله ديمتريوس الأول الملقب بسوطير بن سيلوقس الرابع[2]، وكان من ضمن الرهائن في روما ثم فرّ وعاد إلى سوريا وقتل أنطيوخس الخامس وجلس بعده على العرش إلى سنة 150 ثم مات وتولى بعده ديمتريوس الثاني الملقب بنيكاتور[3] وقد أمكنه بواسطة مساعدة ملك مصر البطليموسية استرجاع أطراف المملكة سنة 146 بعد انتقاضها. ثم ساء سلوكه فطرده الشعب وملك عوضه ابن اسكندر بلاسر، ثم التجأ ديمتريوس إلى متريدات ملك البارت فرحب به وزوجه ابنته ثم ساعده وأعاده إلى عرش سوريا بعد موت ابن بلاسر، وما لبث حتى مات قتيلاً بصور وقام بعده بالأمر أنطيوخس السادس غير أنه لم يترك له ذكراً ثم مات سنة 142 فخلفه تريفون ديودنسن، وبعده أنطيوخس السابع الذي مات سنة 128 في قتال بينه وبين البارت وتولى خلفاً لهُ سيلوقس الخامس. ثم من بعده أنطيوخس الثامن الملقب بذي الأنف الأعوج ودارت

---

(1) زفس أو زيوس Zeus سيّد الآلهة لدى اليونانيين يقابله جوبتير لدى الرومان.

(2) Demotrios 1 سوتير أي المخلّص (162 - 150 ق.م).

(3) أي الظافر ابن ديموتريوس الأوّل ملك سوريا.

بينه وبين أخيه كريكانس وقائع كانت نتيجتها اقتسام المملكة بين الأخوين، فاستولى كريكانس على فينيقيا وسهل البقاع، وأخذ أنطيوخس الثامن ما بقي ثم مات قتيلاً سنة 96 قبل الميلاد. وقام بعده بالأمر أخوه أنطيوخس التاسع فقتل بعد سنة وقام من بعده سيلوقس السادس الملقب بيفانس ولعسفه وظلمه كرهه الشعب فهرب إلى مدينة المصيصة ولما عثر عليه أهلها أحرقوه. وتولى بعده أنطيوخس العاشر ومن بعده فيلبس غريبسن. ثم ديمتريوس الثالث ومن بعده أنطيوخس الحادي عشر. ثم أنطيوخس الثاني عشر وقتل في ثورة نشبتها القبائل العربية في البتراء وامتد أثرها إلى دمشق.

ويظهر أن السوريين ثقل عليهم تمليك السلوقيين بعد أن أوهنوا بلادهم وملُّوا الحروب فعدلوا عنهم ودعوا تقران ملك أرمينية سنة 83 قبل الميلاد وملكوه فأضاف سوريا إلى بلاده وبقي ملكاً عليهم إلى أن قهره الرومان سنة 69، فقام من بعده أنطيوخس الثالث عشر وتغلب على عرش سوريا وبقي قابضاً عليها إلى أن داهمه القائد الروماني بمبي سنة 64 واستولى عليها واستلحقها برومية وكان ذلك آخر العهد بالسلوقيين الذين عاثوا بالإمبراطورية العربية بعد أن حكموها مدة 257 سنة.

دولة الأشكانيين الفرثية[1]

لم يخلف الرومانيون السلوقيين إلا على الأقاليم السورية أما بقية الأقاليم الأخرى التي وراءها من بلاد الهلال العربي المخصب فقد

---

(1) الفرثيون سلالة فارسية أسسها إرشاق (أشكا كما يسميه المؤرخون) ولذلك سمّيت هذه السلالة بسلالة الإرشاقيين أو سلالة الإشكانيين.

انسلخت عنهم من قبل في سنة 255 قبل الميلاد وهي السنة التي خرج فيها أحد رؤساء الفرثيين من الأسرة الطورانية المدعوّ أرساس ويسميه مؤرخونا أشكا، منتكثاً على أنطيوخس الثاني ولما مات خلفه ابنه أرساس الثاني فمد حدود بلاده بمساعدة النزلاء اليونانيين بمدينة بلخ لما ثاروا على سلوقس الثاني أحد ملوك السلوقيين.

وفي هذا الحين ظهرت مملكة الفرث، ومدلول هذا الاسم في لغة السيتيين (المنفيون)، وهم أمة من أمم آسيا استوطنوا في زمن مجهول الجهة الجنوبية الشرقية من بحر قزوين وقد أخضعهم الفرس ثم الاسكندر ثم السلوقيون فكانت لهم شهرة فائقة في الفروسية والرمي بالنبل وكانوا يمضون حياتهم على ظهور الخيل ولهم مهارة عجيبة في الحروب وموصوفون بالكبرياء والقساوة والخديعة ويضرب بهم المثل في ذلك ولما خضعوا للفرس اعتنقوا مذهب زردشت.

ولكن مملكة الفرث لم يتكامل تكوينها إلا سنة 175 باعتراف من الملك أنطيوخس الكبير السلوقي باستقلالهم فمدوا سلطانهم تحت قيادة متريدات الأول إلى بابل وفي أيام أرساس السادس الفرثي انتزع كثيراً من الأقاليم من يَدِ يونانيّ بلخ وأخضع قسماً مهماً في سنة 160 من جانب الهند وانتزع من السلوقيين بلاد ميدي وآشور والجزيرة. وفي سنة 149 نصب أخاه ملكاً على الأرمن وأسر ملك سوريا ديمتريوس الثاني إلا أن أفرادات الثاني جمع هذه الممتلكات وقتل في حرب التقى فيها مع السيتيين وكذا ابنه ميتريدات الثاني قتله الأرمن الذين صاروا أصحاب النفوذ في هذه الأقاليم من آسيا أيام ملكهم تكران سنة 88 قبل الميلاد.

ولما انحط شأن أرمينية بعد مهلك متريدات وصيرورة بلاد سوريا إقليماً رومانياً سنة 64 صارت الممالك الرومانية مجاورة للمملكة

الفرثية لا يفصل بينهما إلا نهر الفرات، وكان لهم مع كثير من قواد الرومان حروب شديدة انتهت بدخول بلادهم ضمن دولة الرومان سنة 64 في عهد ملكهم أرطبان السادس بعد أن دامت دولتهم مدة 111 سنة[1] فكانت هذه المملكة بمثابة حلقة انتقال لصرف حكم البلاد من اليونان إلى الفرس من بني ساسان.

(1) (175 - 64 ق. م).

الفصل الرابع

الدور الفارسي ثانية

حكم أكاسرة الفرس من بني ساسان[1]

عز انكسار الفرثيين في مواقعتهم الرومان على جندي من الفرس اسمه أردشير[2]، ومعناه غضب الأسد، ابن بابك بن ساسان. ولد بقرية طبرودن من قرى اصطخر[3] وكان جده قيماً على بيت النار في تلك المدينة فأخذ يسعى في إثارة روح القوم في فارس وميدي حتى

(1) نسبة إلى أشهر أفرادها ساسان بن بهمن بن زركسيس المعروف في التواريخ الإيرانية باسم اسفنديار.

وقد عادت بلاد إيران في عهد الساسانيين إلى اسمها الأوّل وصار الناس يعرفونها باسم دولة الفرس ويعدّونها من الدول العظيمة. وقد أطلق عليها العرب اسم دولة الأكاسرة لأن بعض ملوكها كانوا يسمّون أنفسهم (خسرو) وعند العرب كسرى.

(تاريخ إيران: مظفر الدين ص: 65).

(2) ويلقب (بابكان) أي الجامع لجمعه ملك الفرس بعد تفرّقه (226 - 240 م).

(3) هي دار بجرد من ولايات إيران.

تضافرت على تلبيته الجموع فبادر إلى انتزاع الأمر من الفرثيين حتى فاز عليهم وقتل أرطبان ملكهم واستقل بالملك فكان أول ملوك الطبقة الساسانية ورأسها المعروفين بالأكاسرة. ثم انتقل الملك بعد وفاته إلى ابنه شاه بور[1]، ومعناه ولد الملك، وكان عظيم المقدار شديد الباس ذا سطوة ومِرّة[2] كثير الغارات والحروب فقد غزا سوريا وأخضعها، وحاصر إنطاكية وكان بها ڤاليريانوس[3] أحد أباطرة الرومان فاقتحمها عليه وأسره وانطلق به إلى بلاده وبقي في أسره إلى أن فدى نفسه بأموال كثيرة.

وجاء في المصادر العربية أنه غَزَا الضيزن بن معاوية بن العبيد القضاعي، ملك الجزيرة[4]، وأقام على حصنه أربع سنين لا يقدر على هدمه ولا على الوصول إليه وفي قول أعشى ميمون عامين فقط ويقال أن النضيرة بنت الضيزن رأته فبادلته الحب وراسلته فدلّته على عورات[5] المدينة ففتحها عنوة وقتل الضيزن وأباد أبناء قضاعة الذين كانوا معه واحتمل النضيرة فأعرس بها بعين التمر وفيما يذكره الراوون أنها لم تزل ليلتها تضوّر[6] من خشونة فراشها وهو من حرير محشو بالقز. فالتمس ما كان يؤذيها فإذا ورقة من آس ملتزقة بعكنتها قد أثرت فيها وكانت بشرتها لينة الأديم فقال لها شاه بور ويحك بأي شيء كان يغذيك أبوك قالت بالزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر. قال وأبيك لأنا أحدث عهداً بك وأوثر لك من الذي

(1) شاهبور الأول (240 - 270) اسمه عند الإفرنج (رتكزر كسيس).

(2) قوّة وشدّة.

(3) Valerien (253 - 260).

(4) الضيزن بن معاوية وأمّه جهيلة التي كان يعرف بها (الطبري 47/2).

(5) ثغورها.

(6) تتضور أي تتلوّى.

غذاك بما تذكرين فأمر رجلاً من فرسانه فركب فرساً جموحاً ثم عصب غدائرها[1] بذنبها وأمره باستركاضها فقطعها وكان ذلك نعم الجزاء للخائنة.

وفي أيام شاه بور ظهر مـاني مؤسس النحلة المانـوية[2] ومن مؤسسات هذا الملك مدينة جندي سابور[3] وأهل الأهواز يدعونها بيل وبعد موته تقلد الملك بعهد منه ابنه هرمز[4] وكان يشبه في جسمه وخلقه وصورته أردشير فأحسن السيرة وعدل في الرعية ثم خلفه ابنه بهرام[5]. وكانت بلاد العرب التابعة له بعهدة عمرو بن عدي[6]، وهي ربيعة ومضر وبادية العراق والحجاز والحجارة، فلما توفي عمرو وعين مكانه ابنه امرىء القيس البدء[7] وهو أول من تنصر من ملوك العرب وكان بهرام صليباً[8] في دينه فلما دعاه ماني إلى نحلته واستبدى ما عنده فوجده على غير هدايته أمر بقتله وسلْخِ

---

(1) الغديرة هي المضفور من شعر النساء.

(2) ظهرتْ حوالى سنة 240 م في بلاد بابل. اقتبستْ عقيدتها من المادية الإيرانية والبوذية والمسيحية.. وجُمع كل ذلك في كتاب يعرف باسم (أوتان) يقول بنهاية العالم ويوصي تبعاً لذلك بالامتناع عن خدمة الدولة وبالعفة عن طريق رفض الزواج.

(3) في بلاد خراسان.

(4) اسمه في التواريخ الإفرنيجية هرمزادس. كان يلقب بالجريء والبطل (271 - 272).

(5) بهرام الأوّل (272 - 275).

(6) عمرو بن عديّ بن نصر بن ربيعة بن لَخم (مؤسس السلالة اللخمية) توفي سنة 328 م.

(7) أوّل من تنصّر من ملوك آل نضر بن ربيعة. عاش مملكاً في عمله مائة سنة وأربع عشرة سنة من ذلك في زمن شاهبور بن أردشير ثلاثا وعشرين سنة وشهراً وفي زمن هرمز بن شاهبور سنة وعشرة أيام وفي زمن بهرام بن هرمز بن شاهبور ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وفي زمن بهرام بن بهرام بن هرمز بن شاهبور بن أردشير ثماني عشرة (الطبري 53/2). هو الذي بنى مدينة رامهرمز.

(8) شديداً.

جلده وحشوه تبناً وتعليقه على باب من أبواب مدينة جندي سابور ثم أتبع ذلك بقتل أصحابه ومن دخل في نحلته. وبعد مماته خلفه بهرام الثاني[1] وكان وديعاً. ولما أقبل العظماء يهنؤنه بما كانوا يهنؤون به آباءه رد عليهم إن ساعدنا الدهر نقبل تهنئتكم بالشكر وإن يكن غير ذلك نرضى بالقسم. وبعد مهلكه تقلد ملكه بهرام الثالث[2] ولقب بشاهنشاه وقبل تمليكه كان والياً من قبل أبيه على ساجستان وبعد وفاته تولى من بعده أخوه نريس[3] وهو أول من دعا الشعب إلى مكاتفته (تأييده) وكان الملوك قبله يعتبرون الناس عبيداً يدعونهم إلى الطاعة لا إلى المكاتفة. وبعد وفاته تملك ابنه هرمز[4] وكان فظاً غليظاً يخافه الناس ويرهبونه فقال لقد علمت ما تخافونه مني فأبدلت ما كان يبدو لكم من خلقي رقة ورأفة وسار فيهم سيرة مرضية ثم هلك.

إحياء فارس وتجديد عظمتها

لم يخلف هرمز في فاتح حياته ولداً يعهد إليه وإنما ترك إحدى نسائه حبلى[5] فأوصى بالملك لذلك الجنين فولدت ذكراً سمي شاه بور[6] فاستبشر الشعب بولادته وشاع في أطراف المملكة الفارسية أنه لا ملك لهم وأن أهلها يتولون صبياً في المهد لا يدرون ما هو كائن من أمره فطمع في المملكة العرب والترك والروم. وكان العرب أدنى

(1) (275 - 292) وقيل إنه كان على خلاف ذلك حتّى أن أمراء المملكة اتحدوا على خلعه والتخلص من شرّه.

(2) (292 - 293) ملقب سكانشاه.

(3) نارسي (293 - 302) ملقب نخجيركان.

(4) هرمز الثاني (302 - 309) ـ ملقب كوه بد.

(5) وحسب اليعقوبي تركه صبيّاً. 161/1.

(6) شاهبور الثاني (309 - 380) ملقب (هوبه سنبا).

إلى البلاد الفارسية من غيرهم، وقد أرهقوهم، فسارت جموع منهم في البحر[1] من ناحية عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إيران شهر[2] وسواحل أرادشير خره وأسياف فارس وغلبوا على أهاليها وملكوا مواشيهم وأراضيهم لا يستطيع أن يثنيهم عن ذلك أحد من الفرس لضعف أمرهم وقلة هيبتهم وعقد تاجهم على رأس طفل. وكان شاه بور في تلك الأثناء يشب ويترعرع وأول ما عرف من بصيرته وحذقه أنه استيقظ ليلة وهو بقصر الملك في طَيسفون[3] من الضوضاء ولما سأل عن ذلك أخبروه أنها ضجة العابرين على جسر دجلة مقبلين ومدبرين فأمر باتخاذ جسر آخر ليكون أحدهما معبراً للمقبلين والآخر للذاهبين لمنع الازدحام على المرور فاستبشر الأهالي بذلك وتفاءلوا به خيراً. وذكر المؤرخون أن الشمس لم تغرب من يومهم ذلك حتى عقد الجسر الثاني بالقرب من الأول واستراح المارة من خطر الازدحام وأخذ الغلام الملكي ينمو ويتزايد في اليوم ما يتزايد غيره في الحين الطويل. وقد كان الكتاب والوزراء يعرضون عليه الأمور فيقضي فيها بسداد وحنكة. ومن جملة ما عرض عليه ضعف حال الجنود في الثغور وكان أكثرهم يخل بأمر الدولة وأعظموا عليه أمرهم. فقال لهم شاه بور لا يكبرن هذا عليكم فإن الحيلة فيه أيسر. وأمر أن يكتب لهم عن إذنه أنه انتهى إليه طول مكثهم في النواحي وعظم عليهم غناؤهم عن أوليائهم وإخوانهم، فمن أحب أن ينصرف إلى أهله فلينصرف مأذوناً له في ذلك إلى وقت الحاجة إليه ومن أحب أن يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عرف ذلك له في حقه.

---

(1) تحت قيادة أمراء بني عيار وعبد القيس من قبائل العرب.

(2) أبرشهر.

(3) هي قطيسفون. دعاها العرب المدائن وهي اليوم سلمان بكل.

فلما سمع الوزراء ذلك من قوله استحسنوه وقالوا لو كان هذا الصبي أطال التجربة للأمور وخاض معامع السياسة ما زاد رأيه على ما هو عليه ثم تتابعت أوامره بذلك إلى البلدان والثغور فاستقامت بها الأحوال.

ولما تمت له ست عشرة سنة وأطاق حمل السلاح وركوب الخيل واشتد بأسه جمع إليه رؤساء أجناده وذكرهم بما اختل من أمور الدولة في أيام صباه وأفهمهم أنه سيبتدىء العمل في الذب عن الحوزة وأنه يريد الشخوص[1] إلى بعض الأعداء لمحاربتهم وأن عدة من يريد خروجهم معه لا يزيدون عن ألف فارس فنهض إليه القوم داعين شاكرين، وسألوه أن يقيم مكانه وهم يكفونه فأبى أن يجيبهم إلى المقام، فسألوه الازدياد على العدد الذي ذكره فأبى عليهم ذلك ثم انتخب ألف فارس من صناديد الجند وتقدم إليهم في المضي لأمره ونهاهم عن الإبقاء على من لقوه من العرب ثم سار بهم فأوقع بمن لقيه ممّن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارون لا علم لهم بمن داهمهم فقتل منهم أبرح القتل وأسر أعنف الأسر، وهرب من بقي. ثم جاز الملك بأصحابه البحر فورد مدينة الخط واستقرى بلاد البحرين وهو يقتل أهلها تقتيلاً ولا يقبل فداء ولا يعرج على غنيمة. ثم ورد هجَر، وبها ناس من عرب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فأفشى فيهم القتل حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه من ذلك غار ولا جبل ولا جزيرة في بحر. ثم انثنى إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالصحراء. ثم أتى أرض اليمامة ففعل بها مثل ذلك. ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوّره[2] ولا

---

(1) الذهاب.

(2) طمّه.

بجبّ من جبابهم إلا طمّهُ وكانت تلك سيرته إلى أن قارب المدينة ثم عاد عنها وعطف نحو بكر بن وائل وتغلب مما يلي حدود فارس والروم من أرض الشام فقتل وأسر من لقيه بها من العرب. ونقل خلقاً من بني تغلب والبحرين وأسكنهم دارين والخط. وطوائف من بني عبد القيس وبني تميم إلى هجر، وبكر بن وائل إلى كرمان وكذلك بني حنظلة من الأهواز وكان قصده أن يبيد العرب ويفنيهم عن آخرهم من بلاد السواد ويستصفيها للفرس لتكون لهم خالصة دون غيرهم. وما درى أنه بهذه المجازر يفتح المصارع لوأد مملكة فارس، وأن العرب لا يسكتون عن الثأر. وفعلاً فإن القيصر جليانوس لما واتته الأمبراطورية الرومانية الشرقية سنة 361 وأدرك نفور العرب من الفرس أخذ يجمع من انحاش[1] إليه من الخزر[2] والروم ومن ينظره من العرب لتقويض عرش الفرس. وأدرك العرب منه الجد في ذلك وانتهزوها فرصة للانتقام من شاه بور حتى بلغ عددهم 170,000 مقاتل وانضموا للروم ولما انتهى خبر هذه الحملة إلى شاه بور سقط في يده فتنكر في أناس من ثقاته وخرج يتسقط أخبارها ويسعى في تفكيكها ولما كان على مقربة منها وجه نفرا من خاصته يأتونه بالأخبار على حقيقتها فنذرت[3] الروم بهم فأخذوهم ولما قدموهم للاستجواب لم يقر أحد منهم بما توجهوا له، ما خلا نفر منهم فإنه أخبرهم بما كان على الوجه الصحيح. وشاه بور بمكانه من من المخبأ ينتظر رسله فسأل المقرّ القيصر أن يعفيه ويرسل معه جنداً يدلهم على شاه بور ويسلمه أمر أيديهم ثم أرسل خفية إلى شاه بور

---

(1) فزع.

(2) شعب سكن شمال بحر قزوين ثم قسماً من أرمينيا. تنصّر ابتداء من منتصف القرن التاسع ثم اعتنق الإسلام في بداية القرن العاشر.

(3) علمت وحذِرت واستعدّت.

يعلمه بما لقي من أمره وينذره فارتحل من فوره ولحق بعسكره.

فتقدم العرب إلى جيليانوس[1] رئيس الحرس القيصري وسألوه أن يأذن لهم في محاربة شاه بور فأجابهم إلى ذلك فزحفوا إليه فأوقعوا بجموعه بعد أن أحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وهرب شاه بور منهم في من بقي له من جنوده واحتوى جليانوس على مدينة طيسفون (المدائن) وانتهب ما عثر عليه في خزائنه من الأموال.

فلم يتريث شاه بور لاحتمال هذه الكارثة إلا ريثما اجتمعت إليه الجيوش من كل أفق فعاد إلى حرب جوليانوس واستنقذ منه العاصمة ونزل القيصر مدينة بهاردشير وما يليها بعساكره فكمن له الفرس وهو جالس في حجرته ورموه بسهم أصابه في فؤاده فقتله وكان ذلك سنة 363 بعد الميلاد. فاضطر جوليانوس أن يعقد صلحاً مع الفرس تنازل لهم فيه عن الخمسة أقاليم على الضفة الثانية من نهر الدجلة ومعها ثمانية عشر قلعة كانت للروم محارس في تلك الأنحاء.

وبعد هذه الواقعة أمعن شاه بور بالنكاية في العرب والإيقاع بهم وكان لا يتورع عن نزع أكتاف رؤسائهم وهم أحياء مبالغة في الفتك بهم وبسبب ذلك سمي ذو الأكتاف[2]

تقبض الرومان على شاهبور وحبسه في جلد ثور

وبعد أن أثخن[3] الفرس في العرب وأقصوهم إلى أطراف الجزيرة

---

(1) حسب الطبري يوسانوس.

(2) وقيل إنه كان يربط أسراهم كتفاً إلى كتف بحبال وثيقة يدخلها في أجسامهم فيجرّهم إلى التعذيب جماعات ويسومهم الخسف والذلّ ولهذا سمّاه العرب في تواريخهم بذي الأكتاف واشتهر بهذا الاسم (تاريخ إيران: مظفر الدين ص: 73).

(3) بالغوا وأغلظوا في قتلهم.

هبط شاهبور إلى ديار الشام وبلغ منها إلى حدود الروم فبلغه أن القيصر الجديد دعا الناس إلى وليمة عقدها لهم فانطلق شاه بور بهيئة الفقير السائل يشهد الجمع ففطن به الجواسيس وأسروه فأمر به قيصر فأُدرج في جلد ثور ثم سار به مع جنوده قاصدين أرض فارس فخرب المدائن والقرى وأكثر من القتل وعقر النخل والأشجار حتى انتهى إلى مدينة جندي سابور وقد تحصن منه أهلها فنصب عليها المنجنيق وهدم بعضها والروم يلازمون عليها الحصار. فبينما هم في ذلك إذ في ذات ليلة غفل الروم الموكلون بحراسة شاهبور ذي الأكتاف وكان بقربه قوم من سبي الأهواز فأشار عليهم أن يلقوا على القيد الذي كان عليه زيتاً من زق[1] كانت بقربهم ففعلوا ذلك ولان الجلد وانسل منه فأخذ يدب حتى دنا من باب المدينة وأخبر الحراس باسمه فعرفوه ولما دخل على أهلها اشتد سرورهم بلقائه وارتفعت أصواتهم بالفرح والابتهاج فانتبه عسكر قيصر وتهيئوا لقتالهم فاستعد الفريقان لبعضهم سحَراً فانهزم الروم وأخذ القيصر أسيراً فأثقل بالحديد. وأخذه شاهبور بعمارة ما خرّب، وبأن يغرس الزيتون مكان ما قطعه من النخيل والشجر ثم أعاده إلى الروم في أبشع صورة على حمار وقال هذا جزاؤك بِبَغْيِكَ علينا.

سعي شاهبور
في استعفاء العرب له ومرضاتهم

وبعد هذه الوقائع أدرك شاهبور سوء صنيعه في الوقيعة بالعرب، فأخذ يسعى في مرضاتهم وأمر بإعادتهم إلى موطنهم مكرمين.

وعلى عهده هلك امرىء القيس البدء عامله على ضاحية مضر وربيعة فاستعمل مكانه ابنه عمرو بن امرىء القيس وقد دام ملك

(1) جلد يجزّ ولا ينتف ويستعمل لحمل الماء (يجمع على أزقاق وزقاق وأزقّ).

شاهبور اثنتين وسبعين سنة وعهـد قبل وفاته بالملك لأخيه أردشير[1] ولم يكد يستقر له الأمر حتى أخذ ينكل بالعظماء فقتل منهم خلقاً كثيراً فلم يمهله الشعب حتى خلعه ونصبوا مكانـه شاهبـور بن شاهبور[2] فسلم له عمه في الملك وقدم له الطاعة ولكن عظماء الدولة ملوه فقطعوا أطناب فسطاطه[3] فسقط عليه ومات بعد أن حكم خمس سنين. فتقدم للأمر بعده أخوه بهرام[4] وكان أبوه ولاه كرمان فأحسن السيرة ومات غيلة قتله أحد الفتاك بنشابة.

الملك الظالم يزدجـرد الأثيم

وبعد مهلك بهرام استولى على عرش الأكاسرة ابنه يزدجرد[5] المعروف بالأثيم وكان فظاً غليظاً كثير العيوب يضع علمه وعقله وذكاءه في أخس الأمور، في المكايدة والمخاتلة والمواربة والدهاء، وكان على جانب عظيم من الفطنة بكل ما فيه من شر وأحب شيء لديه الاستخفاف بكل ما لدى الرجال الممتازين من علم وفهم وأدب وكان مع ذلك غَلِقاً سيء الخلق رديء النفس وبلغ من شدة غَلقه[6] وحدّته أن الصغير من الزلات كان عنده كبيراً واليسير من السقطات عظيماً ولم يكن يأتمن أحداً على شيء ولا يكافىء مخلوقاً على البلاء في

(1) أردشير بن هرمز بن نارسي بن بهرام بن هرمز بن شاهبور بن أردشير بن بابك ـ معروف بأردشير الثاني (380 - 384). وتقول بعض الروايات هو ابن شاهبور وليس أخاه. ملقب بالجميل.

(2) شاهبور الثالث (سابور الجنود) (384 - 389 م).

(3) حبال خيمته.

(4) بهرام بن شاهبور ذي الأكتاف الذي كان يلقّب بكرمان شاه لتولّيه كرمان في حياة أبيه. يعرف ببهرام الرابع (389 - 403 م).

(5) وقيل هو أخو بهرام (كرمان شاه) وليس ابنه (403 - 419 م).

(6) سوء خُلقه.

أمر من الأمور وإن كلمه رجل مهما كان عظيماً في أمر لغيره قال له أخبرني ما قدر جعالتك[1] في قضاء هذا الأمر ولذلك لم يكن أحد يجسر أن يكلمه في أمر إلا الوفود من قبل ملوك الدول. وكان إذا علم أن أحداً من بطانته صافى رجلاً من أهل طبقته نحاه عن خدمته. وقد أكثر من سفك الدماء وتسلط على الشعب تسلطاً لم تُبل أمة بمثله.

وقد هلك برمحة فرس رمحه[2] على فؤاده فمات منها مكانه ودام حكمه الجائر 22 سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وكان مهلكه يوم عيد في فارس.

وفي أيامه مات عمرو بن امرىء القيس فعين مكانه ابنه المنذر فارس حليمة وصاحب الخورنق وهو من أشهر أقيال العرب[3].

تقدير ملوك فارس للتربية العربية في تنشئة الملوك

علم يزدجرد من نفسه أن تربية الفرس لا تخرج إلا أمثاله فأراد أن يقصي ابنه وولي عهده عنهم فأعهد به للعرب. فقد ندب المنذر لهذه المهمة العظيمة وأوكل إليه تربية ابنه بهرام جور[4]، لينشأ على

---

(1) رشوتك.

(2) رفسَهُ.

(3) يقول الطبري 65/2 ثم استخلف يزدجرد مكانه ابنه النعمان بن امرىء القيس البدء ابن امرىء القيس بن عمرو بن عديّ وأمّهُ شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذُهل بن شيبان وهو فارس حليمة وصاحب الخورنق، ويوم حليمة هو من أيام العرب في الجاهلية يضرب به المثل في كل أمر مشهور والخورنق (فارسية معربة) اسم قصر بالعراق من بناء سنمّار أيام النعمان المعروف بالنعمان الأكبر (الأغاني 144/2).

(4) (419 - 437). ويعرف بهرام جور أي حمار الفلا، لأنه كانَ مغرماً بصيد هذا الحيوان وتربيته.

غرار القوم، أخلاقاً ومروءة وشجاعة. فاستلمه المنذر بعد ميلاده وسار به إلى الحيرة واختار لإرضاعه ثلاثة مراضع ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب رضية من بنات الأشراف وأمر لهن بما أصلحهن من الكسوة والفرش والمطعم والمشرب وسائر ما احتجن إليه فتداولن إرضاعه ثلاث سنين وفطم في السنة الرابعة حتى إذا أتت له خمس سنين طلب الغلام الملكي من مربيه المنذر أن يحضر له المؤدبين والمعلمين ليمرنوه على الكتابة والقراءة ويلقنوه الفقه والأدب وحسن السلوك ويعلموه الفروسية والرمي، فقال له المنذر إنك بعدُ صغير السن ولم يئنْ لك أن تأخذ في التعليم فالزم ما يلزم الصبيان الأحداث حتى تبلغ من يطيق سنّ التعلم والتأدب وأُحضر لك من يعلمك كل ما سألت. فقال بهرام للمنذر: أنا لَعمري صغير ولكن عقلي عقل محتنك[1] وأنت كبير السن وعقلك عقل ضرع[2]. أما تعلم أيها الرجل أن كل ما يتقدم في طلبه يُنال في وقته وما يطلب في وقته ينال في غير وقته وما يفرط في طلبه يفوت فلا ينال، وإني من ولد الملوك والملك صائر لي، وأَوْلى ما كَلِفَ به الملوك وطلبوه صالح العلم لأنه لهم زين ولملكهم ركن به يقوَوْن، فعجل علي بمن سألتك من المؤدبين والقوّامين[3].

فلما سمع المنذر مقالة بهرام أعجبته وأحضر له رهطاً يفقهونه ويعلمونه الكتابة والآداب والأيام ولأنساب واللغات والرمي

---

(1) جعلته التجارب وتقلبات الدهر حكيماً.

(2) الضرَّع (بالتحريك) الضعيف، صغير السنّ.

(3) الأقوياء على القيام بالأمر.

ونشير هنا إلى أن هذا الكلام (من سار به إلى الحيرة إلى قوله المؤدبين) منقول حرفياً من تاريخ الطبري ج 2 ص 69.

والفروسية، وجمع له رجالاً من حكماء العرب والفرس والرّوم فألزمهم بهرام، ووقّت لأصحاب كل مذهب من تلك المهن وقتاً يأتونه فيه وقدر لهم قدراً يفيدونه ما عندهم.

فتفرغ بهرام لتعلم كل ما احتاج أن يتعلم، ووعى كل ما استمع من أهل الحكمة وأصحاب الحديث وثقف كل ما علّم بأيسر تعليم وألفي بعد أن بلغ اثنتي عشر سنة وقد استفاد كل ما أفيد وحفظه وفاق معلميه ومن حضره من أهل الأدب حتى اعترفوا له بفضله عليهم وصرف أغلب معلميه بعد أن أثابهم وشكرهم واستبقى عنده معلمي الفروسية والرمي ليأخذ عنهم كل ما ينبغي له التدرب به والإحكام له.

ثم دعا بهرام بالنعمان[1] وأمره أن يأذن للعرب بإحضار خيلهم من الذكور والإناث على أنسابها فأذن النعمان للعرب بذلك وبلغ المنذر الذي كان من رأي بهرام في اختيار الخيل لمركبه فقال لبهرام لا تجشم العرب اجراء خيلهم ولكن مُرْ من يعرض الخيل عليك واختر منها رضاك وارتبطه لنفسك فقال له بهرام: لقد أحسنت القول ولكنني أفضل الرجال سؤدداً وشرفاً وليس ينبغي أن يكون مركبي إلاّ أفضل الخيل وإنما يعرف فضل بعضها على بعض بالتجربة ولا تجربة بلا إجراء.

فرضي المنذر مقالته، وأمر النعمان العرب فأحضروا خيولهم وركب بهرام والمنذر لحضور الحلبة وسرحت الخيل من فرسخين[2]

(1) النعمان بن المنذر الذي كان ملكاً في الحيرة على قبائل العرب من قبائل أكاسرة العجم.

(2) قيل الفرسخ هو تقريباً ثمانية كيلومترات (فارسية) وقيل هو عشرة آلاف ذراع وقيل ثلاثة أميال (هاشمية).

للسباق فبدر فرس أشقر للمنذر فقرَّبَه إلى بهرام وقال مبارك لك فيه.

فأمر بهرام بقبضه وعظم سروره به وشكر للمنذر صنيعه. وركب بهرام ذات يوم ذلك الفرس إلى الصيد فبصر بعانة[1] فرماها وقصد نحوها فإذا هو بأسد قد شد على عير[2] كان فيها فتناول ظهره بفيه ليقصمه ويفترسه فرماه بهرام رمية في ظهره فنفذت النشّابة من بطنِه وظهر العير وسرّتِه حتى أفضت إلى الأرض فساخت فيها إلى قريب من ثلثها[3] فتحرك طويلاً وكان ذلك بمشهد من وجوه العرب وحرس بهرام. ومن شدة إعجاب بهرام بما صنع أن أمر مصوره بتصوير ما كان في صدر مجلسه.

نفور بهرام من الإقامة في فارس

ولما تمت تربية بهرام عاد إلى أبيه وكان أبوه يزدجرد على عادته من سوء الخلق لا يحفل بولده بل اتخذه للخدمة فلقي من ذلك عناء وشدة لنفوره من عادات فارس فلم يطق المكوث في القصر فكلم أباه في الإذن له بالانصراف إلى الحيرة فأذن له بذلك فلحق ببلاد العرب.

حرمان بهرام جور من ولاية الملك

ولما هلك يزدجرد في غيبة ابنه تعاقد عظماء المملكة على أن لا يملكوا أحداً من ذرية الهالك لسوء سيرته وشذوذ أخلاقه وقالوا عنه لم يخلف واحداً من ذريته يتحمل الملك غير بهرام ولم يل بهرام لأبيه ولاية يُعرف بها خبره ولم يتأدب بأدب الفرس وإنما أدَّبه العرب وتخلق بأخلاقهم لنشأته بين أظهرهم، واجتمعت كلمة القوم، خاصتهم

---

(1) القطيع من حمر الوحش.

(2) حمار.

(3) في تاريخ الطبري: ثلثيْها ج ح / 71.

وعامتهم، على صرف الملك عن بهرام إلى رجل من عترة[1] أردشير ابن بابك يقال له كسرى فملَّكوه وأجلسوه على العرش.

سعي العرب في تنصيب بهرام جور ملكاً على فارس

انتهى إلى بهرام جور خبر تنصيب كسرى على عرش آبائه وإجماع أهل الحل والعقد على إقصائه لنشأته في غير بلادهم وتثقيفه ثقافة نابية عنهم قد تحمله على جعل العرب في المنزلة الأولى بين عناصر الدولة ويكون ذلك سبباً في تدهور العنصرية الفارسية فأقضه ذلك منهم ودعا إليه المنذر وابنه النعمان وآخرين من أكابر العرب ونفض إليهم[2] بجملة الحال ومما قال لهم: لا أحسبكم تجحدون خصّيصَي[3] والدي الذي أتاكم معاشر العرب بإحسانه وإنعامه وكانت فظاظته وشدته على الفرس وحدهم ثم كاشفهم بما أتاه من نعي أبيه وتمليك من ملكه رجال الدولة عن مؤامرة منهم لإقصائه عن الملك.

فقال المنذر لا يهولنك الأمر حتى ألطف[4] للحيلة فيه، ثم جهز عشرة آلاف رجل من فرسان العرب ووجههم مع ابنه النعمان إلى طيسفون وبهْأردشير عاصمتي الملك وأمره أن يعسكر قريباً منهما ويدمن إرسال طلائعه إليهما فإن تحرك أحد لقتاله قاتله وأغار على ما والاهما وأسر وسبى ونهاه عن المبالغة في سفك الدماء.

فسار النعمان في الجيش حتى نزل قريباً من المدينتين ووجه طلائعه

---

(1) نسل.

(2) نظر إليهم ليبصر في أيُّهم الرأي (ابن منظور/3).

(3) فضله.

(4) لطف بالشيء احتال عليه حتى اطلع على دواخله (ابن منظور/3).

إليهما وأبدى المسالمة واستعظام قتال الفرس فلانوا له وأوفد أصحاب الديوان ورجال المملكة جُواني صاحب رسائل يزدجرد إلى المنذر وكتبوا إليه يعلمونه بخبر مقدم النعمان. فلما قدم جواني على المنذر وقرأ عليه الكتاب قال له: إلْقَ الملك بهرام جور وأرسل معه من يوصله إليه ولما دخل جواني عليه راعه ما رأى من حسن طلعته وبهائه ومن فرط دهشته أغفل السجود بين يديه، وكان السجود تحيتهم لملوكهم، فكلمه بهرام في الأمر ووعده أحسن الوعود ورده إلى المنذر وأرسل إليه أن يجيبه في الذي كتب إليه.

فقال المنذر لجواني قد تدبرت الكتاب الذي وافيتني به وما وجه الملك بهرام النعمان إلى ناحيتكم إلاَّ لأن الله ملَّكه بعد أبيه وخوله إياكم فأقصيتموه وأتيتم بغيره غمْطاً لحقه. فلما سمع جواني ردّ المنذر أيقن أن جميع من تآمر على صرف بهرام مخصوم ومحجوج وقال للمنذر: إني لست محيراً جواباً ولكن سر، إن رأيت، إلى مقر الملك فيجتمع إليك به من العظماء وذوي الرأي وتشاوروا في الأمر ولك أن تبدي لهم ما يجْمل بالنصح وهم لن يخالفوك في شيء تشير به.

فأمر المنذر بردّ جواني إلى من أرسله إليه بعد أن علم علمه وبعد فصُوله بيوم استعد المنذر وسار ببهرام في ثلاثين ألف من فرسان العرب ذوي البأس والنجدة إلى عاصمة الملك ولما وردوها دعا المنذر بجمع الناس وأجلس بهرام على منبر من الذهب مكلل بالجواهر النفيسة وجلس عن يمينه فتكلم عظماء الفرس وأهل البيوتات الرفيعة وفرشوا للمنذر بكلامهم قساوة يزدجرد وسوء سيرته وأنه أكثر فيهم القتل والظلم. وذكروا أنهم إنما تعاقدوا وتواثقوا على صرف الملك عن ولد يزدجرد لهذا السبب وسألوا المنذر أن لا يجبرهم في أمر الملك على ما يكرهونه فوعى المنذر ما بثوا من مقالاتهم فقال لبهرام: أنت

أولى بإجابة القوم مني.

أثر الديموقراطية العربية
في خطاب بهرام جور السياسي

عند ذلك تكلم بهرام فقال: إني لست أكذبكم معشر المتكلمين في شيء مما نسبتم إلى يزدجرد لما استقر عندي من ذلك ولقد كنت زارياً عليه[1] لسوء هديه ومتنكباً لطريقه ودينه ولم أزل أسأل الله أن يمن علي بالوصول إلى العرش فأصلح كل ما أفسد وأرأب[2] ما صدع فإن أتت لملكي سنة ولم أف لكم بهذه الأمور التي عددت لكم تبرأت من الملك طائعاً وقد أشهدت بذلك علي الله والملائكة وموبذان موبذ وليكن هو حكماً بيني وبينكم وأنا مع الذي بينت على ما أعلمكم من رضاي بتمليككم من تناول التاج والزينة من بين أسدين ضاريين مشبلين فهو الملك.

تراجع الفرس عن قرارهم بشأن التخلي
عن بهرام جور

فلما سمع القوم مقالته هذه وما وعد من نفسه استبشروا بذلك وانبسطت آمالهم وقالوا فيما بينهم إنا لسنا نقدر على رد قول بهرام مع أنَّا إن بقينا على قرارنا بصرف الملك عنه نخشى أن يكون في ذلك هلاكنا لكثرة من استمد واستجاش من العرب ولكننا نمتحنه بما عرض علينا ممَّا لم يدعه إليه إلَّا ثقة بقوته وبطشه وجرأته فإن يكن على ما وصف به نفسه فليس لنا رأي إلَّا تسليم الملك إليه والسمع والطاعة له وإن يهلك ضعفاً ومعجزة فنحن من هلكته براء ولشره

---

(1) عائباً عليه معاتباً لَهُ.

(2) أصلح.

وغائلته آمنون وتفرقوا على هذا الرأي.

فعاد بهرام بعد أن تكلم بهذا الكلام وجلس كمجلسه الذي كان فيه بالأمس وحضره من كان يحاده[1]. فقال لهم إما أن تجيبوني فيما تكلمت أمس وإما أن تسكتوا باخعين لي بالطاعة[2].

فقال القوم: أما نحن فقد اخترنا لتدبير الملك كسرى ولم نر منه إلَّا ما نحب، ولكنا قد رضينا مع ذلك أن يوضع التاج والزينة كما ذكرت بين أسدين وتتنازعانها أنت وكسرى فأيكما تناولهما من بينهما سلمنا له الملك فرضي بهرام مقالتهم.

امتحان البطولة بين الملكين

فأتى بالتاج والزينة موبذان موبذ، وهو الموكل بعقد التاج على رأس كل ملك يملكونه، فوضعهما في ناحية وجاء بسطام اصبهبذ بأسدين. ضاريين مجوّعينْ مشبلين فوقف أحدهما من جانب الموضع الذي وضع فيه التاج والزينة والآخر بحذائه[3] وأرخى وثاقهما. ثم قال بهرام لكسرى دونك التاج والزينة فقال كسرى: أنت أولى بالبلد[4] وبتناولهما مني لأنك تطلب الملك بوراثة وأنا فيه مغتصب. فلم يكره بهرام قوله لثقته بنفسه وقوة بطشه وحمل جُرْزاً[5] وتوجه نحو التاج والزينة. وقال له موبذان موبذ استماتتك في هذا الأمر الذي أقدمت عليه إنما هو تطوع منك لا عن رأي أحد من الفرس ونحن براء إلى الله من إتلافك نفسك. فقال بهرام: أنتم من ذلك براء ولا

---

(1) يغضبه ويُعاديه.

(2) خاضعين مذعنين.

(3) أي بجواره، بجانبه.

(4) في تاريخ الطبري: بالبَدْء. 71/2.

(3) عموداً من حَدِيد.

وزر عليكم فيه. ثم أسرع نحو الأسدين. فلما رأى موبذان موبذ جده في لقائهما قال له: بُحْ بذنوبك وتب منها ثم أقدم إن كنت لا محالة متقدماً. فباح له بهرام بما سلف من ذنوبه ثم مشى نحو الأسدين فبدر إليه أحدهما فلما دنا منه بهرام وثب وثبة فعلا ظهره وعصر جنبي الأسد بفخذيه عصراً أثخنه وجعل يضرب على رأسه بالجُرْزِ الذي كان يحمله ثم شد الأسد الآخر عليه فقبض على أذنيه وعركهما بكلتا[1] يديه فلم يزل يضرب رأسه برأس الأسد الذي كان راكبه حتى دمغهما ثم قتلهما بمرأى من كسرى ومن حضر معه ذلك المشهد.

فوز بهرام جور بالرهان والملك

فكان أول من هنأ بهرام بالفوز وهتف به كسرى وقال عمرك الله إنا من حولك سامعون ـ مطيعون[2] لك، رزقك الله ملك أقاليم الأرض السبعة، ثم هتف به جميع الحضّر وقالوا قد أذعنا للملك بهرام وخضعنا له ورضينا به ملكاً وأكثروا الدعاء له.

ثم تقدم الوزراء والنبلاء والعظماء وأصحاب الولايات إلى المنذر وسألوه أن يكلم بهرام في التغمد[3] لإساءتهم في أمره والصفح عنهم فكلمه فيما سألوه واستوهبه ما كان احتمل عليهم في نفسه. فأسعفه بهرام فيما سأل وبسط آمالهم.

جلس بهرام على عرش الأكاسرة وهو ابن عشرين سنة وأمر من يومه ذلك أن يلزم رعيته راحة ودعة.

---

(1) في الأصل بكلتي.

(2) في الأصل: سامعين، مطيعين.

(3) يستر ما كان منهم.

طمع خاقان الترك في ملك فارس

كانت الدول المتاخمة لفارس يوم تولى بهرام جور عرش آبائه طامعة في استباحة بلاده والغلبة على ملكه، وكان أول من سبق إلى المكاثرة عليه خاقان الترك فإنه هيأ لغزوته 250000 مقاتل فبلغ الفرس ذلك فتعاظمهم وهالهم ودخل على بهرام من عظمائهم من له رأي ونظر فقالوا إنه قد أزَحَك[1] أيها الملك من بَائقة[2] هذا العدو وما قد شغلك عما أنت عليه من اللهو اللعب فتأهب له كي لا يلحقنا منه أمر فيه مسبة وعار.

فقال لهم إن الله ربنا قوي ونحن أولياؤه ولم يزدهم.

وبعد أيام تأهب للخروج إلى أذربيجان لينسُك في بيت نارها ويتوجه منها إلى أرمينية للصيد في آجامها فسار في سبعة رهط من العظماء وأهل البيوتات وثلثمائة رجل من رابطته ذوي بأس ونجدة واستخلف أخاً له يسمى نرسي على ما كان يدبر من ملكه فلم يشك الناس حين بلغهم مسيره فيمن سار واستخلافه من استخلف في أنه أراد الهرب من عدوه وإسلام مملكته، وتآمروا في إنفاذ وفد إلى خاقان والإقرار له بالخراج مخافة استباحة بلادهم واصطلامِهِ[3] مقاتِلَتَهُم إن هم لم يذعنوا له بذلك فبلغ خاقان ما أجمع عليه الفرس فآمن ناحيتهم وأمر جنده بالتورُّع فأتي بهرام عينٌ[4] كان وجّهه ليأتيه بخبر خاقان فأخبره بأمره فسار إليه بهرام في الذين كانوا معه فبيَّتَهُ وقتل خاقان بيده وأفشى القتل في جنده وانهزم من سلم من القتل منهم

---

(1) اشتدَّ عليك.

(2) البوائق هي الشرور والدواهي والغوائل.

(3) استئصاله. نقول: اصطلم القوم أي أبيدوا من أصلهم (ابن منظور/2).

(4) جاسوس.

ومنحوه أكتافهم وظفر بهرام بتاج خاقان وإكليله وغلب على بلاده واستعمل على ما غلب عليه موباذاناً[1] من قبله.

ووجه قائداً من قواده إلى ما وراء النهر وأمره بقتالهم فقاتلهم وأثخنهم حتى أقرُّوا لبهرام بالطاعة وأداء الجزية ثم انصرف عنهم إلى أذربيجان وأمر بما كان في إكليل خاقان من ياقوت أحمر وسائر الجواهر فعلق على بيت نار أذربيجان ثم رجع إلى طيسفون عاصمة ملكه وكتب منها إلى عماله بما كان من أمره مع خاقان ثم عين أخاه نرسي على ولاية خراسان واستولى بهمته على الديبل ومكران وما يليها من أرض السند وضم كل ذلك إلى فارس وأغزى عساكره بلاد الروم وكان موفقاً في كل مهامهٔ وحروبه.

وفي أواخر أيامه خرج الرماة للصيد بماه فركب ذات يوم للقنص فشد على عير وأمعن في طلبه فارتطم في جب فغرق فبلغ ذلك والدته فسارت إلى ذلك الجب بأموال عظيمة تفتش عليه وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه فلم يقفوا له على أثر.

واختلف المؤرخون في مدة ملكه فقال بعضهم هي ثماني عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرون يوماً وقال آخرون كان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وعشرين يوماً[2].

---

(1) حسب الطبري: مرزباناً ج 76/2.

(2) نلاحظ أن الكلام السابق منقول حرفيًّا من تاريخ الطبري 69/2 لذلك فإن النقص الذي نلاحظه عند المؤلف في تحديد مدة ملك بهرام على بعض الأقوال يكون عائداً إلى خطأ مطبعيّ.

يقول الطبري: قال بعضهم كان ملكه ثماني عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً وقال آخرون كان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً.

انشقاق ولدي بهرام جور

وبعد هلك بهرام جور[1] وقع بين ولديه خلاف على ولاية الملك وهما هرمز وفيروز وكان الأول على ولاية سجستان فتغلب على البلاد فهرب منه فيروز إلى بلاد اللياطلة وقال لملكها[2] أنه أحق من أخيه بالملك وسأله أن يمده بجيش يسترد به ملك أبيه فأبى ملك اللياطلة أن يجيبه إلى ما سأل حتى دس له من أخبره أن هرمز ملك جائر ظلوم فقال إن الجور لا يرضاه الله ولا يصلح عمل أهله فأمد فيروز بجيش لإنقاذ بلاده بعد أن دفع إليه الطالقان فتقدم لحرب أخيه هرمز وما زال به حتى قتله[3] وشتت جمعه وغلب علىْ الملك.

تدابير الحكومات الوطنية لملافاة أزمات شعوبها

اختلف المؤرخون في نعت الملك فيروز فابن هشام يصفه بالعدل وحسن السيرة والتدوين ويقول غيره إنه كان محارفاً[4] مشؤوماً على رعيته قوله وفعله فيما هو ضرر وآفة غليه وعلى أهل مملكته وقدْ انحطّت[5] على عهده سبع سنين متوالية فغارت الأنهار والقُنيّ والعيون وقحلت الغياض[6] والأشجار في الآجام والسهول وموتت

(1) الذي تذكره المصادر أن يزدجرد الثاني هو الذي خلف أباه بهرام جور ودام حكمه 18 سنة (من 437 إلى 455) وهو المعروف بلقب (صباحدوست) أي صديق الجندي.

(2) هو (جوش نواز) أي الملك المحسن. ويسمِّيه بعضهم فجانمن وخاقان وغير ذلك.

(3) بعد أن بقي في الحكم عاماً واحداً (455 - 456).

(4) منكود الحظ.

(5) وفي تاريخ الطبري قحطت 82/2.

(6) الغيضة مجتمع الأشجار في مصبِّ الماء (تجمع على غياض وأغياض وغيضات (ابن منظور/2).

فيها الطيور والوحوش وجاعت الأنعام والدواب حتى كانت لا تقدر أن تتحرك من الهزال وعمت بين الناس المجاعة والجهد فماذا صنع هذا الظالم على قول بعض المؤرخين لتلافي هذه الأزمة الشديدة؟

كتب إلى جميع عماله ورعيته بإسقاط الخراج والجزية والسُخرة[1] وتمليك الشعب حريته وتحريضه على السعي فيما يُقيته ويقيمه.

ثم أصدر أوامر مشددة في إخراج كل ما كان مخزوناً في الأهراء والمطامير من طعام وغيره مما يقوت الناس والتآسي فيه وترك الاستئثار به وأن يكون حال أهل الغنى والفقر وأهل الشرف والضِّعة واحداً في التآسي. وأنذرهم بأنهم إن بلغه أن إنساناً مات جوعاً عاقب أهل المدينة أو القرية أو الضيعة التي مات فيها الجائع.

وبهذه التدابير الخارقة ساس فيروز مملكته في تلك الأزمة والمجاعة سياسة لم يعطب فيها من الجوع ما خلا رجلاً واحداً من رستاق كورة أردشير خرة يدعى بدبده[2] قامت لمصرعه بلاد فارس وقعدت وتعظم ذلك أكابر الدولة والنبلاء وذهب الملك فيروز بنفسه إلى مكان هذه الفاجعة يبتهل إلى الله ويسأله العفو والمغفرة من حوبة[3] إهمال التعهد لأمر العامة حتى هلك واحد منهم جوعاً..!

وما زالوا يحرصون على تعهد الشعب حتى انقضت تلك السنوات العجاف ونزل الغيث وعادت المياه إلى مجاريها ونبت الزرع وأورقت الأشجار وأخضلت الأرض ودر الضرع.

---

(1) العمل قهراً وبلا أجرة (ن. م).

(2) بديه (بديه): تاريخ الطبري 83/2.

(3) الحوبة الإثـم (الحوب، الحاب).

ذلك مثل صغير من عناية حكومة كانت راموز[1] للاستبداد والظلم، لوقاية الشعوب من الهلاك يصح أن يكون مقياساً للحكومات العادلة التي يهلك فيها كل يوم خلق كثير من الجوع وأموالهم يتخم بها غيرهم.

وفي أخريات أيام فيروز جرت بينه وبين اللياطلة[2] الذين نصروه على أخيه حروب أودت بحياته في حفير سقط فيه كادت فارس تذوب فيها من جراء شفوفه ومغامراته لو لم يقيض الله لإنقاذها مؤخراً.

وتملك على فارس بعد مهلك فيروز ابنه بلاش[3] وكان له أخ آخر اسمه قباذ[4] نازعه الملك فغلبه وفر منه إلىٰ خاقان الترك يستنجده على قتال أخيه وكان بلاش حسن السياسة معتدل السيرة كلفاً بالعمارة وتجميل المدن وقد بلغ من حرصه على ذلك أنه كان لا يبلغه أن بيتاً خرب وجلا أهله عنه إلاَّ عاقب صاحب القرية على ترك انتعاشهم وسد فاقتهم حتى لا يضطر أحد إلى الجلاء عن أوطانه. ولم تمض على بلاش في الملك غير أربع سنوات حتى هلك ووافت أخباره قباذ فعاد إلى المدائن واستولى على الملك[5]. وكانت عنايته بتأسيس المدن عظيمة لما استفحل أمر الإقطاعات في البلاد وهي موزعة بين الحكام والموبذان، والشعب بينهما مسخر للخدمة، وإذا تكاثر أقصوا عن تلك المقاطعة ما زاد عن الحاجة. لذلك كان تأسيس المدن

---

(1) لعلها رمزاً إذ الرَّاموز هو البحر.

(2) ملك الهياطلة آنذاك هو اخشنوار (الطبري 84/2.

(3) بلاش بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور (482 أو 483 - 485).

(4) قباذ الأول ويسمَّى (خوش نواز).

(5) قيل (من 483 إلى 526) وقيل (من 485 إلى 531).

لاستيعاب أولئك المطرودين من المهن الزراعية ضروريّاً. وكان غضب الشعب شديداً من هذا الوضع الشاذ لا بد له من الانفجار في يوم من الأيام وتحرير البلاد من عبودية الاستملاك.

ظهور المنقذ مزدك

وفعلاً فقد انبثق مشكل الإقطاعات وتغلب الثيوقراطية[1] عن ظهور الداعية الانقلابي مزدك[2] بن بامداذ من أهل مذرية وكان يدعو إلى الدموقراطية[3] المطلقة ويقول إنما جعل الله الأرزاق في الأرض ليقسمها الناس فيما بينهم بالسواء، ولكن الناس تظالموا فيما بينهم وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ويردون من المكثرين على المقلين كذباً ورياءً، وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره[4] فأخذ به العامة لملاءمته لما في نفوسهم، قبل الدولة، وافترضوا شيوع هذا الرأي واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم وحملوا قباذ على السكوت وتوعدوه بالخلع إن نكث عنهم ووضعوه في مكان لا يصل إليه أحد سواهم ثم قالوا له إنك قد أثمت فيما عملت به فيما مضى من عمرك وليس يطهرك من ذلك إلَّا

---

(1) Thèocratie هذا الاصطلاح مأخوذ من كلمتين يونانيتين إحداهما تيوس بمعنى الله، وقراطوس بمعنى قوة أو سلطان. وهو يُطلق على النظام السياسي الذي يستند إلى السلطان الإلهي (معجم المصطلحات العلمية والفنية. يوسف الخياط ص 101).

(2) ادعى الوحي والإلهام وتكليم الآلهة التي تحلُّ روحها في النار.

(3) Democratie: سياسيّاً: إحدى صور الحكم التي تكون فيها السيادة للشعب اجتماعياً: أسلوب في الحياة يقوم على أساس من المساواة وحرية الرأي والتفكير (ن. من ص 247).

(4) لذلك يُقال أن مذهب الاشتراكيين مأخوذ عن هذا الرجل.

إباحة نسائك، وأرادوه على أن يدفع إليهم نفسه فيذبحوه ويجعلوه قرباناً للنار. ولما علم بذلك موبذان موبذ اجتمعت كلمته مع العظماء على خلع قباذ فخلعوه وحبسوه وملكوا مكانه أخاه جاماسبه. وَيَرْوُون أن أختا لقباذ أتت الحبس ولفت أخاها[1] في بساط من البسط وحملته على غلام من غلمانه وأخرجه فيه من الحبس، وهرب قباذ ولحق بأرض الهياطلة ليستمد ملكها[2] فأمده وحارب أخاه جاماسبه فغلب عليه وبقي في الملك دون أن يصلح نظام الإقطاعات إلى أن هلك وأعهد بالأمر من بعده إلى ابنه كسرى أنو شروان.

طمع العرب في ملك فارس

لما استولى الحارث بن عمرو بن حجر الكندي[3] على الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر ورأى ما عليه مملكة فارس من الضعف والارتباك أيام قباذ طمع في السواد فأمر أصحاب مسالحه[4] أن يقطعوا الفرات فيغيروا في السواد. فأتى قباذ الصريخ وهو بالمدائن فقال هذا من تحت كنف مُلكهم، ثم أرسل إلى الحارث بن عمرو أن العرب قد أغاروا على البلاد وأنه يحب لقاءه فلقيه. فقال له قباذ: لقد صنعت صنيعاً ما صنعه أحد قبلك. فقال له الحارث: ما صنعت ولا علمت، ولكنها لصوص العرب ولا أستطيع ضبط البلاد إلاَّ بالمال والجنود. قال له قباذ فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تطعمني من السواد ما أتجهَّز به وأتَّخذ به سلاحاً. فأمر له بما يلي جانب العرب من

(1) في الأصل: ولفَّتْهُ.

(2) الذي ساعده على ارتقاء العرش.

(3) من ملوك الغساسنة. والحارث اسم عدّة ملوك منهم.

(4) أي ذوي السلاح والقائمين على مواضعه.

أسفل الفرات وهي ستة طساسيج[1]. فأرسل الحارث بن عمرو إلى تبع[2] باليمن: إني قد طمعت في ملك الأعاجم وقد أخذت منه ستة طساسيج، فاجمعْ الجنود وأقبلْ فإنه ليس دون ملكهم شيء لأن الملك تمزدك لا يأكل اللحم ولا يبيح إراقة الدماء.

فتجهز تبع وجمع الجنود وسار حتى نزل الحيرة وقرب من الفرات ووجه ابن أخيه شَمِراً ذَا الجناح إلى خراسان وابنه حسان إلى أرض الصُّغد وقال أيكما سبق إلى الصين فهي له ففتحا بلاداً كثيرة ثم عادا إلى اليمن من الصين غانمين دون أن يستقر لهما أمر في البلاد التي فتحاها.

ولاية كسرىٰ أنوشروان[3]
على مملكة فارس

افتتح عهده بإبطال مذهب مزدك وتصدى لمنع المنانية[4] وثبت ملة المجوس القديمة وقوى المقاتلة بالأسلحة والكراع وارتجع بلاداً كانت خرجت عن فارس في عهد أبيه لأسباب شتى، منها السند، وبست، والرخج، وزابلستان، وطخارستان، ودردستان، وكابل. ثم أجمع الرأي على إبادة المزدكيين فجمعهم، وضربت أعناقهم وقُسمت أموالهم على أهل الحاجة، وقتل جماعة كثيرة ممن كان دخل على الناس في أموالهم ورد الأموال إلى أهلها كل امرأة غلبت على نفسها

---

(3) الطسوج: الناحية.

(2) الملقب بالرائش.

(3) كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور (526 - 572) وقيل (531 - 579)، ملك ساساني حارب يوستيانيوس واحتلَّ أنطاكية ولاذق. اشتهر بعدله فصار معروفاً بلقب العادل.

(4) المانوية (تجارب الأمم 177/1).

أن يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ثم تُخيرُ المرأة بين الإقامة عنده وبين التزويج من غيره، إلّا أن يكون لها زوج أول فتردَّ إليه. وأمر بكل من كان أضرَّ برجل في ماله أو ركب أحداً بمظلمة أن يؤخذ منه الحقّ ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه. وأمر بعيال ذوي الأحساب الذين مات قيمهم فكتبوا له فأنكح بناتهم الأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال وأنكح شبانهم من بيوتات الأشراف وساق عنهم المهور وأغناهم وخير نساء والده بين أن يقمن مع نسائه فيواسينَ أو يبتغين أكفاءهن من البعولة. وأمر بكري[1] الأنهار لتطهيرها وحفر القنى[2] وإسلاف[3] أصحاب العمارات وتقويتهم، وبإعادة كل جسر قطع أو قنطرة كسرت أو قرية خربت أن يرد ذلك إلى أحسن مما كان عليه من الصلاح وبنى الطرق وسهل السبل ووكل ببيُوت النيران وجدد ما تخرب منها من القصور والحصون.

فلما استوثق له الملك ودانت له البلاد حارب الروم والخزر واستولى على كثير من بلدانهم وعاد الملك إلى المناذرة بعد خروجه من أيديهم في أيام أبيه. ورجعت الأرستقراطية[4] في أيامه أشد مما كانت عليه.

---

(1) كرى النَّهر أي حفر فيه حفرة جديدة.

(2) القنى والقناء والقنوات مفردها القناة وهي ما يحفر في الأرض ليجري فيه الماء.

(3) إقراضهم المال.

(4) Aristocratie أصلها اليوناني من كلمتين: Aristos أي عظيم و Kratos أي السلطة والقوة. فالحكم فيها بيد المتمتعين بمزايا خاصَّة أي أن الحكومة الأرستقراطية هي حكومة طبقة تمثل الأقلية الممتازة (معجم المصطلحات العلمية والفنية ص 190).

استنجاد اليمن بالفرس

وفد على كسرى[1] من اليمن سيف بن ذي يزن[2] يستنجده لدفع الحبشة عن بلاده ولما دخل عليه برك ثم قال أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة فسأله كسرى: أي الأغربة، الحبشة أم السند؟ قال بل الحبشة، فجئتك لتنصرني عليهم وتخرجهم عني فأنجده بثمانماية رجل عين عليهم وهرز ثم حملهم في ثماني سفائن في كل سفينة ماية رجل بما يصلحهم في البحر. وفي الطريق غرقت سفينتان فخلصت إلى ساحل عدن ست سفائن فيها ستمائة رجل فيهم وهرز وسيف بن ذي يزن فهزموا الحبشة ودخلوا صنعاء. وكتب وهرز إلى كسرى فإني قد ضبطت اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة: فكتب إليه كسرى أن يملك سيف بن ذي يزن ويفرض عليه جزية يؤديها كل عام ويأمره بالانصراف إليه.

عدوان العرب على بعضهم

كانت بين الفرس والروم موادعة فوقعت ثائرة بين خالد بن جبلة، عامل الروم على بلاد العرب الخاضعة لهم، وبين المنذر بن النعمان، عامل الفرس على الحيرة. فأغار الأول على حمى الثاني فأحدث في أصحابه مقتلة عظيمة وغنم منه أموالاً كثيرة فشكا ذلك المنذر إلى كسرى وسأله الكتاب إلى ملك الروم في إنصافه من خالد فكتب كسرى بإنصاف المنذر من خالد وأن لا يستخف بما كتب به فيكون انتقاض ما بينهما من العهد. ولما لم يحفل بذلك استعد كسرى

(1) كسرى أنو شروان الفارسي.

(6) كان ذلك على ما جاء في أغلب الروايات (نحو 570) اشتهرت قصته لأنها خير مثال على الشعور القومي العميق.

فغزا بلاد الروم في بضعة وتسعين ألف مقاتل فاحتل عنوة دارا والرهماء ومنبج وقنسرين وحلب وأنطاكية وحمص واحتوى على ما كان فيها من الأموال والعروض وسبى أهل أنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد فلم يسع ملك الروم إلاَّ أن يبتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه كل سنة على أن لا يغزو بلاده.

أكبر حادث عالمي حدث في عهد كسرى أنوشروان

يعدُّ مولد محمد بن عبدالله منقذ العالم ورسول الله إلى الخليقة وذلك في السنة الثانية والأربعين من حكمه، ومات كسرى في السنة الثامنة والأربعين وكان عمره ﷺ يومئذ ست سنين.

وخلف كسرى على عرش فارس ابنه هرمز الثاني[1] وكان كثير الإحسان إلى الضعفاء والمساكين، والحمل على الأشراف والأكابر لتخفيف وطأتهم فعادوه وأبغضوه وكان في نفسه عليهم مثل الذين عليهم له. وبلغ من تحريه لحقوق الضعفاء أنه خرج إلى ماه[2] ليصيف فخرج المنادي في عساكره أن يتحاموا المسير في مواضع المحروث من الأرض وأن لا يضروا بأحد ويمنعوا دوابّهم من الفساد فيها ووكل من يتعاهد العساكر في ذلك ومعاقبة من تعدى أمره، وكان ابنه كسرى[3] في عسكره فحرن فرس من خيله ووقع في محرثة فرتع فيها وأفسد جانباً منها فأخذ ذلك الفرس ودفع إلى من وكله

---

(1) بل هرمز الرابع (574 - 591) وقيل (579 - 590).

(2) اسم بلدة بأرض فارس.

(3) كسرى الثاني أبرويز.

هرمز بالعقاب على ذلك فلم يقدر الرجل على إنفاذ أمر هرمز في ابنه ولا في أحد ممن كان معه في حشمه فرفع ما رأى من إفساد الفرس إلى هرمز فأمر أن يجدع أذنيه ويبتر ذنبه ويغرم كسرى ثمن ما أفسد فخرج الرجل لينفذ أمره في كسرى ومركبه فدسَّ له كسرى رهطاً من العظماء ليسألوه التغيب في أمره فلقوه وكلموه في ذلك فلم يجب إليه فسألوه أن يؤخر ما أمر به هرمز في الفرس حتى يكلِّموه فيأمر بالكفِّ عنه، ففعل. فلقي أولئك الرهط هرمز وأعلموه أن الفرس الذي أفسد ما أفسد مروة فأخذ من ساعة وقوعه وسألوه أن يأمر بالكف عن جذعه وتبتيره لما فيها من سوء الطيرة على ابنه فلم يجبهم إلى ما سألوه وأمر بالفرس فجذع وبتر ذنبه وغرم كسرى مثل ما كان يغرم غيره. ثم ارتحل.

وركب هرمز ذات يوم أوان إيناع الكروم إلى بساط المدائن وكان ممره على بساتين وكروم وأن رجلاً من الأساورة[1] اطلع في كرم فرأى فيه حصرماً فأصاب منه عناقيد ودفعها إلى غلام كان معه وقال له اذهب بها إلى المنزل وأطبخها بلحم واتخذ منها مرقاً فإنَّها نافعة في هذا الإبان فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصرخ في وجهه فخاف الرجل وبلغ من إشفاقه على نفسه من عقوبة هرمز على تناوله ما ليس له فيه من ذلك الكرم أن دفع إليه منطقة[1] محلَّاة بالذهب عوضاً له عن الحصرم لإسكاته وافتدى نفسه بها ورأى أن قبضها وتخليه عنه منَّة.

ومما يذكر عنه أنه كان شديد القساوة صارم المضاء فقد قتل من

---

(1) الأساورة قوم من العجم نزلوا البصرة قديماً.

(2) أي نطاقاً.

العلماء والنبلاء أناساً كثيرين وأسقطهم من مراتبهم ودرجاتهم إيثاراً للديموقراطية على الأوتوقراطية الطاغية وبلغ عدد من قتل منهم 13600 رجل وأنه لم يكن له رأي إلاَّ في تأليف العامة وإدنائهم منه رغم ما كان أنزله بهم أبوه أنوشروان يوم فتكه بالمزدكيين.

ومما زاد في سخط الخاصَّة على الملك هرمز أن الهرابذة[1] رفعوا إليه عريضة يبغون فيها، على النصارى، وكانوا يتوقعون الوقيعة بهم كما فعلوا بالمزدكيين فوقع فيها بيده:

إنه كما لا قوام لسرير ملكنا بقائمتيه المتقدمتين دون قائمتيه المؤخرتين فكذلك لا قوام لملكنا ولا ثبات له مع استفسادنا مَنْ ببلادنا من النصارى وأهل سائر الملل المخالفة لنا، فأقصروا من البغي وواظبوا على أعمال البر ليرى ذلك النصارى وغيرهم من أهل الملل فيحمدوكم عليه وتتوق أنفسهم إلى ترجيح ملّتكم.

طمع الدول المجاورة لفارس في اقتسامها

لما شعرت الدول المجاورة للمملكة الفارسية بارتباك أحوالها واضطراب سياستها وتفشي النزاع بين طبقاتها العالية والشعب دبَّ إليها دبيب الطمع في انتهاب أطرافها على عهد هرمز. فقد استعد «شابة» خاقان الترك بحوالى 300000 مقاتل للهجوم على باذغيس وهراة. وسير ملك الروم 80000 مقاتل على أطراف بلاد الجزيرة. وداهم الخزر القوقاز. ونزل زعيمان من العرب يقال لأحدهما عباس الأحول وللآخر عمرو الأزرق في جمع عظيم من العرب بشاطىء الفرات وشنوا الغارة على أهل السواد، بحيث إن الأعداء اكتنفوا بلاد فارس من كل جانب. وبلغ من هوانهم عليهم أن خاقان الترك

(1) الهربذ (فارسية) خادم نار المجوس.

أرسل إلى هرمز يؤذنه بالهجوم على بلاده ويقول في إنذاره: رمّوا قناطر الأنهار والأودية التي سأجتاز عليها إلى بلادكم، واعقدوا الجسور على كل نهر لا قنطرة له، وافعلوا ذلك في الأنهار والأودية التي عليها مسلكي من بلادكم إلى أرض الروم لإجماعي المسير إليها من بلادكم.

فلم يتوان هرمز عن صدِّه وتأديبه بل نَهَد إليه[1] بجيش مؤلف من سبعين ألف مقاتل بقيادة بهرام[2] ولم يشعر به ملك الترك حتى دنا منه جيش الفرس فدارت الحرب بين الفريقين وقتل الخاقان شابة في إحدى الوقائع بسهم رماه به بهرام وفر ابنه برموذة إلى أحد الحصون بعد انكسار جند الترك فألح عليه بهرام بالحصار حتى استسلم فوجهه إلى هرمز لينظر في أمره ومعه الغنائم وقد بالغ مؤرخو الفرس في تقديرها بحمولة 250000 بعير فشكر هرمز لبهرام صنيعه وبالغ في تقديره.

تواطؤ الارستقراطيين على خلع هرمز وتمليكهم ابنه أبرْويز

لما ارتفع رأس فارس بهذا الانتصار خاف الأرستقراطيون أن ينقلب وبالاً عليهم فتواطؤوا على خلع هرمز[3] فأقبلوا عليه نحو المدائن فتداولوا في أمر السياسة التي كان يسير عليها ومشايعته لحقوق العامة وتضييقه على الخاصة فأجمعوا على خلعه وترشيح ابنه أبرويز وكان مشايعاً لهم فآذنوه بالمسير إلى أذربيجان فاجتمع إليه هناك عدة

---

(1) نهد للعدوّ إلى العدوّ أسرع في قتاله.

(2) بهرام جوبين.

(3) وقيل إن القائد بهرام هو الذي جاهر بخلعه ونصب مكانه ابنه لما استشاط غيظاً من احتقاره له نتيجة وشاية أحد المقربين.

من المرازبة والأصبهذين فقلدوه بيعتهم[1] ووثب العظماء والنبلاء بالمدائن وفيهم بندي وبسطام خالا أبرويز، فخلعوا هرمز وسَمَلُوا عينيه تحرّجاً من قتله.

فأقبل أبرويز بمن شايعه نحو المدائن واستولى على المملكة وكان يتحرز من بهرام إلى أن التقى به وهو على شاطىء النهروان، فجرت بينهما مناظرة وموافقة دعا في أثنائها أبرويز بهرام فقال: إنك يا بهرام ركن لمملكتنا وسناد لرعيتنا وقد حسن بلاؤك عندنا ورأيت أن نختار لك يوماً صالحاً لنوليك فيه أصبهبذة بلاد الفرس جميعاً. فقال بهرام معرضاً: وازداد من كسرى قرباً؟! لكني اخْتَارِ لك ما أصابك فيه بخروجك على أبيك فامتلأ صدر كسرى حنقاً وحقداً من غير أن يبدو في وجهه شيء من ذلك.

وتفرق كل منهما على غاية الوحشة لصاحبه وجرت بينهما حروب اضطرت أبرويز إلى الهرب[2] بعد أن أحس من أصحابه بالفتور والانخذال.

أبرويز في حضرة أبيه واستنجاده بالروم

قدم أبرويز على أبيه بطيسفون ولما أعلمه بما قد تبينه من أصحابه وشاوره في أمره فأشار عليه بالمسير إلى موريس[3] إمبراطور الروم ليستنجده فأحرز حرمه في موضع أمن عليهم بهرام وخاف المتآمرون على خلع هرمز أن يردّ بهرام، في أثناء مغيب أبرويز هرمز إلى الملك ويكتب إلى ملك الروم عنه في ردهم فيتلفهم جميعاً، فأعلموا أبرويز بذلك قبل ارتحاله واستأذنوه في قتل هرمز فلم يحر جواباً ثم انصرفوا

---

(1) وهو ما زال صبيّاً (591 - 629).

(2) هرب إلى بلاد التتّر فقابله سلطانهم مقابلة حسنة.

(3) وتسميه بعض المصادر (موريق) (سنة 591).

إلى هرمز فقتلوه خنقاً.

وسار أبرويز إلى بلاد الروم في رفقة من رجاله ولما لقيه الإمبراطور لَامَهُ على ما فعله بأبيه ثم أنجده وأعاده إلى بلاده قرير العين.

رجوع أبرويز من بلاد الروم
وتقريره مبدأ حرية التدين

عاد أبرويز من بلاد الروم مع النجدة وكان عددها ستين ألف مقاتل بعد أن تعاقد مع الامبراطور موريس على طرح الأتاوة التي التزم بها سلفه لكسرى أنوشروان وعلى إقرار حرية التدين في المملكتين. فللنصارى في بلاد فارس عمارة كنائسهم وقبول من يريد الدخول في ملَّتهم من غير المجوس، وللمجوس مثل ذلك في بلاد الروم يقيمون بيوتاً لعبادة النار وقبول من يرغب في اعتناق المجوسية.

ولما وصل أبرويز إلى صحراء الدنق ومعه العساكر الرومية تلقاه بهرام بمن معه من جنود الفرس وجرت بينهم حروب شديدة كانت له الغلبة فيها. فانحاز بهرام إلى خراسان ثم سار إلى الترك، وعاد أبرويز إلى المدائن وفرق في جند الروم عشرين ألف ألف درهم مكافأة لهم على بلائهم ثم صرفهم إلى بلادهم معززين مكرومين.

ولبث بهرام مكرَّماً عند خاقان الترك حتى احتال أبرويز على خاتون امرأة الخاقان ولاطفها بالجواهر وغيرها فدست له من قتله فاغتم الخاقان لقتله وطلق خاتون لهذا السبب واستراح أبرويز من خصمه العنيف

خلع الإمبراطور موريس وقتله
وانتقام الملك أبرويز له

ثار الجند الرُّومي في الدانوب على الإمبراطور موريس فقتلوه

ونصبوا مكانه فوكاس وكان ظلوماً جباناً ففر ابن للقتيل إلى فارس لاجئاً إلى الملك أبرويز فلما وصله وعلم بمقتل حليفه غضب وعول على الانتقام له فجهز ثلاثة جيوش لتدويخ إمبراطورية الروم فنهد جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة راميوزان وجيشاً إلى القسطنطينية بقيادة فرهان والثالث إلى مصر وبلاد النوبة بقيادة شاهين.

أما الجيش الموجه إلى القسطنطينية فقد ذهب وأناخ على ضفة الخليج بعد أن ضرب بلاد الروم وعاث فيها. وأما الجيش الموجه إلى سوريا فقد تسلط على البلاد إلى أن انتهى إلى فلسطين احتل القدس فأسر بطرياركها[1] ومن كان فيها من القسس وأخذ خشبة الصليب التي يقدسها النصارى وكانت موضوعة في تابوت من ذهب وبعث بها إلى مولاه، والثالث الموجه إلى مصر فإنه دوخ البلاد وبعث إلى أبرويز بمفاتيح الإسكندرية وتضاءلت إمبراطورية الروم حتى لم يبق لإمبراطورها من ممالكها غير القسطنطينية فخرج عليه الشعب وطلبوا حاكم قرطاجنة لمساعدتهم عليه فأرسل إليهم ابنه المدعو هرقل ومعه أسطول عظيم فخلع فوكاس بعد واقعة بحرية بين الطرفين بمياه القسطنطينية ثم قطع رأسه فوق سفينته وخلص الدولة من شره سنة 610 ميلادية.

وبعد قتل فوكاس تقلد هرقل[2] عرش الإمبراطورية وكانت مهدمة فقد انتزع الأفارقة المتبربرون ممالكها في أوربا والفرس آسيا الصغرى وفلسطين ومصر. ولما أحس بهذا الضيق عزم على ترك

---

(1) البطرك والبطريرك والبطريك: رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معيّنة أو في طائفة من الطوائف المسيحية. (الجمع بطاريك وبطاركة).

(2) هرقل الأوَّل Hèracluis 1er ولد نحو 575 وتوفي سنة 641. هو إمبراطور بيزنطي من 610 إلى وفاته. طرد الساسانيين من سورية. انتصر العرب على جيوشه في اليرموك.

القسطنطينية واتخاذ قرطاجنة عاصمة له فرده البطريارك عن ذلك فعدل عن عزمه وتفرغ لجمع فلول الجنود وتوجه لقتال الفرس واسترد منهم آسيا الصغرى حتى جهات الدجلة وعقد معهم معاهدة على رد الأسلاب التي انتزعوها من بيت المقدس ومن ضمنها خشبة الصليب ولكن لم يردوها وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، وإنما ردت في عهد تمليك بوران.

ولما بلغ كسرى انتصارات الروم على جنوده ومقتل رجاله، انحاز من دسكرة الملك إلى المدائن وتحصن فيها ثم كتب إلى قواد الجند المنهزمين يأمرهم أن يدلوه على كل رجل منهم ممن فشلوا في الحرب ولم يرابطوا في مراكزهم ليأمر بمعاقبتهم بقدر ما استوجبوا فأخرجهم بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه والتماس الحيل لنجاة أنفسهم.

ثم أخذت الفُتوق تتابع في مملكته بما كان يظهره من شفوف واستبداد ومن ذلك اضطهاده للنعمان لما راسله بشأن طلب جواري عربيات فقال النعمان أما في بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟! فأسرها أبرويز في نفسه وعول على هلاكه فسكت عنه مدة ثم كتب إليه يدعوه إلى المدائن فارتحل النعمان إلى جبال طي على أن يمنعوه من كسرى فأبوا عليه ذلك وقالوا لولا صهرك لقاتلناك فإنه لا حاجة لنا في معاداة كسرى فأقبل على أحياء العرب إلى أن وافى بني رواحة من عبس قالوا إن شئت قاتلنا معك قال لا أحب أن أهلككم فإنه لا طاقة لكم بكسرى، فأقبل حتى نزل بذي قار في بني شيبان فلقي هانىء بن قبيصة وكان سيداً منيعاً والبيت يومئذ في ربيعة بين آل ذي الجدين لقيس بن مسعود وكان كسرى قد وهب إلى قيس لإبلة[1]

---

(1) ؟؟

فكره النعمان أن يدفع له أهله وعلم أن هانئاً مانعه مما يمنع منه أهله وتوجه النعمان إلى كسرى فلما بلغه أنه بالباب بعث إليه فقيده ودفع به إلى سجن خانقين ومكث فيه إلى أن مات.

انتصار العرب على الفرس في واقعة ذي قار

لما نكث أبرويز النعمان بن المنذر استعمل على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي وكتب إليه أن يضم ما كان للنعمان وكان النعمان لما خاف كسرى استودع هانىء بن قبيصة حلقته ونعمه وسلاحاً فبعث إياس إلى هانىء أن أرسل إليّ ما استودعك النعمان من الدروع وغيرها فأبى هانىء أن يسلم خفارته فلما منعها هانىء غضب كسرى وأظهر أنه يريد استئصال بكر بن وائل فأشار عليه النعمان بن زرعة التغلبي أن يمهلها حتى تقيظ فإنهم يتساقطون على ماء لهم يقال له ذوقار[1] فأرسل لهم كسرى النعمان بن زرعة أن يختاروا واحدة من ثلاث خصال إما أن يعطوا بأيديهم فيحكم فيهم كسرى كما يشاء وإما أن يأذنوا بحرب وإما أن يرحلوا ويعروا[2] الديار فتشاوروا فقالوا إن أعطينا بأيدينا قتلنا وسبيت ذرارينا وإن هربنا قتلنا العطش وتلقتنا تميم بالهلاك فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة بن سيار العِجْلي وكان ميموناً وآذنوا كسرى بحرب فبعث إلى إياس وإلى الهامرز التستري وكان مسلحه بالقطقطانية وإلى جلابزين وكان مسلحه ببارق وإلى قيس بن مسعود وكان مسلحة على سفوان أن يوافوا إياساً فإذا اجتمعوا فأمرهم إليه.

وجاءت عساكر الفرس عليها الأساورة ومعها الأفيال والخيل فلما

---

(1) إليه تُنسب وقعة ذي قار التي اشتركت فيها قبيلة عجل.

(2) أعرى المكان أي تركه.

دنت الجنود بمن معهم انسل قيس بن مسعود ليلاً فأتى هانئاً فقال له إعط قومك سلاح النعمان فيقووا فإن هلكوا كان تبعاً لأنفسهم وكنت أخذت بالحزم وإن ظفروا ردوه عليك ففرق الدروع والسلاح في ذي القوس والجلد من قومه فتقدم حنظلة بن ثعلبة وضرب على نفسه قبة ببطحاء ذي قار وآلى أن لا يترك مكانه حتى تفر القبة واستقاموا على ذلك نصف شهر فأتتهم العجم فقاتلوهم فجزعت العجم من العطشة فهربت ولم تستطع محاصرتهم ولاذت بالجبال فتبعتهم بكر وعجل وائل بكر فتقدمت عجل وأبلت يومئذٍ بلاءً حسناً واضطمت عليهم جنود العجم فقال الناس هلكت عجل ثم حملت بكر فوجدوا عجلاً ثابتة تقاتل فثبتوا لهم بالجبابات يوماً ثم عطش الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار فأرسلت اياد إلى بكر سراً وكانوا ضمن جند الأعاجم أيّ الأمرين أحب إليكم أن نطير تحت ليلتنا فنذهب في سبيلنا، أو نقيم وننهزم حين تلاقوا القوم؟ قالوا بل تقيمون فإذا التقى الجمعان انهزمتم بهم. فصبحتهم بكر بن وائل والضعن واقفة يذمرن الرجال غلى القتال وأرسلوا يزيد بن حمار السكوني وكان حليفاً لبني شيبان كميناً مع الشيبانيين إلى الجب ولما اجتلد الفريقان ولّت اياد منهزمة كما وعدت وخرج الكمين ووقفت لهم عجل كأنهم طن قصب لا يفوت بعضهم بعضاً ثم تذامروا فرموهم بجباههم فلم تكن إلا أياماً فأمالوا يقتلون الفرس ومن معهم من بين بطحاء ذي قار إلى الرحضة لا ينظرون إلى سلب ولا إلى غنيمة حتى هلك الفرس ومن انهزم منهم لم يعد يلوي على شيء ولم يرتفع لهم بعدها رأس.

ولما وصلت أخبار الواقعة إلى النبي ﷺ قال اليوم انتصفت العرب من العجم وهي بداية عهد تحرير العرب. وأعقبها ذهول في الفرس

يدل على تقلص حكمهم ونزولهم إلى أحط الدركات.

الارتباكات الداخلية في فارس وخلع أبرويز

وبعد هذه الواقعة استخف كسرى أبرويز بالناس واحتقرهم وعاملهم بمنتهى الإرهاق فإنه أمر زاذان فروخ حارس بابه الخاص أن يقتل كل مقيد في سجونه وكانوا على ما نقله الطبري ستة وثلاثين ألفاً فأبى زاذان أن يقدم على قتلهم. فكسب بذلك كسرى عداوة أهل مملكته وملّ الناس حكمه وأجمعوا على خلعه وعدوا عليه أموراً: **منها**: احتقاره للشعب واستخفافه بعظمائه. **الثاني**: أمره بقتل كل من كان في السجن، **الثالث**: عزمه على قتل الفل[1] الذين انصرفوا إليه من حرب الروم لما هزمهم هرقل، **الرابع**: تسليط العلج فرخان زاذ على البلاد وعسفه في الناس. ثم ساروا إلى عقر بابل وفيه شيرويه بن أبرويز ومعه إخوته فأخذوه معهم وأقبلوا به إلى مدينة بهرسير ليلاً وبايعوه بالملك، فأمر بتخلية سبيل من كان في سجونها وقدم عليه الفل الذين أراد أبوه قتلهم وكانوا ينادون قباذ شاهنشاه وحين أصبحوا قصدوا رحبة كسرى فهرب من كان في قصره من الحرس وانحاز أبرويز بنفسه ودخل شيرويه دار الملك واجتمع إليه وجوه المملكة فملكوه وأرسل إلى أبيه يعنفه بما كان منه. ولما اجتمع إليه أهل الحل والعقد قالوا له إنه لا يستقيم الأمر وفي البلاد ملكان فإما أن تقتل كسرى ونحن حولك المدينون لك بالطاعة وإما أن نخلعك ونعيده على ما لم نزل نعطيه قبلك. فهدت هذه المقالة من نفس شيرويه وكسرته وأمر بتحويل كسرى من دار المملكة إلى دار رجل من خاصته يقال له مارسفند فحمل كسرى على برذون وقنع رأسه

(1) الجماعة.

وسير به إلى تلك الدار ومعه ناس من الجند فمروا به على إسكاف جالس في حانوت على الطريق فلما بصر بفرسان من الجند معهم فارس مقنع عرف بالقوة أنه كسرى فحذفه بقالب كان في يده فعطف عليه جندي فاخترط سيفه فضرب به عنق الإسكاف ثم لحق بأصحابه.

فلما وصل كسرى أبرويز إلى دار مارسفند جمع شيرويه من كان بالباب من العظماء وأهل البيوتات فقال إنا قد رأينا أن نبدأ بالإرسال إلى الملك أبينا بما كان من إساءته في تدبيره ونُوقفه على أشياء منها لنعلم رأيه ودفاعه عن نفسه فأجابوه إلى ما سأل.

فدعا شيرويه أسفاذ جشنس الذي كان له تدبير المملكة فقال له انطلق إلى الملك أبينا فقل له عن لساننا:

التهم الموجهة إلى أبرويز

إنا لم نكن سبباً للبلية التي أصبحت فيها ولا أحد من رعيتنا أنزلها بك ولكن الله قضاها عليك جزاءً منه لك بسيء أعمالك منها:

اجترامك إلى هرمز أبيك وفتكك به وإزالتك الملك عنه وسملك عينيه وقتلك إياه شر قتلة وما قارفت في أمره من الإثم العظيم ومنها:

سوء صنيعك إلينا معشر أبنائك في حظرك علينا مثافنة الأخيار ومجالستهم وكل أمر يكون لنا فيه دعة وسرور وغبطة. ومنها:

إساءتك بمن خلدت السجون منذ دهر حتى شقوا بشدة الفقر وضيق المعاش والغربة عن بلادهم وأهاليهم وأوطانهم. ومنها:

سوء نظرك في استخلاصك لنفسك من النساء وتركك العطف عليهن بمودة منك والصرف لهن بمعاشرة من كن يرزقن منه الولد

والنسل وحبسك إياهن قبلك مكرهات ومنها:

ما آتيت إلى رعيتك عامة في اجتبائك إياهم الخراج وما انتهكت منهم في غلظتك وفظاظتك عليهم. ومنها:

جمعك الأموال التي اجتبيتها الناس في عنف شديد واستفساد منك إياهم وإدخالك البلاء والمضارة عليهم. ومنها:

تجميرك[1] من جمرت في ثغور الروم وغيرهم من الجنود وتفريقك بينهم وبين أهليهم. ومنها:

غدرك بموريس امبراطور الروم وكفرك أنعامه عليك فيما كان من إيوائه إياك وحسن بلائه عندك ودفعه عنك شر عدوك وتنويهه باسمك في تزويجه إياك أكرم النساء من بناته عليه وآثرهن عنده واستخفافك بحقه وتركك اطلابه[2] ما طلب إليك من رد خشبة الصليب التي لم يكن بك ولا بأهل بلادك إليها حاجة.

هذا ما رماك به خصومك فإن كان لك حجج تدلي بها عندنا وعند الرعية فادْلِ بها وإن لم تكن لك حجة فتب إلى الله من قريب وأنب إليه حتى نأمر فيك بأمرنا.

فوعى أسفاذ جشنس رسالة كسرى شيرويه هذه وتوجه من عنده إلى كسرى أبرويز ليبلغه إياها فلما توجه إلى البيت الذي حبس فيه ودخل عليه أبلغه الرسالة ولم يغادر منها كلمة.

تفنيد أبرويز للتهم الموجهة إليه

فقال كسرى في مرجوع تلك الرسالة بلغ عني شيرويه القصير

(1) جمر الجيش: جمعه وحبسه. (ابن منظور/ 1).
(2) تطلّب واطّلب الشيء أي طلبه مرّة بعد أخرى (ابن منظور/ 2).

العمر: إنه لا ينبغي لذي عقل أن يبث من أحد الصغير من الذنب ولا اليسير من السيئة إلا بعد تحقق ذلك عنده وتيقنه إياه منه فضلاً عن عظيم ما بثثت ونشرت وادعيت منا ونسبتنا إليه من الذنوب والجرائم مع أن أولى الناس بالرد عن ذي ذنب وتوبيخ ذي جرم من قد ضبط نفسه عن الذنوب والجرائم ولو كنا على ما أضفتنا إليه لم يكن ينبغي أن تنشره وتؤنبنا أيها القصير العمر القليل العلم فإن كنت جاهلاً بما يلزمك من العيوب ببثك مِنَّا ما بثثت ونسبتك إيانا إلى ما نسبت فاستثبت عيوبك فاقتصر في الزري علينا والعيب لنا على ما لا يزيدك بسوء مقالتك فيه إلا اشتهاراً بالجهل ونقص الرأي أيها العازب العقل[1] العديم العلم فإنه إن كان لإجهادك نفسك في شهرك إيانا من الذنوب بما يوجب علينا القتل حقيقة وكان لك على ذلك برهان فقضاة أهل ملتك ينفون ولد المستوجب للقتل من أبيه وينحونه عن مضامة[2] الأخيار ومجالستهم ومخالطتهم إلا في أقل المواطن فضلاً عن أن يملك مع إنه قد بلغ بحمد الله ونعمته من إصلاحنا أنفسنا ونيتنا فيما بيننا وبين الله وبيننا وبين أهل ملتنا وديننا وبيننا وبينك وبين معشر أبنائنا ما ليس لنا في شيء من ذلك تقصير ولا علينا فيه من أحد حجة ولا توبيخ.

ونحن نشرح الحال فيما ألزمتنا من الذنوب وألحقت بنا من الجرائم عن غير التماس منا لذلك نقصاً فيما أدلينا به من حجة أو أتينا عليه من برهان لتزداد علماً بجهالتك وعزوب عقلك وسوء صنيعك.

أما ما ذكرت من أمر أبينا (هرمز) فمن جوابنا فيه أن الأشرار

---

(1) أي الفاقد العقل.

(2) ضامّه إليه مضامّة أي ضمّه ضمّاً.

والبغاة كانوا أغروا هرمز بنا حتى اتهمنا واحتمل علينا غمراً ووغراً[1] ورأينا من ازوراره عنا وسوء رأيه فينا ما تخوفنا ناحيته فاعتزلنا بابه لإشفاقنا منه ولحقنا بأذربيجان وقد استقاض وانتهك من الملك ما انتهك.

فلما انتهى إلينا خبر ما بلغ منه شخصنا من أذربيجان إلى بابه فهجم علينا المنافق بهرام في جنود عظيمة من العصاة المستوجبة القتل مارقاً من الطاعة فأجلانا عن موضع المملكة فلحقنا ببلاد الروم فأقبلنا منها بالجنود والعدة وحاربناه فهرب منا وصار من أمره في بلاد الترك من الهلكة والبوار إلى ما قد اشتهر في الناس حتى إذا صفا لنا الملك واستحكم أمره ودفعنا بعون الله عن رعيتنا البلاء والآفات التي كانوا أشفوا عليها قلنا إن من خير ما نحن بادئون به في سياستنا ومفتتحون به ملكنا الانتقام لأبينا والثأر به والقتل لكل من شارك في دمه فإذا أحكمنا ما نوينا من ذلك وبلغنا منه ما نريد تفرغنا لغيره من تدبير الملك. فقتلنا كل من شرك في دمه وسعى فيه ومالأ عليه[2].

وأما ما ذكرت من أمر أبنائنا فمن جوابنا أنه ليس من ولد ولدناه ـ ما خلا من استأثر الله به منهم إلا صحيحة أعضاء جسده غير أنا وكلنا بالحراسة لكم وكفكم عن الانتشار فيما لا يعنيكم إرادة كف ما تخوف من ضرركم على البلاد والرعية ثم أقمنا من النفقات الواسعة في كسوتكم ومراكبكم وجميع ما تحتاجون إليه ما قد علمت.

وأما أنت خاصة فمن قصتك أن المنجمين كانوا قضوا في كتاب مولدك إنك مترب علينا أو يكون ذلك بسببك فلم نأمر بقتلك ولكن

---

(1) حقداً وغيظاً.

(2) ساعد وعاون.

ختمنا على كتاب قضية مولدك ودفعناه إلى شيرين صاحبتنا ومع ثقتنا بتلك القضية وجدنا فرميشه ملك الهند كتب إلينا في سنة ست وثلاثين من ملكنا وقد أوفد إلينا فكتب في أمور شتى وأهدى لنا ولكم معشر أبنائنا هدايا وكتب إلى كل واحد منكم كتاباً وكانت هديته لك فاذكرها فيلاً وسيفاً وبازياً أبيض وديباجة منسوجة بذهب فلما نظرنا فيما أهدى لكم وكتب إليكم وجدته قد وقع على كتابه إليك بالهندية أكتم ما فيه فأمرنا أن يصرف إلى كل واحد منكم ما بعث إليه من هدية أو كتاب واحتبسنا كتابه إليك لحال التوقيع الذي كان عليه ودعونا بكاتب هندي وأمرنا بفض خاتم الكتاب وقراءته فكان فيه أبشر وقر عيناً وأنعم بالاً فإنك متوج سنة ثمانٍ وثلاثين من ملك كسرى ومملك على ملكه وبلاده فوثقنا إنك لم تكن لتملك إلا بهلكنا وبوارنا فلم ننتقصك بما استقر عندنا من ذلك مما كنا أمرنا بإجرائه عليك من الأرزاق والمعاون والصلات غير ذلك شيئاً فضلاً عن أمرنا بقتلك. وأما كتاب فرميشه فقد ختمنا عليه بخاتمنا واستودعناه شيرين صاحبتنا وهي في الأحياء صحيحة العقل والبدن. فإن أحببت أن تأخذ منها قضية مولدك وكتاب فرميشه إليك وتقرأهما لتكسبك قراءتك إياهما ندامة وثبوراً فافعل.

وأما ما ذكرت من حال من خلد السجن فمن جوابنا فيه أن الملوك الماضين من لدن كيومرث إلى أن ملك بشتاسب كانوا يدمرون ملكهم بالمعدلة ولم يزالوا من لدن بشتاسب إلى أن ملكنا يدبرونه بمعدلة معها ورع الدين فسل إن كنت عديم عقل وعلم وأدب حملة الدين وهم أوتاد هذه الملة عن حال من عصى الملوك وخالفهم ونكث عهدهم والمستوجبين بذنوبهم القتل فيخبروك أنهم لا يستحقون أن يرحموا أو يعفى عنهم؟.

واعلم مع ذلك أنّا لم نأمر بالحبس في سجوننا ولا من قد وجب عليه في القضاء العدل أن يقتل أو تسمل عيناه وتقطع يده ورجله وسائر أعضائه وكثيراً ما كان الموكلون بهم وغيرهم من وزرائنا يذكرون استيجاب من استوجب منهم القتل ويقولون: عاجلهم بالقتل قبل أن يحتالوا لأنفسهم حِيَلاً يقتلونك بها فكنّا لحبنا استبقاء النفوس وكراهيتنا سفك الدماء نتأنى بهم ونكلهم إلى الله ولا نقدم على عقوبتهم بعد الحبس الذي اقتصرنا عليه إلا على منعهم أكل اللحم وشرب الشراب وشم الرياحين ولم نعد في ذلك ما في سنن الملة من الحول بين المستوجبين للقتل وبين التلذذ والتنعم بشيء مما منعناهم إياه وكنّا أمرنا لهم من المطعم والمشرب وسائر ما يقيمهم بالذي يصلحهم في اقتصاد. ولم نأمر بالحول بينهم وبين نسائهم والتوالد والتناسل في حال حبسهم وقد بلغنا أنك أجمعت على التخلية عن أولئك الدعار[1] المنافقين المستوجبين للقتل، والأمر بهدم محبسهم ومتى تخلي عنهم تأثم بالله ربك وتسيء إلى نفسك وتخلّ بدينك وما فيه من الوصايا والسنن التي فيها صرف الرحمة والعفو عن المستوجبين للقتل. مع أن أعداء الملوك لا يحبون الملك أبداً والعاصين هم لا يمنحونهم الطاعة. وقد وعظ الحكماء وقالوا لا تؤخروا معاقبة المستوجبي العقوبة فإن في تأخيرها مدفعة للعدل ومضرة على المملكة في حال التدبير ولئن نالك بعض السُّرور إن أنت خليت عن أولئك الدعار المنافقين العصاة المستوجبين للقتل لتجدن غِبّ[2] ذلك في تدبيرك ودخول أعظم المضرة والبلية على أهل الملة.

وأما قولك لنا أنا كسبنا وجمعنا وادخرنا الأموال والأمتعة والبزور

(1) الخبثاء المفسدين الفاجرين.

(2) عاقبة (الجمع أغباب).

وغيرها من بلاد مملكتنا بأعنف اجتنباء وأشد إلحاح على رعيتنا وأشد ظلم لا من بلاد العدو بل بالمجاهدة لهم والقهر عن غلبة منا إياهم على ما في أيديهم. فمن جوابنا فيه أن من إصابة الجواب في كل كلام يتكلم بجهل وعنجهية ترك الجواب فيه، ولكن لم ندع إذ صار ترك الجواب كالإقرار وكانت حجتنا فيها غشينا أن نحتج به قوية وعذرنا واضح.

شرح ما سألتنا عنه من ذلك. اعلم أيّها الجاهل أنه إنما يقيم ملك الملوك، بعد الله، الأموال والجنود، وبخاصة ملك فارس الذي قد اكتنفت بلاده أعداء فاغرة أفواههم لالتقام بما في يديه وليس يُقْدَرُ على كفّهم عنها وردعهم عما يريدون من اختلاس ما يرومون اختلاسه منه إلا بالجنود الكثيفة والأسلحة والعدد الكثيرة ولا سبيل له إلا الكثيف من الجنود والكثير مما يحتاج إليه إلا بكثرة الأموال ووفورها ولا يستكثر من الأموال ولا يقدر على جمعها لحاجة إن عرضت له إلا بالجد والتشمير في اجتباء هذا الخراج. وما نحن ابتدعنا جمع الأموال بل اقتدينا في ذلك بآبائنا والماضين من أسلافنا فإنهم جمعوها كجمعنا إياها وكثّروها ووفروها لتكون ظهيراً لهم على تقوية جنودهم وإقامة أمورهم وغير ذلك مما لم يستغنوا عن جمعها له فأغار على تلك الأموال وعلى جوهرٍ كان في خزائننا المنافقُ بهرام في عصابة مثله وفتاك مستوجبين للقتل فشذبوها وبذروها وذهبوا بما ذهبوا به منها ولم يتركوا في بيوت أموالنا وخزائننا إلا أسلحة من أسلحتنا لم يقدروا على تشذيبها والذهاب بها ولم يرغبوا فيها فلما ارتجعنا، بحمد الله، مُلكنا واستحكمت أمورنا، وأذعن لنا الرعية بالطاعة، ودفعنا عنهم البوائق التي كانت حلت بهم ووجهنا إلى النواحي أصبهبذين ووليناا دونهم على تلك النواحي فاذوسبانين

واستعملنا على ثغورنا مرازبة وولاة ذوي[1] صرامة ومضاء وجلد، وقوّينا من ولينا من هؤلاء بالكثيف من الجنود أثخن هؤلاء الـولاة من[2] كان بإزائهم من الملوك المخالفين لنا والعدو وبلغ من غاراتهم عليهم وقتلهم من قتلوا وأسرهم من أسروا منهم من سنة ثلاث عشرة من ملكنا ما لم يقدر الرجل من أولئك على إطلاع رأسه في حرم بلاده إلا بخفير[3] أو بأمان منا فضلاً عن الإغارة على شيء من بلادنا والتعاطي لشيء مما كرهنا.

ووصل في مدة هذه السنين إلى بيوت أموالنا وخزائننا مما غنمنا من بلاد العدو من الذهب والفضة وأنواع الجوهر والنحاس والفرند[4] والحرير والاستبرق[5] والديباج[6] والكراع[7] والأسلحة والسبي والاسراء ما لم يخف عظم خطره وقدره على العامة، فلما أمرنا في آخر سنة ثلاث عشرة من ملكنا بنقش سكك حديثة لنأمر فيستأنف ضرب الورق بها وجد في بيوت أموالنا على ما رفع إلينا المحصون لما كان فيها من الورق سوى ما أمرنا بعزله من الأموال لأرزاق جنودنا من الورق مائتا ألف بَدْرة[8] فيها ثمانمائة ألف ألف مثقال.

فلما رأينا أنّا قد حصّنا ثغورنا وَرَدَعْنَا العدوّ عنها وعن رعيتنا وكممنا أفواههم الفاغرة لالتقام ما في أيديهم، وبسطنا فيهم الأمن وأمنّا علي

---

(1) في الأصل ذووا.

(2) في الأصل: ما.

(3) الخفير: المجير والحامي - (ابن منظور/ 1).

(4) كلمة فارسية أصلها (برند) وهو ضرب من الثياب.

(5) ثياب من حرير وذهب (فارسية).

(6) الديباجة الثوب من الحرير.

(7) الخيل والبغال (الجمع أكرع وأكارع).

(8) البدرة: عشرة آلاف درهم الجمع بِدَر وبدور.

نواحي بلادنا الأربع ما كان أهلها فيه من البوائق والمغارم، أمرنا باجتباء بقايا السنين وما انتهت من بيوت أموالنا من ذهب وفضة ومن خزانتنا من جوهر ونحاس، ورُدّ ذلك كله إلى موضعه، حتى إذا كان في آخر سنة ثلاثين من ملكنا أمرنا بنقش سكك حديثة يضرب عليها الورق فوجد في بيوت أموالنا، سوى ما أمرنا بعزله من الأموال لأرزاق جندنا والأموال التي أحصيت لنا قبل ذلك من الورق، أربعمائة ألف بدرة يكون ما فيها ألف ألف ألف مثقال وستمائة ألف ألف مثقال وذلك سوى ما زادنا الله إلى تلك الأموال مما أفاء الله بمنّه وطَوله[1] علينا من أموال ملوك الروم في سفن أقبلت بها إلينا الريح.

ولم تزل أموالنا من سنة ثلاثين من ملكنا إلى سنة ثمانٍ وثلاثين، التي هي هذه السنة، تزداد كثرة ووفوراً، وبلادنا عمارة، ورعيتنا أمناً وطمأنينة، وثغورنا وأطرافنا مناعة وحصانة. وقد بلغنا أنك هَمَمْتَ، لرذولة مروءتك، أن تبذّر هذه الأموال وتتويها[2] عن رأي الأشرار العتاة[3] المستوجبين للقتل ونحن نعلمك أن هذه الكنوز والأموال لم تجمع إلا بعد المخاطرة بالنفوس وبعد كدّ وعناء شديدين[4]، لندفع بها العِدى المكتنفين لبلاد هذه المملكة المتقلبين إلى غلبتهم على ما في أيديهم وإنّما يقدر عَلَى كفّ أولئك العدى وفي الأزمان والدهور كلّها بعد عون الله، بالأموال والجنود ولن تقوى الجنود إلا بالأموال، ولا ينتفع بالأموال إلا على كثرتها ووفورها. فلا تهمّنّ بتفرقة هذه الأموال ولا تجسرنّ عليها فإنها كهف[5] لملكك وبلادك وقوة لك على عدوك.

---

(1) فضله.

(2) تهلكها.

(3) العاتي هو الجبّار.

(4) في الأصل: شديد.

(5) ملجأ.

هذا دفاع أبرويز عن نفسه وتوجيه سياسته وقد أعرض فيه عن تفنيد التهم التي وجهت إليه كأنه يقول لابنه وماذا عساك تطلب مني وأنا رجل الدولة أعمل لتثبيتها واستبيح كل شيء في توطيد دعائمها. ويستدل على تبرير قساوته على الشعب برأي علماء المجوسية الذين كانوا متواطئين معه على إذلاله وإخماد أنفاسه ولكن هذه المؤاربة[1] لم تنطل على أحد وليست تنجّيه من تبعة مساويه التي لم يقدر على التفصّي منها.

ولما عاد أسفاذ جشنس إلى شيرويه بجواب أبيه الملفق على تلك التّهم تداول فيها مع مرازبته فأجمع رأيهم على أن في الرد اعترافاً صريحاً بما وجه إليه من تهم مُخلة بأمن الدولة وليس يكفي عنها غير إهدار دمه، فطابقهم على ذلك وانتدب لقتله رجالاً كان وَتَرهم[2] منهم صهر هرمز. ولما تقدم من أبرويز ضربه على حبل عاتقه بطبرزين[3] عدة ضربات أطاح بها رأسه بعد أن ملك ثمان وثلاثين سنة وبمقتله انتهت عظمة الدولة الفارسية وأعقبها دور الانحلال.

اختلال أمر فارس
وتتابع خلع الملوك وقتلهم

ومن ذلك العهد تدهور نظام الحكم في فارس ولم يقر فيها قرار لأحد من ملوكهم، وأخذ أمرها في الاضمحلال والتدهور ولم يعد سبيل لإنقاذها إلاَّ بحدوث انقلاب عظيم يأتيها من الخارج. فحين رجع إلى شيرويه خبر مقتل أبيه ارتبك عقله فأمر بقتل قاتله رَغْم

(1) المخاتلة والمخادعة.

(2) ظلمهم.

(3) كلمة فارسية ومثلها الطّبر: أي الفأس من السَّلاح.

علمه بأنه هو الآمر بذلك ثم خرق ثيابه واستخرط في البكاء والانتحاب وبعد ذلك أفاق وأمر بحمل رفاة أبيه إلى الناووس ومشى في مشهده العظماء وأفناء الناس ثم عاد وأمر بقتل إخوته فقتلوا جميعاً وكانوا سبعة عشر، وإثر مقتلهم عزفت نفسه عن الدنيا ولم يقارف لذة. ومِمَّا زاد في شجوه أن أختين له دخلتا عليه وهما باكيتان فقالتا له: أيحملك الحرص على ملك لا يتم لك على قتل أبيك وجميع أخوتك؟ فلما سمع ذلك منهما بكى بكاء مقرحاً ورمى بالتاج عن رأسه. وما زال أيامه كلها مهموماً مدنفاً[1] مروعاً حتى هلك ومضى إلى سبيله ولم يمكث في الملك إلَّا ثمانية أشهر.

وملك بعد شيرويه ابنه أردشير[2] وكان حدثاً ولم يكن يومئذ في بيت الملك محتنك فتداولته أيدي المتولين من ذوي المآرب. فثار عليهم شهربراز[3] وكان قائداً على ثغور الحدود مما يلي بلاد الروم وذلك بدعوى أن ولاة الأمور لم يشاوروه في تمليك أردشير واستطال عليهم ودعا العامة إلى التشاور في الملك وكان طامعاً فيه. فقدم إلى طيسفون في ستة آلاف مقاتل حاصر بها العاصمة. ولما عجز عن امتلاكها بالقوة لجأ إلى الحيلة والكيد وما زال يعالجها بذلك حتى خدع رئيس حرس قصر أردشير وأصبهبذ نمروذ[4] ففتحا له أبواب المدينة فدخلها وتقبض على جماعة من الرؤساء فقتلهم واستصفى أموالهم ثم أتبعهم بأردشير بعد أن ملك سنة وستة أشهر[5].

(1) مريضاً.

(2) أردشير الثالث حفيد أبرويز.

(3) وقيل شهريار. وهو كبير قواد الفرس على عهد كسرى أبرويز.

(4) كلخ القديمة. أسسها شلمانصر الأوَّل.

(5) وقيل ستة أشهر فقط (629 - 630).

تغلب على عرش فارس شهر براز واسمه فرخان وهو من العامة ولم يكن من بيت الملك فكبر أمره على رجل من أهل اصطخر يُقال له فسفروخ وأخوين له من قتل أردشير واستيلائه على عرشه وكان ثلاثتهم في حرس الملك فتعاقدوا على قتله أخذاً بثأر مولاهم. وكان من تقاليد الحرس أن يقفوا للملك عند ركوبه سماطين عليهم الدروع والبيض والترسة والسيوف وبأيديهم الرماح فإذا حاذى بهم الملك وضع كل واحد منهم ترسه على قربوس[1] سرجه ثم وضع جبهته عليه على هيئة السجود.

وركب شهر براز بعد أن ملك بأيام فوقف فسفروخ وأخواه قريباً بعضهم من بعض فلما حاذاهم طعنه فسفروخ ثم ثنى عليه أخواه فسقط عن دابته مضرجاً بدمائه فشدوا في رجليه حبلاً وجروه إقبالاً وإدباراً وساعدهم على التمثيل به جماعة من أكابر المملكة ولم يطل عهد المغتصب أكثر من أربعين يوماً ثم عطفوا على قَتَلَة أردشير وأردوهم جميعاً. واتفق رأيهم على تمليك بوران[2] بنت كسرى أبرويز.

ولما جلست بوران على العرش قلدت فسفروخ رئاسة الدولة وأمرت بوضع بقايا الخراج عن الناس وصرحت في خطاب العرش بما لا عهد بمثله من الأكاسرة فقالت: أنوي البر، وبالعدل آمر. ثم اتبعت ذلك بذكر حال من هلك من الملوك وحين تكلمت على الشعب قالت أنها ترجو أن يريه الله من الرفاهية والاستقامة في عهدها ما يعرف به أنه ليس ببطش الرجال تدوخ البلاد ولا ببأسهم

(1) يكون للسرج قربوسان وهما القسمان المقوسان والمرتفعان منه. أحدهما من الأمام والثاني من الخلف (ابن منظور/3).

(2) بوران دخت (630 - 632).

تستباح رقاب الأعداء ولا بمكائدهم ينال الظفر وتطفى النَّوائر[1] ولكن كل ذلك يكون بعون الله. ثم ندبت إلى الطاعة وحضّت على المناصحة.

وبعد أن توطد لها الملك أمرت بردِّ خشبة الصليب على إمبراطور الروم وهو بدوره أعاده إلى القدس وماتت عقب ذلك.

وتملك بعدها جشنـدة وهو من بني أعمام الملك أبرويز الأبعدين، وكان حكمه قصيراً دام شهراً ثم مات، فاختار أهل الحل والعقد الأميرة أزرميدخت[2] بنت أبرويز، أخت بوران وكانت من أجمل النساء، وعرضت منهاجها في خطاب العرش ومما قالته في ذلك: منهاجنا منهاج أبينا كسرى المنصور فإن خالفنا مخالف أهرقنا دمه.

ولما تمت لها مقاليد الملك أرسل إليها أصبهبذ خراسان[3] يسألها أن تزوجه نفسها فأرسلت إليه سرّاً أن التزويج للملكات غير لائق وقد علمت أن غايتك نيل وطرك مني فصر إلي ليلة كذا ساعة كذا فركب إليها في تلك الساعة وكانت أوصت رئيس حرسها بقتله عند وصوله ولما قدم نُفِّذ فيه الأمر وأمر به فجرّ من رجليه وطرح في رحبة دار الملك. فلما أصبح الناس شاهدوه على تلك الحال فغيبوه وقال الناس فُعل به ما يستحق. فبلغ ذلك ابنه[4]، وهو نائبه على خراسان، فشق عليه الأمر وأقبل في جند عظيم حتى نزل المدائن فقبض على الملكة وسمل عينيها ثم قتلها بثأر أبيه.

وملك الفرس بعدها كسرى بن مهر ولم يمهل حتى قتل بعد أيام.

---

(1) النائرة هي العداوة والشحْناء. (ن. م).

(2) (632 - 635).

(3) هرمز.

(4) رستم.

فأجلسوا بعده على العرش خرزادخسرو، وكان من ولد أبرويز أوتي به من إحدى قلاع نصيبين فلم يكد يستقر بالمدائن أياماً يسيرة حتى استعصوا عليه وقتلوه، ثم أقبلوا بفيروز بن مهر فأجلسوه على العرش وهو كاره وكان ضخم الرأس فلما توج قال: ما أضيق هذا التاج فتطيَّر من قوله العظماء ـ فهجموا عليه وقتلوه.

ثم أتوا بفرخراذ ونصبوه ملكاً غير أنهم لم يدعوه ستة أشهر حتى انقلبوا عليه فإن أهالي اصطخر لما علموا بتنصيبه أخرجوا يزدجرد[1] من كنه وهو حدث وتوجوه في هيكل النار المقدسة ثم حملوه إلى المدائن وأجلسوه على العرش وقتلوا فرخراذ وكان آخر ملوكهم وقد بلغت فارس إلى أحط دركات الانحطاط وبعد سنتين من ملكه ظهر المنقذ الإسلامي وخلص الشرق من مملكة الردى على يد القائد العظيم سعد بن أبي وقاص.

(1) يزدجرد الثالث ابن شهريار (635 إلى الفتح الإسلامي).

الفصل الخامس

اليمن قبل الإسلام

عروبة اليمن

لم يكن تاريخ اليمن أغمض على الباحثين من الأقطار العربية الأخرى بل كان صحيفة لامعة في سفر الحضارة العربية رغم ما يبديه البعض من مستشرقة الألمان من التخرصات الغريبة بقولهم إن سكان العربية السعيدة ليسوا من السلائل العربية بل هم جيل آخر اتصل بالعرب اتصالاً خفيفاً ومن الظلم للتاريخ أن يلصقوا بهم!

والظاهر أن هذا الصنف من العلماء قد اتسع لهم مجال الافتراض في غير ما ضرورة فأغرقوا في الوهم إلى أن خرجوا منه إلى القول بإنكار عروبة أهل اليمن ونسبتهم إلى الدراودة[1] الذين نزحوا عن الهند في أقدم العصور وهبط من هبط منهم إلى اليمن.

(1) الدراودة Les Drairdiens. هم من جنس الملايُو. سكان بعض الهند وسنغفورة. . . استعمرهم الآريون واضهدُوهم فعرفوا بالمنبوذين.

ونحن وإن كنا على يقين من فئالة[1] هذا القول فقد نجوز أن تكون بعض جاليات الدراوِدة قدمت إلى اليمن في غضون العصور القديمة ثم ابتلعها المحيط العربي بقوة الامتصاص فاستعربوا دون أن يحدثوا أي تأثير في الجنس.

والتحقيق ليس هناك مخايل تدل على صلة اليمانيين بالهنود بل الدلائل القاطعة تنافيها منها الغرائز العرقية والخصائص اللغوية. وإذا تراءت لنا بعض الشبه من المقارنة بين اليمانيين وبين غيرهم من العناصر العربية فالأقرب إرجاعها إلى الخصائص الإقليمية لا إلى اختلاف العرق[2] الذي يتجنى هذا الرهط بادعائه على العلم والأنساب بغير علم ولا دليل غير الرجم بالظنون وإلقاء معاثر الشكوك أمام صغار المطالعين فيتلقونها بالرضاء والتسليم وهي إفك لا مراء فيه والعلم لا يكون علماً حتى يصير يقيناً لا شائبة فيه وهو لا يحصل بالحدس والتخمين بل بالتمحيص والتدقيق لا كما يتصوره المشككون والمضللون من الشعوبيين[3] وأصحاب الدعايات المغرضة الذين يسيئون إلى العلم باسم العلم.

حضارة اليمن

إن الحضارة اليمنية الباذخة عربية بأتم معاني الكلمة مبنى ومعنى مادة وروحاً وهي ترتفع مع التاريخ الأثري إلى أقدم أزمنة الخليقة وربما كانت أبعد عهداً من تاريخ حضارات شقائقها في طرفي الهلال

---

(1) فيالة القول وفيولته أي خطؤه وعدم إصابته.

(2) نفس قول ابن خلدون في المقدمة حيث عقد فصلاً عنون له بقوله (في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم ص: 82 ـ ط دار القلم بيروت).

(3) الذين يصغّرون شأن العرب ويفضّلون العجم عليهم.

المخصب وقد يمتد إلى نحو ستة آلاف سنة ولكن المدون منه بين أيدينا لا يزيد عن خمسة آلاف سنة أي من 3000 قبل الميلاد إلى عصرنا الحاضر. وقد اشترك في تنظيم عقده ـ عاد، وحمير، وسبأ، وماعن، والتبابعة، والأذواء. ثم تغلب عليه الأحباش، والفرس. ولم تطل به هذه المحنة حتى ظهرت الرسالة المحمدية من قلب بلاد العرب وأنقذت بلاد اليمن في جملة ما أنقذتـه من بلاد الشرق.

قيام حمير

أما حمير فقد قامت بعد سقوط عاد[1] وثمود[2] ومنها يبتدي تاريخ اليمن في الجلاء والوضوح وقبلها كان محاطـاً بكثير من الإبهـام والغموض وهو مطمور تحت الرمال ومبعثر في أحجار شوامخ الجبال لم تسمح الأيام بالتنقيب عنه.

وملوك حمير عديدون لم يحفظ لنا التاريخ من أسمائهم سوى بضعة عشر فقط مع أن حكمهم للبلاد تجاوز 1200 سنة وإذا صحَّت الروايات فقد يكون أول من تملك منهم قحطان ابن عابر[3] حول سنة 1845 قبل الميلاد فقد حمل التاج واتخذ مدينة صنعاء عاصمة للمملكة وكان كما يتناقله مؤرخونا ملكاً عادلاً محمود السيرة حسن السياسة موفقاً باراً بالرعية.

وحين مهلكه خلفه ابنه يعـرب[4] وكان مـوصوفـاً بالشجـاعة

(1) كانوا يسكنون في الأحقاف: أخبر عنهم القرآن بأنهم تمَّ استئصالهم بعاصفة نتيجة اضطهادهم النبي هود.

(2) قبيلة سكنت قرب مدائن صالح (الحجر). ورد ذكرها في النصوص الأشورية في عهد سرجون الثاني كما ورد ذكرها في القرآن الكريم.

(3) قحطان بن هود النبيء (تاريخ اليعقوبي 195/1). وذلك سنة 2030 ق.م على أغلب الروايات.

(4) كان يدعى يمناً وقيل سمّيت اليمن باسمه.

والإقدام موسوماً بالمغامرة فانتعشت البلاد على عهده وامتدت أرجاؤها فوق أنقاض مملكة عاد الثانية في بلاد حضرموت والشحر وعمان ثم ترامت من الناحية الثانية إلى أكناف الحجاز فقلد ولايته لأخيه جرهم وكان همه لم شعث العرب وإحكام بناء وحدتهم.

وبعد أن توطد له الملك في تلك الأقطار شرع في تمدين المدن وإقامة المعاقل والحصون لحماية الأطراف وتعمير البلاد وتوفير الرخاء وتنظيم الحكم على قواعد السياسة الملكية وتمرين العرب على أساليبها ولم تكن مألوفة لديهم من قبل بل كانوا يمارسون نظاماً أشبه ما يكون بالنظام الإقطاعي. ودام حكمه 33 سنة ويروي المؤرخون أنه ترك لأعقابه من بعده وصية سياسية ما زالوا يتوارثونها وأخذتها عنهم جميع الدول العربية كأنها دستور قوي لا يحيدون عنه. وإليك ما حفظ منها:

أوصيكم بحسن السيرة والسلوك بين الرعية. وأن تتعلموا العلم وتعملوا به. واتركوا عنكم الحسد ولا تلتفتوا إليه فإنه داعية القطيعة بينكم. وتجنبوا الشر وأهله فإن الشر مجلبة للشر. وأنصفوا الناس من أنفسكم فإنهم ينصفونكم من أنفسهم واجتنبوا الكبرياء فإنها تفسد قلوب الرجال عنكم. وعليكم بالتواضع فإنه يقربكم من الناس ويحببكم إليهم. وإذا استشاركم أحد فأشيروا عليه بما تشيرون به على أنفسكم في مثل ما استشاركم به فإنها أمانة قد ألقاها في أعناقكم. انتهى.

ولما مات يعرب جلس على سرير المملكة ابنه يشجب وكان فاتر الهمة ضعيف الرأي خائر العزيمة فاستبد عليه وزراءه وعمّاله إلى أن أدركه الأجل فمات غير محمود ولا مذموم.

وممَّن تولى بعده الملك عبد شمس، وكان باسلاً هميماً، فأغار على بابل محاولاً الاستيلاء عليها فأخفق. ثم أغار بعد ذلك على مصر وسبَى منها خلقاً كثيراً وفيما يذكره عنهم رواة التاريخ العربي أن عدتهم بلغت 0000 100 أسير حملهم معه إلى اليمن لتسخيرهم في تعميرها. ويقال أن السبب في تلقيبه بسبأ إنما كان بكثرة سبيه في حروبه ومغازيه.

إنشاء مدينة مأرب
وبناء سدها العظيم

من أجلّ ما يروى عن مآثر هذا الملك العظيم إنشاء مدينة مأرب[1] وهي على ثلاث مراحل من صنعاء وبناء سدها الكبير[2] لحفظ مياه الأمطار والينابيع للانتفاع بها في ري الأراضي عند مسيس الحاجة إلى المياه لتوفير الحاصلات وتوسيع قابلية البلاد لاستيعاب أكثر ما يمكن من السكان.

ولا جدال في أن هذا السد يعد من أفخم المباني التاريخية التي لا تقل في عظمتها الخارقة عن بناء الأهرام، والفارق بينهما أن الأهرام شيدت لتكون مرقداً أبدياً لبعض الفراعنة والسد بني لتوفير رخاء الشعب اليماني وراحته[3]. وهو بناء مديد ذرعه عدة فراسخ، واصل بين جبلين، مشيد بالصخور والقار. حجزت من ورائه مياه العيون

---

(1) وتسمَّى سبأ نسبة لسبأ (عبد شمس).

(2) سدّ مأرب. اختلف فيمن أقامه فقيل الملكة بلقيس وقيل عبد شمس وقيل لقمان بن عاد. (إجمال الكلام في العرب والإسلام: مصطفى الدمياطي ـ المطبعة الجامعة مصر 1313 هـ ص: 9 (هامش).

(3) بالانتفاع بمياه الأمطار ومنع هلاك الخلق بسيْل العرم.

والأمطار وحولوا إليه سبعين وادياً كلها تصب فيه، وله أبواب كثيرة تُفتح لمَّا يريدون إرسال المياه وتوزيعها على الأراضي بواسطة جداول عميقة لري المزروعات وإشباع سكانها من خيراتها.

وهو أول خزان من نوعه عرفته بلاد العرب قبل أن يعرفه العالم كله. وقبل إتمام بناء الخزان وافى الملك عبد شمس أجله فأتمه خلفاؤه من بعده.

ويعود الفضل في ثراء اليمانيين وبذخهم وحضارتهم البالغة إلى وجود هذا الخزان في بلادهم وبالرغم من انكساره منذ 1837 سنة فإن أثر ما بلغوا إليه من الرقي في الزراعة والتعمير لم تزل لهم منها بقية باقية إلى هذا العهد بصورة لا تفضلهمْ فيها أرقى الأمم الزراعية الحديثة كما نشاهده رأي العين في مختلف البلاد اليمانية في تلال أب وجبل حبيش وقيعان البلاد العالية المعروفة بقاع الحقل وجهران والأحمر والمنزلي والقماعرة وحزيز والروضة وباجل، ولا أذكر منها ضواحي المدن وهي جنات معروشات تؤتي أكلها بإذن ربها.

ومن فحول ملوك حمير الذين جلسوا على العرش الملك حمير، وهو الملك الذي توجَّه شعبه بتاج من الذهب. ويذهب المؤرخون إلى القول بأنه هو الذي أمر بإجلاء ثمود من بلاد حضرموت ونقلهم إلى الأراضي الواقعة بين بلاد الشام والحجاز تطهيراً للأرض من عيثهم وفسادهم ويروون عنه أيضاً أنه أمر ببناء الأساطيل لحماية الثغور وبسط نفوذ مملكته في الخارج.

وبعد وفاته تملك على اليمن ابنه وائل فكان همه المحافظة على اضطراد السير نحو التقدم فتحسنت التجارة على عهده وانتظم سير المناقلة وتوفرت المكاسب.

انقلاب سياسة اليمن
إلى سياسة غزو وفتح

لا ريبة في أن تكامل بناء الدولة في الداخل مصيره إلى نشر نفوذها في الخارج. فإنهم يروون أن في عصر الملك شداد بن وائل[1] بدأ عهد التحول السياسي في اليمن، فقد أضاف إلى التعمير الداخلي الرغبة في الفتح والسيطرة على الممالك المجاورة له في الخارج. فقد رحل شداد غازياً إلى إفريقيا فنزل بلاد السواحل المقابلة لشواطىء اليمن ويقال إنه واصل السير إلى أواسط القارة السوداء ودوّخ ممالكها وبسط فيها نفوذ العروبة وخالط بينهم وبين أهاليها ثم رجع منها مكلّلاً بالظفر بعدما أودع فيها مآثر كثيرة تركيزاً لقومه في تلك الأنحاء السحيقة.

ظهور الملك ذي القرنين
وقيامه بمغازيه الكثيرة

لا شبهة في أن الملك الصعب الملقب بذي القرنين[2] هو من

---

(1) وقيل شديد بن وائل.

(2) سمّي بذلك لضفيرتين من شعره كان يدليهما إلى قرنيه أي جانبي رأسه (المؤلف) - ويروي البيروني أنه اختلف فيمن تسمّى بذي القرنين فقيل هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني جامع ملك الروم بعد أن كان طوائف، فقد كان يستعمل الحكمة في مقاصده ويستظهر برأي معلمه أرسطوطاليس في مطالبه فقيل لذلك إنه ذو القرنين، وقيل سمّى الإسكندر بذلك لبلوغه قرني الشمس أي مطلعها ومغربها. . وقيل إن ذا القرنين كان رجلاً يسمّى أطوكس خرج على صاميرس أحد ملوك بابل وحاربه حتى ظفر به وقتله وسلخ رأسه مع شعره وذؤابتيْه ودَبغ تلك الفروة وتكلل بها فلقب بذي القرنيْن. وقيل إنه المنذر بن ماء السَّماء وهو المنذر بن امرىء القيس. . . وقيل إنه الصَّعب بن الهال الحميري. . . وقيل إنه أبو كرب شمّر يرعش بن إفريقس الحميري وسمّي بذلك لذؤابتيْن كانتا تنوسان على عاتقيْه وهذا =

أعاظم ملوك حمير الذين دوَّخوا الأقطار وانقادت لهم نواصي الممالك. ويروون عنه أنه كان شهماً نبيلاً مغامراً نشأ على غرار أسلافه كلفاً بالمفتوحات والمغازي. والمقول أن جنوده ترامت على بلاد الصين، وهو الذي حدثنا عنه الكتاب المجيد[1] بذي القرنين كما أثبته الفيلسوف الكبير أبو الريحان البيروني في تأليفه المسمى (بالآثار الباقية) لا إسكندر المقدوني الذي لفظ باسمه القصَّاصون خطأ وهو لم يتجاوز في فتوحاته الشرقية أرض السند.

وبعد وفات هذا الملك الكبير خلفه ابنه أبرهة الملقب بذي المآثر فأتمَّ ما شرع فيه أبوه من الفتوحات في بلاد السودان ونصب في أرجائها المآثر تخليداً لذكرى وقائعه في تلك الأصقاع النائية، ولكي يهتدي بها المدلجون الحائرون إلى الطريق التي عبر منها إلى تلك البلاد المقطوعة عن العالم. ويقول المؤرخون إن وفاته كانت سنة 1028 قبل الميلاد[2] فخلفه ابنه إفريقش فاستأنف فتوحات أبيه وجدِّه في إفريقيا وساق إليها ضمن عساكره قبيلتي صنهاجة وكتامة من اليمن وبلغ بهما إلى شواطي غربي إفريقيا وقد روى لنا أحد الباحثين من أكابر الوطنيين أنه واصل فتوحاته إلى بلاد السينيقال، وهو اسم محرف من صنهاجة، حيث أقرهم بها. وهو قريب من تحقيق ما تطالعنا به المصادر العربية من أنباء الفتوحات اليمانية في إفريقيا ولا حاجة لنا في ذلك للرجوع إلى المصادر الأروبية، لأنها سند لها في نقل أخبار تلك البقاع في تلك العصور.

= الرأي هو الذي يميل إليه البيروني (الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروني ـ مكتبة المثنى بغداد ص 38 - 41).

(1) إراجع الآيات 82 + 86 + 94 من سورة الكهف.

(2) إبل 1098 ق. م.

انقسام اليمن إلى دول وطوائف

لما هلك إفريقش تولى بعده ذو الأذعار[1] الظالم الغشوم فلم يكد يستقر له الحكم حتى التاثَتْ[2] عليه الأمور وانقسمت حمير إلى ممالك طوائف مستقلة عن بعضها وهي المسماة بالمحافد[2] ويعرف صاحب المحفد بلفظ (ذو) أي صاحب يضاف إلى اسم المحفد فيقال مثلاً ذو غمدان وذو معين وكانت هذه المحافد عديدة لكل منها حكومة قائمة بنفسها وأشهر المحافد التي وصلت إلينا أسماؤهـا: تلغم، وناعط، وصرواح وسلحين، وظفار، وشبام، وبينون، وريام، وبراقش، وروثان، وأرياب، وعمران وغيرها. وكلهم من حمير. وقد نبغ بينهم ملوك كبار أسسوا دولاً كبرى.

وبعد مهلك ذي الأذعار انفصلت تلك المحافد عن ملك سبأ وتولاه شرحبيل[4] وكان داهياً فَطِناً ولولاه لأشرفت الدولة على الزوال فأقام أوْدها وجانب الحروب وانصرف إلى العمارة والبناء ومن أكبر مآثره التي سارت بذكرها الرّكبان قصر غمدان.

قصر غمدان

بني هذا القصر الرفيع على نَسَقٍ بديع بظاهر مدينة صنعاء، وكان محكم الوضع عظيم الارتفاع، أودع فيه من الزخارف والنفائس ما لم يَحْوِهِ قصر. وهو يتألف من سبع طبقات لكل طَبقة أفنية وقاعات رحبة تسمى المحاريب بناه لاستهواء أنظار الأمراء الخارجين عليه

(1) هو العبد بن أبرهة أخو افريقش وسمّي بذي الأذعار، لأنه ذعر العدوّ ودام ملكه 25 سنة (تاريخ اليعقوبي 196/1).

(2) اختلطت والتبست.

(3) المحفد هو الأصل والمحتد.

(4) شرحبيل بن عمرو بن الرائش. كان ملكه سنة واحدة.

وتحدِّيهم بعظمة بنائه فاتَّخذه مسكناً له وأمضى فيه بقيَّة حياته. ثم صار قصراً للملوك السبأيين من أعقابه.

ولما أودى شرحبيل تولى بعده الهدهد، ويقال له اليشرح، وكان على ما يتناقله المؤرخون متفلتاً غير عابىء بالملك ولا ملتفتاً لمهامِّه شأن الملوك المتصاغرين أمثاله. فقد كان طيلة حياته منقطعاً لشهواته يوثرها على غيرها من المهام إلى أن هلك. فخلفه ابن أخيه[1] وكان على شاكلته معتكفاً على الفسوق والفجور حتى أجمع السبأيون على خلعه. فخلعوه وأجلسوا مكانه ابنة عمه:

بلقيس بنت اليشرح[2]

وكانت معدودة في وقتها من أجمل النساء وأكملهن خلقاً وخلقاً، وأرفعهن عقلاً وأدباً، توثر العدل، وتكره الفساد والظلم، فتيامن بها اليمانيون وأقبلوا على محبتها وطاعتها فارتفع بها شأن المملكة بعد انخفاضها.

وفي أثناء حكمها اتصلت بالنبي سليمان ملك يهودا لرؤيا رأتها عبرها لها المنجم بأن العرب سيسودون على وجه الأرض بعد انطماس آلهة الوثنيين الجميلة وظهور إله أكبر ينقطع به الشرك، فآمنت به وعقدت معه صلات تجارية، بواسطة البحارة من الفنيقيين التي كانت مراكبهم تشتط فرض اليمن. وقد اختلف المؤرخون في

---

(1) زيد، قتلته بلقيس (اليعقوبي 196/1).

(2) بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل. ملكة سبأ التي قال فيها الشاعر نشوان بن سعيد الحميري:

أم أيـن بـلقـيس المـعـظم عـرشـهـا
أو صـرحـهـا الـعـالي عـلى الأصـراح

ورد ذكرها في القرآن (سورة النمل بداية من الآية 23).

تقدير المدة التي قضتها في الحكم فجمهورهم يقول ثلاث عشرة سنة ويذهب أبو الفداء إسماعيل إلى أنها 20 سنة[1].

وبعد وفاتها قلد السبئيون عمها مالكاً الحكم[2] وكان يلقب بناثر النعم لكثرة ما كان يبذله من العطايا والهبات لاصطناع الخارجين عليه وإعادة مملكة حمير إلى سابق عظمتها وإزالة أثر الحكم الإقطاعي من اليمن.

وفيما يتناقله المؤرخون أنه غزا إفريقيا إلى أن بلغ الصحراء الكبيرة ولما أوغل في تلك الفدافد[3] عصفت به أعاصير شديدة أودت بعدد كبير من جنوده فقفل راجعاً ونصب في طريقه عموداً من الصَّفر[4] عليه تمثاله كتب فوق صدره بالخط المُسْنَد[5]. هـذا تمثال يـاسر ينعم الحميري ليس وراءه مذهب لسالك فلا يتكلف ذلك أحد فيعطب.

ولبث في الحكم إلى أن أدركته منيته عن سنّ عالية قضى منها في الملك 85 سنة ثم تولى بعد ذلك شمّر يرعش[6]، وكان من أشد

---

(1) حسب اليعقوبي دام حكمها مائة وعشرين سنة (ج 196/1).

(2) ياسر ينعم بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن شرحبيل.

(3) الأماكن الوعرة.

(4) الذهب أو النحاس.

(5) خطّ كان يستعملُه الحميريّون.

(6) شمّر بن افريقش بن أبرهة قيل إن حكمه دام ثلاثاً وخمسين سنة وقيل سبعاً وثلاثين فقط. لقب (يرعش) لأنه كانت به رعشة. وممّا أورده الهمذاني عنه أنه هو تبع الأكبر الذي ذكره القرآن لأنه لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه يتجاوز عن مسيئهم ويحسن إلى محسنهم (الإكليل 247/8 - 251).

وهو الذي غزا الصين وبنى سمرقند وحيّر الحيرة وهو الذي يقول:

أنـا شـمـر أبـو الـكـرب الـيـمـاني
جـلـبـت الخـيـل مـن يمـن وشـام

(الطبري 112/2).

ملوك اليمن مضاء وأقواهم عزماً وأبعدهم همة وصيتاً، وكان يحاول إرجاع مجد حمير. وأول مغازيه كانت إلى المشرق. فقد نزل من خليج عمان إلى شواطىء البلوجستان وقصد بلاد الصغد وهي من مملكة فرغانة وينقل الأثريون أنهم عثروا في بعض هياكلها على عمود من النحاس منقوش عليه بالخط المسند هذا ما بناه شمر يرعش لسيِّدته الشمس (التي يرمز إليها العرب بتمثال بعل) ووجدوا أيضاً في الهيكل باباً مصفحاً بالحديد عليه كتابة بالخط المسند ما نصه:

المسافة من صنعاء إلى سمرقند ألف فرسخ. ثم دفع منها إلى أرض الصين فضلله الأدلاء خوفاً على بلادهم إلى أن أوقعوه في مفازة معطشة فهلك فيها هو وجنوده دونْ أن ينْجُوَ منهم أحد[1].

فقام بالملك من بعده أبو مالك وكان شديداً وقد همَّ بالمسير إلى الصين للمطالبة بثأر سلفه لكنه هلك دون أن يتوفق إلى ذلك.

واستمرت الدولة في أصلاب السبأيين إلى أن ملكـوا عليهم عَمْرواً بن عامر الأزدي بـن مزيقيا وفي عهده جرت النكبة العظمى في اليمن وهي خراب سد مأرب.

انكسار السد ووقوع سيل العرم[2]

حدثت هذه الفاجعة العظيمة في اليمن سنة 102 بعد الميلاد[3]. والسبب فيها الغفلة عن تعهد الخزان والتفقد لأبنيته حتى طغت

---

(1) تذكر بعض المصادر أنه هو الذي سمَّى مزيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلَّة جديدة فإذا أراد دخول مجلسه رمى بها فمزِّقت لئلّا يلبسها أحد بعده.

(2) ذكر سيل العرم في آيات قرآنية تفيد أنه كان في بلاد سبأ يقول تعالى: ﴿لقد كان لسبأ فـي مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. . .﴾ الآيات (سبأ الآية 15 وما بعدها).

(3) بل سنة 302 ب. م.

عليها المياه وجرفها السيل وأهلك الحرث والنسل بل قوض حضارة كاملة أتى عليها من الأساس وترك البلاد قاعاً صفصفاً وتفرق سكانها أيدي سبأ ما بين العراق والحجاز وسورية وفلسطين.

ومما لا ريب فيه أن الحميريين كانوا قبل وقوع هذه الكارثة العظمى من أنشط الأمم الشرقية في الفنون والصناعات والأعمال الزراعية، وآثارهم البارزة في كل مكان الشاهدة بتفوقهم وبراعتهم باقية إلى هذا العهد، تشهد لهم بعلوّ الكعب فيما وصلوا إليه في فنون الحضارة والتمدين ناهيك بما كتبه عنهم معاصروهم من مختلف الأقوام فقد كتب عنهم ديودور الصقلي المتوفى قبل المسيح ما يأتي: كأن خزانات الدنيا كلها وثرواتها في بلاد العرب السعيدة اجتمعت في سوق واحد.

ووصف أغاثر سيدس المتوفى سنة 145 قبل الميلاد بلاد اليمن وتجارتها ومحصولاتها والوارد إليها في عهد القيصر الروماني بتولمي فيلوماتير أو بنحو مائتي عام قبل الميلاد قال: إنه كان وجد في أرض سبأ كل شيء يجلب السعادة لبني آدم. وغير المحصولات المشهورة يوجد فيها اللبان[1] والمر[2] والقرفة[3]. وكانوا يطبخون مأكولاتهم بالأخشاب ذات الروائح الزكية، وكانوا في أرغد عيشة وفي راحة ونعمة يحسدهم عليها الأمراء والأباطرة. دعائم بيوتهم كانت تلمع بالذهب والفضة، وأبوابهم من العاج مزينة بالجواهر وباطنها يشبه خارجها، وأوانيهم وفرشهم وموائدهم وأثاثاتهم تفوق كل ما رآه الأوروبيون. وهكذا وصفها المؤرخ أريان المتوفى سنة 160 بعد الميلاد.

(1) الصنوبر.

(2) لعلها المارورة: حبّ أسود يكون في الطعام.

(3) شجر يزرع في البلدان الحارَّة يستخرج من قشرة أغصانه مطيّب حاد الطعم.

ووصف استرابون الرحالة اليوناني مدينة مأرب لما زارها سنة 24 قبل الميلاد قال عنها أنها كانت مدينة عجيبة سقوف أبنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة، وفيها الآنية الثمينة المزخرفة ممَّا يبهر العقول.

ولم يثبطهم انكسار سد مأرب فقد أنشأوا بعده في جنوب اليمن سدًّاً آخر لم يكن أقل شأناً من الأول على صغره، وهو سدّ مدينة عدن. فإن نشاطهم الخارق جعلهم يفكرون في تعمير هذه المدينة الواقعة في منطقة الجفاف بين أحضان الجبال البركانية وجعلها جنة فيحاء، فنقروا في الجبل، الواقع بين المدينة والبحر، أحواضاً مختلفة الاتساع، لاختزان مياه الأمطار والسيول التي تقع في بعض أيام السنة دون اطراد، لم تزل باقية ليومنا هذا معدودة من أعجب الأوابد الفنية التي تلفت أنظار كبار النحاتين ومهندسي المعمار الذين يتوافدون عليها من جميع الأقطار لمشاهدة تلك الروعة الفنية التي أبدعتها أيدي الفنانين من العرب.

وهي من القمة إلى السفح مقسمة إلى أربعة أحواض متصلة بعضها أسفل بعض، تختلف أغوارها وأقطارها باختلاف موقع كل واحدة منها من الجبل، أعلاها أصغرها وأكبرها أسفلها، تَسَع بجملتها عند الامتلاء 80,000,000 قالون من الماء يذخرونه لأوقات الجفاف. ومع أن الجبل هرميّ الشكل، فإن المياه لا تنزل من عاليه إلَّا بالقدر الذي يؤخذ من الخزان الرابع المتَّصل بالأرض، وذلك بوضع هندسي في أصل النقر. والمدهش أن في صورة امتلاء الخزانات لا تسيح منها قطرة واحدة على وجه الأرض كأن هناك حواجز تحجزها عن الانهيار.

وهكذا توفق المهندس الحميري، بمهارته الفنية العجيبة، أن يجعل

تلك المدينة الظامئة ذات الجو الصارم والريح الشمالية العاصفة، جنة فيحاء تضرب بها الأمثال، وتتحدث بجمالها الفتان الكتب السماوية المقدسة.

ولكن ماذا أغنت هذه الخزانات المحلية الصغيرة بعد انهيار الخزان الأكبر وقد استنفدت مياهه الطاغية في لحظة واحدة كل ما شيدته الحضارة العربية في جملة قرون؟

دولة ماعن[1]

أما دولة ماعن، التي تجزأت عن الدولة الحميرية واستقرت على سواحل البحر الأحمر واتخذت مدينة كرنة عاصمة لها، فقد كانت من الدول البحرية التي ظهرت في بلاد المشرق وكانت أساطيلها القوية تمخر عباب البحار بين ثغور شرقي إفريقيا وسواحل الهند وماليزية وجزائر أندونوسية والفليبين والصين، وكانت لها في ذلك العهد سيادة محترمة في تلك الأقطار أكسبتها شهرة واسعة في التجارة والصناعة. فكان سكان تلك الأقطار يتنافسون في اقتناء ما تخرجه أيدي اليمانيين من النفائس من المنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية والمطرزات. والأخشاب المطعمة، والصناديق المزركشة، والتحف النادرة المصنوعة من المرمر والعاج والأبنوس[2]، فوق ما كان لهم من مهارة في استخراج الأصباغ من النباتات، وما أحرزوه من تفوق وإتقان في النحت وبناء المراكب والسفن. وما زالت مصنوعاتهم لها الصدارة بين معروضات الأسواق إلى يومنا هذا.

والواقف على ما تنتجه أيدي اليمانيين في الصناعة والزراعة، من

---

(1) دولة ماعن أو (دولة معين)، دولة قديمة في اليمن عاصرت الدولة السبئية.

(2) كلمة يونانية: شجر خشبه ثمين أسود اللّون صلب العود.

النحت والتعمير والغزل والنسج ودبغ الجلود وصقل الحجارة الكريمة والنقش عليها والري واستنبات شجرة البن والنقول بأنواعها والفواكه وتركيبها رغم حرمانهم من الحظوظ في التعليم العصري وما داهمتهم من الغوائل الاجتماعية والسباية في مختلف القرون، يَحْكُمْ بداهةً بأنهم ورثة مدنيات فاخرة قد تُسامي مدنية العصر الحديث من وجهتها العلمية لا ينقصها إلَّا الدعاية والترويج.

وكفاية أننا لا نجد بينهم أثراً ما للبداوة أو حياة المترحِّلين الذين يعيشون تحت الخيام كما نراهم في العراق والحجاز وسورية ومصر وشمال إفريقيا، بل إننا نشاهد في مخاليف[1] اليمن القصور الشامخة وناطحات السحاب بدل الأطناب وبيوت الشعر. فقد دهشت يوم فارقت بلدة ماوية[2] عاصمة حدود المملكة اليمانية، في رحلتي الأولى إلى صنعاء سنة 1924 لما أبصرت تلك القصور منتشرة كالآكام بين المزارع حسبتها لأوَّل وهلة قلاعاً عسكرية شيدها الأتراك العثمانيون أيام كانوا يُطاردون زيدية اليمن الخارجين على دولة الخلافة لولا أن نبّهني أحد الجنود الذين كانوا يرافقونني في هذه الرحلة بأمر الحكومة الإمامية فقال: إنها مساكن القرويين الباقية من عهد حمير وهي مشيدة بصناديق الصخور المربعة الشكل على طراز جامع الوزير يوسف صاحب الطابع بحاضرة تونس وكان لهذا القول في النفس شيء. لكنني لما شاهدت جل القرى على طراز معماري واحد حين نزلت بها صدَّقت قول العسكري وآمنت بصحة تاريخ اليمن العجيب وأنه يحق له أن يباهي بقية الممالك بمآثره ومفاخره.

---

(1) مخاليف البلد كُوَرُه. ومخاليف اليمن هي أربعة وثمانون مخلافاً منها مأرب وحضرموت وذمار وغيرها.

(2) سمّيت بذلك لكثرة مياهها التي قيل إنها من أعذب مياه العرب.

أما سبب انحطاطه بعد كارثة السد فالدرك فيه على سوء نظام الحكم من قبل الدول التي تداولت عليه بعد ملوك حمير. فقد انحطت هِمَمهم وساءت تصرفاتهم إلى حد بعيد رغم ما تكلفه من الدفاع عنهم المؤرخ الاجتماعي ولي الدين ابن خلدون. وأبو الفداء إسماعيل ملك حماة وابن الوردي ومن لف لفهم فإن ما كتبوه عنهم بعيد عن تصوير الحقائق وربما كان أشبه بقصص العجائز منه بالتاريخ السياسي للأقوام.

دولة التبابعة ومبدأ عصر الانحطاط في اليمن

تملك هذا الرهط من سلائل الحميريين بلاد اليمن وحكموها من سنة 175 ميلادية إلى سنة 480، وكان أول ملوكهم تبع الأول بن زيد الأقرن[1] حكم البلاد مدة 15 سنة وخلفه عليها بعد مماته ابنه ملكي كرب[2] وكان مأفوناً[3] ضعيف الرأي متردداً في الأمور ومع ذلك نجده استمر في الحكم 30 سنة. وبعد وفاته جلس على سرير الملك أسعد أبو كرب، المعروف بالكامل، ويزعم عامة أهل يريم أنه كان نبيّاً ويوثرون عنه أقوالاً من غير سند يدعمها. تولّى الملك سنة 220 ميلادية. ولكن التاريخ يصفه بغير ما قصه علينا المعاصرون. كان شديد الوطأة عظيم النكاية واسع المطامع. ويذكر عنه ابن إسحاق أنه اعتنق اليهودية وهي من أسباب وقوع الوهن في هذه الدولة.

---

(1) وحسب اليعقوبي فإنه هو الذي يسمَّى الأقرن، وتحديده للمدَّة التي قضاها في الحكم لا يخلو من مبالغة حيث يقول إن حكمه كان 163 سنة 196/1.

(2) (190 - 220 م). أما اليعقوبي فيرى أن مدة ملكه 320 سنة وفيه مبالغة أيضاً (ن. م).

(3) الأفين والمأفون: ضعيف الرأي.

ولما ثقل حكمه على الأعقاب من حمير ولم يطيقوه ثاروا عليه فقتلوه في سنة 238[1] وتولى الملك بعده ابنه حسان[2] فكان همه السعي في الأخذ بثأر أبيه وتتبع الذين اشتركوا في قتله حتى أفناهم جميعاً واحداً بعد واحد، فكرهه الشعب لذلك واجتمعت كلمته على أخيه عمرو[3] فواطأهم على قتله وجلس بعده على سرير الملك وكان ذلك في مفتتح سنة 250 فاعترته، من جراء قتل أخيه، أسقام وأوجاع ولزم الفراش وكانوا يدعونه الموثبات ومعناه بلسان حمير المقْعد[4] وكانوا يحملونه على الأعواد وما زال على تلك الحال إلى أن قضى نحبه.

واختلفت إثر موته أحوال اليمن ومضت على ذلك مدة لا يعلم لهم فيها تاريخ ولا من تولى عليهم من الملوك. ويقال في بعض الروايات أنه أعقب الموثبات أربعة ملوك لم تحفظ أسماؤهم.

ولما انقضت هذه الفترة الغامضة تغلب على سرير الملك السهاد، ولم يطل عهده إلاَّ سنة واحدة ثم مات، وخلفه عبد كلال وهو أول من فارق دين الصابئة الذي كان عليه قومه وانتحل النَّصرانية بتأثير الدعاية الرومية في اليمن، فكان يكثر من العبادة والزهد وأغرق مملكته في التقشُّف والإهمال إلى أن هلك وتقلَّد الأمر بعده حسان، الملقب بتبع الأصغر، فحكم البلاد على ملة آبائه من سنة 297 ميلادية إلى سنة 313.

---

(1) في الأصل 138 م (وهو خطأ).

(2) دام حكمه 12 سنة (238 - 250) حسب أغلب المصادر غير أن اليعقوبي يقول إن مدَّة حكمه 25 سنة (197/1).

(3) عمرو بن تبع. كان معه في جيشه.

(4) يقول الطبري كان يدعى (موثبان) لأنه وثب على أخيه بفرضة نُعم فقتله. ويسمَّى بذي الأعواد لأنه كان يحمل على أعواد (الطبري 117/2).

تدخل الروم في شؤون اليمن
وتخريبهم لعدن

وبعد وفاة تبع الأصغر قام بالأمر بعده الحرث بن عمرو بن ذي الأعواد واستقر له الملك من 313 إلى سنة 321 وفي عهده هجم الروم بمراكبهم على عدن وخربوها، وبقيت خراباً مدة قصيرة ثم أعيدت إلى مركزها الأول وعقدت مع الإمبراطور قسطنطين معاهدة صداقة بواسطة رسول أوفده لذلك في عهد الملك مرشد بن عبد كلال[1] الذي جلس على عرش التبابعة من سنة 321 إلى سنة 345 وخوَّل للروم امتيازاً ببناء كنيسة لممارسة طقوسهم الدينية[2] ومن ذلك العهد أخذت طلائع الاستعمار الرومي تنتشر في الشواطىء اليمانية.

ولما هلك مرثد ملك بعده ابنه وكيعة[3] وكان ضعيف الهمَّة، مذمّم السيرة، مضطرب الرأي مذبذب العقيدة. فتارة كان يظهر الحيل لاعتناق اليهودية ثم يميل إلى النصرانية، ولم يزل كذلك حتى تغلَّب على عقله دعاة النصرانية فتنصر بالفعل وأحنق قومه عليه.

وبسبب هذا التقلقل في العقائد ووقوعه بين المنازع الطائفية التي تفشت باليمن، لعبت الأغراض السياسية دورها المشؤوم فحدثت من جرَّائها اضطرابات داخلية وخالفت عليه أكثر القبائل النافرة من النصرانية الأجنبية وأعلنت عليه العصيان ثم خلعته في سنة 370 وملك بعده أبرهة بن الصباح وكان على جبال تهامة ولم يكن له من مزايا الملوك إلاَّ أنه كان مِعْطاء شديد البذل، ومات في سنة 399 ثم

---

(1) هو أخو تبع لأمّه دام حكمه 40 سنة (اليعقوبي 198/1).

(2) ابتدأ تنصير اليمانيّين على يد قيمون وهو من بقايا أصحاب الحواريين وكانوا يلاقون عنتاً شديداً (المؤلف).

(3) دام حكمه 39 سنة (اليعقوبي 199/1).

تقلد الأمر من بعده صهبان بـن الحرث[1] فقتله التغلبيون[2] بعد حروب هائلة وكان مقتله في سنة 440.

وقام بعده بالأمر الصباح بن أبرهة، وكان جلداً صبوراً فقام يطالب بدم صَهْبان لكنه لم يُفلح ومات سنة 455 فتولى بعده حسان الثاني واستمر في الحكم إلى سنة 478 ثم تقلد الملك من بعده لخيعة الملقب بذي الشناتر. (الأقراط)، وكان ماجناً خليعاً ذكر عنه ابن إسحاق أنه قتل خيار رجالات قومه ظلماً، وكان يعبث بأعراض الفتيات. وبسبب فسقه وفجوره وتجاهره بالموبقات، قتله ذو نواس دفاعاً عن عرضه وكان صبياً صبوحاً وانقرضت بمقتله دولة التبابعة.

دولة الأذواء

يقسم المؤرخون دولة الأذواء إلى طبقتين. ويقولون عنهم هم حكام البلاد الأصليون، ومنهم نبغ الملوك الذين أسسوا الـدول الكبرى وقد تكلمنا على البعض منهم أثناء البحث عن الدول التي نشأت في اليمن.

أما الطبقة الأولى من الأذواء فيعرفون بالمثامنة وهم ثمانيـة أذواء: ذو ثعلبان وذو خليل وذو شجر وذو جدن وذو صرواح وذو مغار وذو جربز وذو عكلان.

والطبقة الثانية كانوا بمثابة أمراء مستقلين منهم ذو مرافد وذو دفين وذو الرمحين وذو يزين وذو أصبح وغيرهم.

وكانت اليمن، أيام دولها العظيمة، لم تَخْلُ من الأذواء. ولما

---

(1) وحسب اليعقوبي ملك بعده عمرو بن ذي قيقان (199/1).

(2) بنو تغلب من أعظم قبائل العرب اليمنية الأصل كانوا على الدين المسيحيّ حتى أوائل العصر العباسي.

انقرضت دولة حمير ظل أولئك الأذواء يتصرفون في شؤون أنفسهم ولهم ثروة ونفوذ حتى أيام الأحباش والفرس، بل ثبتوا إلى ما بعد الإسلام بقرن ونصف كما ذكره العلامة ابن خلدون وكان نظام اليمن على عهدهم لا يختلف عنه في الوقت الحاضر. ويظهر أن الدول الإسلامية القوية التي استولت على اليمن عجزت عن أن تحول اليمن عن نظامها القديم بل هو باق على حاله مع إبدال لفظ الأذواء بسلاطين. فكلما قويت دولة أخضعت من استطاعت منهم بعامل القوة ثم تعود البلاد عند ضعف تلك الدولة إلى نظامها القديم.

تمليك ذي نواس وسعيه في حمل اليمانيين علىٰ اعتناق اليهودية

أجمع الشعب اليماني، بعد مقتل لخيعة الذي كان في سنة 480، على تمليك قاتله ذي نواس واسمه زرعة بن كعب، وهو من سلالة الحرث الرائش، ولما استوثق له الأمر أظهر التهوُّد (التغالي في حبّ اليهودية) وذلك لصرف اليمانيين عن قبول النصرانية وكانت قبائل منهم معرضة عنها، منهم أهل حضرموت وعدن، فغضب عليهم ذو نواس غضباً شديداً ممَّا جعله ينكّل بهم فكان يوقع بالممتنعين من التهوُّد، وابتلي به الناس ابتلاء عظيماً وتهيبته العامة ونابذته حمير وأشفقت منه على البلاد، فأجمعت على خلعه، فلم يرعه ذلك ولم يأبه لهم، بل قبض على أكابرهم ومثَّل بهم.

اضطهاد ذي نواس للنصارى والقائم في الأخدود

ولما استيقن اليهود بانقياد ذي نواس إلى أهوائهم، أغروه بإهلاك نصارى نجران قمعاً للنصرانية وصدّ دُعاتها عن نشرها باليمن، فأجابهم إلى ذلك وأغار على نجران سنة 525 وأرادهم على ترك

النصرانية واعتناق اليهودية فلما امتنعوا عليه قتل رئيسهم عبدالله بن التامر واحتفر لبقية المتنصّرين أخاديد في الأرض أضرم فيها النيران وأمر بأن يلقوا فيها، وأهلك فيها منهم على ما ذكره ابن إسحاق عشرين ألفاً أو يزيدون.

وكان ممن نجا منهم وفرَّ هارباً، رجل من أكابر النجرانيين، يقال له دوس ثعلبان، فصار إلى النجاشي، ملك الحبشة، واشتكى إليه فعل ذي نواس بالنصارى وما نزل بهم، فكتب النجاشي بذلك إلى القيصر جوستين الأول يستأذنه في تجريد خيل إلى اليمن فأذن له بذلك.

إعلان الحرب الدينية على اليمن وتهديم استقلالها

فنهد النجاشي للحرب الصليبية على اليمن سبعين ألف فارس، وأمّر عليهم أرياط[1] وركبوا من شواطىء الحبشة مراكب للروم كانوا أعدُّوها لهم. ولما علم ذو نواس بمقدمهم صمد لمقاتلتهم وتهيَّأ للحرب.

فالتقوا على ساحل عدن واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وقُتل من الفريقين عدد لا يحصى لقائدة الروم واليهود، وكان الفوز في النهاية حليف الحبشة فانهزم ذو نواس بفلوله وتعقبهم الأحباش، ولما توقع الأسر استبسل وقال بيدي لا بيد عمرو، ثم اقتحم بجواده البحر وقال: الغرق أفضل من أسر الأعداء فابتلعته أمواج البحر الأحمر وكان آخر العهد به وما كان أغناه عن الوقوع في هذه المأساة التي

(1) ومعه أبرهة الأشرم وقد دار بين أرياط وأبرهة بعد مهلك ذي نواس نزاع انتهى بانتصار أبرهة.

أوْدَتْ بحياته وباستقلال بلاده.

فتولى الملك من بعده ذو جدن علس بن مشرح فلم تمهله الحبشة حتى يستقر في الملك ولها أطماع في بلاده، فأصلتْه حرباً طاحنة إلى أن هزمته فاقتحم البحر ولحق بسلفه ذي نواس وذلك بعد أن حكم البلاد سنة واحدة أي من سنة 528 إلى سنة 529.

استنجاد ذي يزن[1] بالفرس ووفاته بفارس على أبواب كسرى

وبعد مهلك ذي جدن أفضى الأمر إلى ذي يزن، واسمه عامر بن أسلم، فلم يكد يجلس على عرض المملكة حتى داهمته جنود الأحباش وخربوا البلاد واجتاحوا عمرانها وهدموا حصونها المنيعة مثل سلجبق وسون وغمدان إلخ إلخ وتمَّ للحبشة الاستيلاء على اليمن.

ولما خلعت الحبشة ذي يزن ولم يتمكن من الإقامة في بلاده، خرج إلى فارس يستنجد كسرى أنو شروان واستنصر به فوعده بذلك ولكن لم يفرح هذا الملك الضليل بهذا الوعد حتى اخترمته المنون وهو على باب كسرى قبل أن يدرك أمنيته.

استيلاء الحبشة على اليمن

وبعد خلع ذي يزن استولت الحبشة على البلاد اليمانية استيلاء

(1) يقول فيه أميّة ابن أبي الصَّلت:

لا يطلب الثأر إلاَّ ابن ذي يزن ... أقام في البحر للأعداء أحوالا

أتى هرقل وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده الأمر الذي قالا

تاماً، وانقرض ملك اليمانيين انقراضاً تاماً، بسبب ضعف ملوكهم واستفحال دعايات الطوائف الأجنبية، بعدما كان لهم من الصّولة والملك والغنا والجاه، فتحكّم فيهم عبيدهم بالأمس وسلبوا عنهم النعم والجاه.

وتقلّد حكم اليمن أربعة ولاة من الأحباش وهم: أرياطو أبرهة الأشرم وابنه يكسوم وأخوه مسروق بن أبرهة. ودام حكمهم في اليمن 71 سنة، أي من سنة 529 إلى سنة 601، وغزوا في أول عهدهم مكّة المشرفة ثم ارتدُّوا عنها وقد سلَّط الله عليهم داء الجدري فَوَقَى به حرمه الأمين منهم، فارتدُّوا عنه مَدْحورين وفي ولاية مسروق تقدم الفرس لاستنقاذ اليمن من الأحباش فأطردوهم منها.

رجوع حكم الأذواء إلى اليمن بأيدي الفرس ثم استيلاؤهم عليها

قدمنا أن الملك كسرى أنوشروان أنجدِ سيف بن ذي يزن بجيش تحت قيادة وهرز وأنه أوصاه بطرد الأحباش وتنصيب سيف على عرش آبائه ولما وصل إلى اليمن قهر الأحباش وأجلاهم عن البلاد وأقرَّ سيفاً في الملك ثم انقلب إلى فارس.

وقد عثر الكمندر هينس البريطاني، فاتح عدن، على حجر نقش عليه بالخط المسند ما نصَّه: هجمنا سيوط الغضب على الأحباش والبرابرة وتقدمنا ببأس وشدة على حثالة الجنس البشري. وهي وثيقة تاريخية مهمة.

وأقام سيف في الملك سبع سنين، ومن غفلته عن الأخذ بالحزم أن اصطفى لخدمته جماعة من الأحباش في قصره وركن إليهم، وهم

أعداؤه الألداء، وبينما كان ذات ليلة يستمتع بلهوه وسروره في قصر غمدان بعد أن صفت له الأيام، إذ تآمر عليه أولئك الأحباش فاغتالوه وبمقتله زال استقلال اليمن، بعد أن ردَّ إليهم، وألحقها الفرس ببلادهم وتداولتها عمّالهم وكان آخرهم باذان، الذي أسلم على يد رسول الله ثم تبعه اليمن.

ولولا ظهور الرسالة المحمدية التي جاءت لإنقاذ العالم وخلصت اليمن من الاستعباد الفارسي وإعادته إلى حضن العربية لكان اليوم من أحط المستعمرات الفارسية يعثُو فيه الظّلم والخراب.

المحتويات

الفصل الثالث: الدور الڤندالي

الفصل الرابع: الدور البيزنطي

البــاب الثانـي
الصّراع العربي الآري في الشرق إلى ظهور الإسلام

الفصل الأوّل: الدور العربي

الفصل الثاني: الدور الفارسي

الفصل الثالث: الدور اليوناني

الفصل الرابع: الدور الفارسي ثانية

الفصل الخامس: اليمن قبل الإسلام



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1986/10/3000/102

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد - بيروت